

النص الكامل
الطبعة القانونية الأولى والوحيدة باللغة العربية

أغاثا كريستي



www.lilas.com/vb

السَّتَّارَة قضية بوارو الأخيرة



الزَّجَّال
للترجمة والنشر
JAL PUBLISHING

APPROVED

٧٦

Agatha
Christie

Agatha Christie



Curtain: Poirot's Last Case

السَّتَارَة

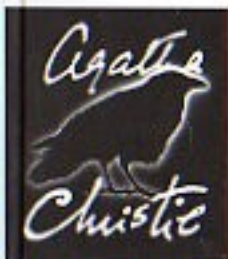
عاد الكابتن هيستنز إلى قصر «ستايلز» بعد كل هذه السنين ليجد صديقه الحميم بوارو عجوزاً مُقْعِداً يتحرك على كرسي ذي عجلات.

بالنسبة للكابتن هيستنز بدا كلُّ الضيوف في «ستايلز» لطفاء مسالمين، لكن بوارو يقول إن بينهم قاتلاً!

هيستنز يظن أن بوارو قد فقد قدراته وبات يتخيل الأمور، لكنه يكشف أن صديقه كان على صواب. لقد رأى هيستنز البرهان: موت بوارو!



هيركيول بوارو



رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر من كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبِع منها ألفي مليون نسخة!

٧٦

رقم هذه الرواية حسب ترتيب
صدور الروايات بالإنكليزية

الناشر وصاحب الحق الحصري
بالطبعة العربية في جميع أنحاء العالم



الأجيال

للترجمة والنشر

BYBL Publishers

ISBN 2-1957-2677-7



US \$ 4.00

سعر البيع ١٥ ريالاً

قصة هذه الرواية

توضيح من «الأجيال»

في تعريفنا بأغانا كريستي الذي قرأتموه في الصفحات السابقة قلنا إنها قد تطوعت للعمل في أحد المستشفيات ممرضةً تساعد الجرحى خلال الحرب العالمية الأولى. وعندما قامت الحرب العالمية الثانية كانت أغانا في نحو الخمسين من عمرها، لكن هذا لم يمنعها من العودة إلى التطوع والعمل بالتمريض، في بلدتها توركي أولاً ثم في لندن بعد ذلك.

وكانت الحياة في لندن في تلك الأيام مخاطرة حقيقية بسبب الغارات الكثيفة التي كانت الطائرات الألمانية تشتتها على العاصمة البريطانية ليلاً ونهاراً، حتى إن البيت الذي أقامت فيه أغانا لم ينجُ من الإصابة بالقنابل. وحينما سافر زوجها إلى الشرق الأوسط ملتحقاً بمهمة مع القوات الجوية الملكية بقيت أغانا في لندن وحدها، وراحت تشغل أكثر وقتها بالكتابة. ورغم انهماكها بأعمال التمريض كان الوقت الذي منحته للكتابة طويلاً، وفي تلك السنوات نشرت عدداً كبيراً من الأعمال: «السروة الحزينة» و«إبريم الحذاء» في عام ١٩٤٠، و«شر تحت الشمس» و«ان أو م؟» في عام ١٩٤١،

والجثة في المكتبة» والإصبع المنحرك» في عام ١٩٤٢، و«جريمة في الذاكرة» في عام ١٩٤٣، و«باتجاه الصفر» و«غائب في الربيع» (من روايات ماري ويستماكوت) في عام ١٩٤٤، وأخيراً «في النهاية يأتي الموت» و«السياتيد المتلالي» في عام ١٩٤٥.

هذه هي الروايات التي نشرتها أغاثا مما كتبت في تلك السنوات الحرجة، لكنها لم تكن كل شيء؛ فبالإضافة إليها كتبت روايتين أرادت أن تجعلهما آخر روايات هيركيول بوارو والأنسة ماريل، لكنها صممت على عدم نشرهما في حياتها وأوصت بطباعتها فقط إذا ما قُتل في انفجارات القنابل في لندن. وحينما انتهت الحرب بسلام قررت أن لا تُنشر هاتان الروايتان إلا بعد موتها.

فأما رواية الأنسة ماريل (الجريمة النائمة)، فقد نُشرت بعد وفاة أغاثا كريستي بأقل من عام، وأما رواية بوارو (التي يموت في آخرها)، «الستارة»، فقد نُشرت في آخر عام ١٩٧٥ بسبب إلحاح ناشر أغاثا الإنكليزي على تقديم جديد لقراءتها في تلك السنة التي أعجزتها فيها الشيخوخة عن تقديم جديد، وقد توفيت أغاثا بعد نشر هذه الرواية بأقل من ثلاثة أسابيع.

وهكذا فإن «الستارة» قد بقيت حبيسة الأدراج لنحو ثلث قرن قبل أن تخرج - أخيراً - إلى الناس.



الفصل الأول

من متى لم يشعر بألم مفاجئ عندما يحيا مرة أخرى تجربة قديمة أو يشعر بشعور قديم؟ لقد حدث لي هذا من قبل. لماذا تؤثر هذه الكلمات في المرء بعمق؟ كان ذلك هو السؤال الذي سأله نفسي وأنا جالس في القطار أراقب أراضي إسكس المنبسطة في الخارج. كم مضى من الوقت منذ أن قمت برحلة مماثلة لهذه الرحلة داخل نفسي؟ لقد شعرت (وهذا شعور سخيف) بأن الحياة قد انتهت بالنسبة لي. لقد جُرحت في الحرب، تلك الحرب التي ستبقى دائماً بالنسبة لي هي الحرب، تلك الحرب التي تبعثها حرب ثانية أكثر تهوراً.

في عام ١٩١٦ بدا لأرثر هيبستنغز الشاب أنه قد كبر ونضج. لم أدرك الأمر جيداً، فبالنسبة لي لم تكن الحياة إلا في بدايتها. كنت أقوم بهذه الرحلة (على الرغم من أنني لم أكن أعلم) لأقابل الرجل الذي كان تأثيره عليّ سيغير حياتي ويعيد تشكيلها. في الواقع كنت سأذهب لأقيم مع صديقي القديم جون كافيندش الذي تملك أمه (التي كانت قد تزوجت حديثاً) بيتاً ريفياً يُدعى «ستابلز». كان الأمر لم شملٍ مسلياً لأصدقاء قدامى... هذا كل ما كنت أعتقد، ولم أتنبأ بأنني سأقحم في جريمة غامضة.

وقد كان «ستايلز» هو المكان الذي التقيت فيه مرة أخرى بذلك الرجل الضئيل الغريب هيركيول بوارو، والذي قابلته لأول مرة في بلجيكا. أذكر جيداً دهشتي لدى رؤيتي له وهو يمشي متميلاً في شارع القرية بشاربه الكبير.

هيركيول بوارو! منذ تلك الأيام أصبح هو صديقي العزيز، وقد أعاد تأثيره صياغة حياتي. وخلال رفقته بحثنا عن جرائم جديدة، والتقيت بزوجتي سندريلا، تلك الفتاة الرقيقة التي يحلم بها أي رجل. إنها ترقد الآن تحت التراب الأرجنتيني؛ فقد ماتت كما كانت تمنى، دون أن تعاني طويلاً أو يضعفها التقدم بالعمر، ولكنها خلفت وراءها رجلاً وحيداً تعساً.

آه لو كان بإمكانني الرجوع إلى الوراء لأعيش حياتي مرة أخرى! لو أن هذا اليوم كان ذلك اليوم من عام ١٩١٦ عندما سافرت إلى «ستايلز» لأول مرة! ما التغييرات التي حصلت منذ ذلك الوقت؟ هل اختلفت الوجوه؟ لقد باعت عائلة كافيندش قصر ستايلز ومات جون كافيندش. ولكن زوجته ماري، تلك المخلوقة المدهشة الغامضة، لا تزال حية وتعيش في ديفونشاير، أما لورنس فيعيش مع زوجته وأولاده في جنوب إفريقيا. تغييرات، تغييرات في كل مكان، ولكن بقي شيء واحد كما هو: هيركيول بوارو، على الرغم من غرابة ذلك.

كنت ذاهباً إلى «ستايلز» لمقابلة هيركيول بوارو. لقد دهشت عندما استلمت رسالته، وكان عنوانها: «قصر ستايلز، ستايلز، إسكس». فأننا لم أر صديقي منذ نحو عام، وفي آخر مرة رأيته فيها

أصبت بالصدمة والحزن؛ فقد رأيت فيه رجلاً عجوزاً أقعده التهاب المفاصل. وقد ذهب إلى مصر وهو يأمل بأن تتحسن صحته، ولكنه عاد (كما أخبرني في رسالته) وقد ساءت صحته. وعلى الرغم من ذلك فقد بدا من كتابته بأنه مرح؛ إذ كتب لي في رسالته يقول:

ألا يسرك أن تزور العنوان الذي أكتب لك من يا صديقي؟ عنوان يشير الذكريات القديمة، أليس كذلك؟ نعم، أنا هنا في «ستايلز»، وأقل ما تشاء. لقد أصبح الآن تزلماً يديره كولونيل بريطاني عجوز محافظ جداً، ومن المعروف أن زوجته هي التي تجعل المكان مُرحباً؛ فهي مديرة جيدة، ولكن لسانها سليط يعاني الكولونيل المسكين بسببه كثيراً، ولو كنت مكانه لكنت قتلها بالبلطة!

لقد رأيت إعلاناً في الصحيفة، ففادني فضولي إلى العودة مرة أخرى إلى المكان الذي كان منزلي الأول في هذا البلد. كم يستمتع المرء بذكريات الماضي وهو في سنّي!

وقد وجدت هنا رجلاً، باروناً، وهو صديق للرجل الذي تعمل معه ابنتك. وفجأة أدركت الخطة، أدركت أنه يريد إقناع عائلة فرانكلين بالقدوم إلى هنا هذا الصيف، ويدوري سأقنعك أنا بالمجيء. ستكون كلنا معاً كعائلة واحدة، وسوف ينال هذا استحسان الجميع، ولذلك تعال بسرعة يا عزيزي هيستغز، بسرعة كبيرة. لقد حجزت لك غرفة بحمام خاص. ستايلز القديم - كما سترى - تمّ تحديثه، وقد ناقشت السيدة لانربيل كثيراً بخصوص الأجر حتى توصلت إلى

اتفاق، والأجر رخيص جداً بالفعل.

عائلة فرانكلين وابنتك الساحرة جوديث يقيمون هنا منذ أيام، وقد تم ترتيب كل شيء، لذلك لا تحاول تليفون الأعداء. إلى الملتقى قريباً.

صديقك دائماً: هيركيول بورو.

● ● ●

كان الأمر مغريباً جداً، وليتُّ رغبة صديقي دون اعتراض. لم يكن شيء يفتيدني؛ فأنا لست مستقراً في مكان ما، أما بالنسبة لأولادي فأحدهم في البحرية، والآخر متزوج ويدير مزرعة في الأرجنتين، وابنتي غريس تزوجت جندياً وتقيم الآن في الهند. أما ابنتي جوديث فقد كانت دائماً ابنتي المفضلة على الرغم من أنني لم أفهمها قط! كانت طفلة غريبة كئيبة تميل إلى الكتمان، تحفظ بأمورها لنفسها ولا تستشير أحداً، الأمر الذي كان يزعجني ويجعلني أشعر بالإهانة. وكانت زوجتي أكثر تفهماً وكانت تؤكد لي أن ذلك لا يعني أن جوديث لا تثق بي بل هو أمر خارج عن إرادتها، ولكنها كانت تقلق بشأنها مثلي تماماً.

كانت تقول إن مشاعر جوديث عميقة جداً ومركزة جداً، وإن طبيعتها المتحفظة تحرمها من أي صمام أمان. كانت تمرّ بنوبات غريبة من الصمت الكئيب وشعور قوي بالانتماء. وكانت أذكى أفراد العائلة، ولذلك وافقنا بسرور على رغبتها في الالتحاق بالجامعة، وقد نالت شهادة جامعية في العلوم قبل عام، ثم عملت سكرتيرة لطبيب كان يجري أبحاثاً تتعلق بالأمراض الاستوائية، أما زوجته

فكانت مفقدة نوعاً ما. وكنت أتساءل أحياناً عما إذا كان انهماك جوديث في عملها وإخلاصها لمديرتها علامة على أنها قد أحبته، ولكنني تأكدت أن أساس علاقتها هو أساس عملي فقط. وأعتقد أن جوديث تحبني ولكن طبيعتها لا تسمح لها بالتعبير عن مشاعرها، وكثيراً ما كانت تغضب وتندمر مما تسميه أفكار الانفعالية القديمة، وأعترف بأنني كنت أشعر بالعصبية تجاه ابنتي.

عند هذه النقطة قطع تأملاتي صوتُ الفطار وهو يقترّب من محطة ستابلز سينت ميرى. على الأقل لم تتغير هذه المحطة، بل غفل عنها الزمان فلا تزال جائمة وسط الحقول دون أي سبب للوجود. لكن حينما سارت سيارة الأجرة عبر القرية لاحظت الاختلاف الذي أحدثه مرور الزمن؛ فقد تغيرت ستابلز سينت ميرى كلياً عما كنت أعرفها، فجذت فيها محطات وقود ودار عرض وصفوف من منازل البلدية.

ثم انعطفنا نحو بوابة «ستابلز»، وهنا ابتعدنا مرة أخرى عن المدينة الجديدة. كان المكان لا يزال كما أذكره، لكن الممر كان مهملاً وقد نمت فيه الأعشاب فوق الحصى. وانعطفنا حول إحدى الزوايا، وعندها لاح لنا المنزل. كان لا يزال كما كان من حيث المظهر الخارجي، وبدا أنه يحتاج إلى أن يُعاد طلاؤه.

وكما حدث عندما أتيت إلى هنا في المرة الأولى، رأيت امرأة منحنية على أحد أحواض الحديقة. وكاد قلبي يتوقف عن الخفقان من فرط الدهشة، ثم نهضت وتوجهت نحوي فضحكت من نفسي؛ إذ كان بينها وبين إيفلين هاورد الضخمة فرق كبير لا يمكن تصوّره. كانت أمامي امرأة عجوز ضئيلة الحجم ذات شعر غزير أبيض مجعد

وحدود زهرية وزوجين من الأعين الزرقاء الفاتحة الباردة، التي كانت تختلف تماماً عن لطفها وحسن تصرفها اللذين كانا مبالغاً فيهما بالنسبة لي.

قالت لي بترحاب وودّ: أظن أنك الكابتن هيستنغز، أليس كذلك؟ يداي متسختان فلا أستطيع مصافحتك. نحن مسرورون لرؤيتك، وقد سمعنا عنك الكثير. يجب أن أعترفك بنفسني أولاً: أنا السيدة لاتريل، وقد اشترت أنا وزوجي هذا المكان في نوبة جنون، ونحن نحاول الاعتناء به ودفعه إلى النجاح. لم أحلم يوماً بأنني سأصبح مالكة فندق، ولكنني أحذرُك يا كابتن هيستنغز، أنا امرأة عملية وأقوم بكل ما أستطيعه.

وضحكنا معاً كما لو كانت نكتة جيدة، ولكن بدا لي أن ما قالته السيدة لاتريل حقيقة أكيدة، فخلّف هذا المظهر الخادع من سحر السيدة العجوز استطعت أن ألحظ الصلاة والقسوة. وعلى الرغم من أن السيدة لاتريل تميل إلى استعمال اللهجة الأيرلندية إلا أنها لم تكن من أصل أيرلندي، بل كان هذا مجرد تكلف منها.

سألت عن صديقي فقالت: آه السيد بوارو المسكين. الطريقة التي كان يترقب بها حضورك تذيب الحجر! أشعر بالأسف الشديد نحوه وهو يعاني بهذه الطريقة.

سرنا باتجاه المنزل في حين كانت تنزع قفازات العمل، وتابعت قائلة: وابتك الجميلة أيضاً... إنها فتاة لطيفة ونحن جميعاً معجبون بها جداً، ولكنني تقليدية كما تعلم، ومما أراه محزناً أن فتاة مثلها تقضي وقتها في تشريح الأرانب والجلوس خلف المجهر

طول اليوم! مثل هذه الأمور يجب أن تُترك للرجال في رأيي، أما فتاة شابة مثلها فينبغي أن تستمتع بمباهج الحياة.

- أين جوديث؟ أمي قريبة؟

بدا الامتعاض على وجه السيدة لاتريل وقالت: آه، يا للفتاة المسكينة! إنها مسجونة في ذلك المعمل في نهاية الحديقة. لقد استأجره الدكتور فرانكلين مني وهو الذي قام بإعداده وترتيبه وتجهيزه بأقفاص فيها حيوانات للتجارب. يا للمخلوقات المسكينة، فتران وأرانب! لا أظن أنني أحب هذا العلم يا كابتن هيستنغز. آه، هذا هو زوجي.

كان الكولونيل لاتريل قد جاء ماشياً من وراء زاوية المنزل. كان رجلاً طويلاً نحيلاً ذا وجه شاحب وعينين متوسطتي الزرقة، وكان من عادته شد شاربيه الأبيضين بحيرة، وبدا سلوكه غامضاً ويميل إلى العصبية.

قالت زوجته: جورج، لقد وصل الكابتن هيستنغز.

فصافحتي الكولونيل لاتريل قائلاً: لقد وصلت في قطار الساعة الخامسة وأربعين دقيقة، أليس كذلك؟

قالت السيدة لاتريل بحدة: وبمّ تظن أنه وصل؟ وماذا يعني لك الأمر على أي حال؟ اصحبه إلى غرفته يا جورج، ولعله يريد الذهاب إلى السيد بوارو من فوره أو لعله يفضل تناول الشاي أولاً.

أكدت لهما أنني لا أريد الشاي بل أفضل الذهاب للسلام على صديقي، فقال الكولونيل لاتريل: حسناً، اتبعني، أظن أنهم أخذوا

أغراضك إلى غرفتك، أليس كذلك يا ديزي؟

قالت السيدة لاتريل بحدة: هذا من اختصاصك يا جورج. كنت أعتني بأمور الحديقة ولا أستطيع الاعتناء بكل شيء هنا.

- نعم، نعم، بالطبع؛ سوف أهتم أنا بالأمر يا عزيزتي.

وتبعته إلى الدرجات الأمامية، وعلى عتبة الباب صادفتها رجل رمادي الشعر ممتلئ الجسم ذو وجه طفولي متحمس. كان يجري مسرعاً وهو يعرج ويده منقار، وقال وقد تلعث قليلاً: ثمة زوجان من الطيور بنيا عشمهما عند شجرة الجَمِيز.

وعندما كنا ندخل القاعة قال لاتريل: هذا نورتون، إنه فني لطيف مغرم بالطيور.

وفي القاعة نفسها رأيت رجلاً ضخماً يقف قرب الطاولة، وبدا من الواضح أنه قد انتهى من التحدث بالهاتف، ثم نظر نحونا قائلاً: أريد أن أشتق جميع المتعهدين والبتانيين... لا يمكنهم عمل شيء بالشكل الصحيح، فانتلهم الله!

بدا قوله مضحكاً جداً ومحرزناً جداً بحيث ضحكنا معاً، وشعرت بالانجذاب نحو ذلك الرجل على الفور. كان وسيماً وقد تجاوز الخمسين، وكان وجهه شديد السمرة بفعل الشمس، وبدا وكأنه قد عاش حياته في الخارج وأنه من تلك النوعية من الرجال الذين أصبحوا نادريين بمرور الأيام؛ رجل إنكليزي من المدرسة القديمة، مستقيم يحب حياة الترحال، ويبدو أنه رجل قيادي.

ولم أصب بالدهشة عندما قدمه لي الكولونيل لاتريل على أنه

السير ويليام بويد كارنغتون. كان -على حد علمي- محافظاً في إحدى محافظات الهند حيث حقق نجاحاً مميّزاً، وكان معروفاً بأنه رام من الدرجة الأولى وصياد محترف. وفكرت بحزن بأنه من تلك النوعية من الرجال التي يبدو أنها لم تعد تتكاثر في هذه الأيام الفاسدة!

قال السيد ويليام: آه، أنا سعيد لأنني استطعت مقابلة هذه الشخصية الهامة... صديقي هستنغز.

قالها ثم ضحك وأكمل يقول: ذلك الرجل البلجيكي يتحدث عنك كثيراً كما تعلم، وبالطبع ابتك هنا أيضاً، وهي فتاة طيبة.

فقلت وأنا أبتسم: لا أظن أن جوديث تتحدث عني كثيراً.

- إنها فتاة عصرية، والفتاة في هذه الأيام تبدو محرّجة من الحاجة إلى التعرف بأيها أو بأماها!

فقلت: الآباء مصدر إحراج فعلاً.

فضحك قائلاً: حسناً، أنا لا أعاني بهذه الطريقة لسوء الحظ؛ فليس لدي أبناء. ابتك جوديث فتاة جميلة وذات مستوى رفيع من الثقافة، وأنا أجد ذلك مدعاة للفخر.

ثم التقط سماعة الهاتف مرة أخرى وقال: أرجو أن لا تمناع إذا أرهقت عامل السترايل يا لاتريل؛ أنا لست بالرجل الصبور.

- لا بأس، هذا سوف يفيدهم.

ثم قادني لاتريل إلى الطابق الأعلى، وأخذني عبر الجناح الأيسر من المنزل إلى باب في نهاية الجناح فأدركت أن بوارد قد

اختر لي الغرفة ذاتها التي كنت قد شغلتها في الماضي. كانت هناك بعض التغييرات، وبينما أنا أسير عبر الممر كانت بعض الأبواب مفتوحة، فلاحظت أن غرف النوم القديمة قد تم تقسيمها بحيث تصبح عدّة غرف صغيرة.

أنا غرفتي التي لم تكن كبيرة فلم يجرّ عليها أيّ تغيير باستثناء تركيب أنابيب المياه الساخنة والباردة، وقد فصل جزء منها لاستخدامه حماماً صغيراً. ورأيت أن الغرفة قد فرشت بطريقة عصرية رخيصة مما أثار خيبة أمني؛ إذ كنت أفضل نمطاً ينسجم مع النمط المعماري للمنزل.

كانت حقائبي في غرفتي، وأوضح لي الكولونيل لاتريل أن غرفة بوارو هي الغرفة المقابلة، وكان على وشك اصطحابي إلى هناك عندما ترددت من أسفل القاعة صرخة حادة تنادي: جورج!

جفل لاتريل كحصان عصبي ووضع يده على فمه وقال لي بسرعة وارتيك: أنا... أنا... هل كل شيء مناسب لك؟ استدعنا عندما تريد أمراً ما.

- جورج!

- أنا قادم يا عزيزتي، أنا قادم.

وأسرع عبر الممر، ووقفت برهة أتبعه بنظري، ثم عبرت الممر وقد بدأت دقات قلبي بالتسارع قليلاً، وطرقت باب غرفة بوارو.

* * *

الفصل الثاني

من وجهة نظري لا يوجد ما يشير الحزن أكثر من رؤية شخص تغير شكله كلياً بمرور الزمن. يا لصديقي المسكين! لقد وصفته لكم أكثر من مرة، والآن سأنقل لكم الاختلاف: لقد أقعده التهاب المفاصل، ولذلك فهو يجرّ نفسه على كرسيّ متحرك. جسده الذي كان مثلثاً ضَعْفَ قِبات رجلاً ضئيلاً نحيفاً، وصار وجهه ممثلاً بالخطوط والتجاعيد. صحيح أن شارب وشعره لا يزالان شديديّ السواد، ولكنه ارتكب بذلك خطأ جسيماً في الواقع (رغم أنني لن أؤذي مشاعره بإخباره بذلك)، فأحياناً تظهر صبغة الشعر بشكل واضح، ولقد مرّ عليّ زمان دُهشت فيه عندما علمت أن سواد شعر بوارو مصدره زجاجة صباغ، أما الآن فقد ظهر زيفه أكثر حتى لقد بدا وكأنه يضع شعراً مستعاراً ويزين شفته العليا بالشارب ليسلي الأطفال!

عيناه فقط بقيتا كما كانتا في السابق، متلاشتين برّاقتين، وفي تلك اللحظة رأيتهما تشعان بعاطفة صادقة لا شك فيها. هتف بي حالما رأيته: صديقي هيستنغز، صديقي هيستنغز!

وكما كان يفعل دائماً عانقني بحنان، وأخذ ينظر إليّ وقد انكأ

إلى الخلف ورأسه يميل جانباً ثم قال: عزيزي هيستغز، مازلت كما كنت؛ الظهر المستقيم والأكتاف العريضة والشعر الرمادي... أتعلم يا صديقي؟ لقد هرمت بشكل جيد. ألا تزال الفتيات يُعجبين بك؟

فاحتججت قائلاً: بوارو، هل يجب...؟

- ولكنني أؤكد لك أنه امتحان يا صديقي، بل هو الامتحان الحقيقي؛ فعندما تبدأ الفتيات بالتحدث إليك بلطف ورقة فاعلم أنها النهاية، فهن يقلن لأنفسهن: "يا للرجل المسكين! علينا أن نُحسّن معاملته". من المخيف أن تكون كذلك! ولكنك ما زلت شاباً يا هيستغز، الفرصة لا تزال أمامك، نعم، ابرم شاريك وادفع بكتفك إلى الأمام. أنا أرى الأمر كما أقول، وإلا فلن تبدو واثقاً من نفسك.

انفجرت ضاحكاً وأنا أقول: لا مثيل لك يا بوارو! ولكن كيف حالك أنت؟

قال بحزن: حُطام، لا أستطيع المشي فأنا مُقعّد كما ترى! ولكن -والحمد لله- مازلت قادراً على إطعام نفسي، أما سوى ذلك فيجب أن أعامل كطفل يجب مساعدته في كل أمر، يجب وضعه في الفراش بعد أن يكون قد اغتسل وارتدى ثياب النوم. هذه هي النهاية، وليس هذا بالأمر المسلي، ولكن الحمد لله؛ فرغم كل هذا التداعي الخارجي فإن الجوهر سليم.

- نعم، بالطبع، فأنت تملك أحسن قلب في العالم.

- قلبي؟ هذا ممكن، ولكنني لم أكن أعني القلب بكلامي، بل

العقل هو ما عينته بالجواهر. عقلي لا يزال يعمل بصورة جيدة.

أدرت أن أي تدهور لم يُصب حالته العقلية على الأقل، وخصوصاً فيما يتعلق بالتواضع. سأثته: هل تحب المكان هنا؟

هز بوارو كتفيه قائلاً: بالتأكيد لا، ولكنه يفني بالغرض. الغرفة التي سكنت فيها عندما أتيت أول مرة كانت صغيرة، كما أنها لم تكن مفروشة بالشكل المناسب لي، فانتقلت إلى هذه الغرفة دون أي زيادة في الإيجار. أما بالنسبة للطعام فهو طعام إنكليزي في أسوأ أحواله، فالبطاطا المسلوقة إما أن تكون جافة أو أنها تنفّت بسهولة، أما الخضار فقطعته كالماء، ماء ثم ماء مرة أخرى، كما أنهم لا يستعملون البهارات والملح في الطعام أبداً.

قلت: يبدو الأمر مريعاً.

قال بوارو: "أنا لا أتذمر". ولكنه تابع التذمر قائلاً: وهناك أيضاً ما يدعونه بالتجديد، كالحمامات والصنابير في كل مكان، ولكن ماذا ينزل منها؟ ماء دافئ فقط يا صديقي... وفي معظم ساعات النهار، أما المناشف فهي صغيرة وعددها قليل.

قلت باحتراس: يوجد الكثير مما يمكن أن يُقال بحق الأيام الخوالي.

تذكرت سحب البخار الذي كان يتدفق من حنفيات المياه الساخنة الموجودة في الحمام الوحيد في «ستابلز» في تلك الأيام، وتذكرت أيضاً المناشف الكبيرة والأواني النحاسية المتتابعة المملوءة بالماء الساخن التي كانت توجد في الأحواض القديمة.

وقال بوارو مرة أخرى: على المرء أن لا يتذمر، فأنا مستعد للتضحية في سبيل هدف يستحق المعاناة.

وخطرت ببالي فجأة فكرة معيّنة فقلت: بوارو، أنت لا تعاني من متاعب مالية، أليس كذلك؟ أنا أعلم أن الحرب قد أثرت على الاستثمار بشكل سيئ.

ولكن بوارو طمأنني قائلاً: لا، لا يا صديقي، أنا مرتاح مادياً، بل أنا ثري في الواقع. أنا لم أت إلى هنا لأسباب اقتصادية.

قلت: "هذا جيد"، ثم تابعت: أظن أنني أفهم مشاعرك جيداً، فكلما تقدم العمر بالإنسان فهو يميل أكثر وأكثر إلى العودة إلى الأيام الماضية وتذكرها ويحاول استعادة المشاعر القديمة. إن وجودي هنا يؤلمني بشكل ما، ولكنه - في الوقت ذاته - يعيد إلى ذاكرتي مئات الذكريات والأحاسيس التي نسبت أنني كنت أشعر بها، وبمكنتي القول بأنك تشعر مثلي.

- بالطبع لا، أنا لا أشعر بمثل هذا أبداً.

قلت: لقد كانت أياماً جيدة.

- تستطيع التحدث عن نفسك يا هيستنغز، أما بالنسبة لي فقدومي إلى ستايلز سينت ميري كان محزناً ومؤلماً؛ لقد كنت لاجئاً منفياً من الوطن بعيداً عن البيت أعيش على الصدقات في بلد أجنبي لا، لم تكن أياماً سعيدة، ولم أكن أعلم في ذلك الوقت أن إنكلترا ستصبح وطني وأني سأجد السعادة فيها.

فاعترفت له قائلاً: لقد نسيت ذلك.

- بالضبط، أنت تصف دائماً للآخرين المشاعر التي تشعر بها أنت: هيستنغز كان سعيداً، إذن فالجميع كانوا سعداء.

فاعترضتُ ضاحكاً وقلت: لا، لا.

فتابع بوارو: على أي حال فهذا غير صحيح، فعندما تستذكر الماضي تتفرق في عينيك الدموع وتقول: "آه! تلك الأيام السعيدة، كنت عندها شاباً بافِعاً، ولكنك - في الواقع - لم تكن سعيداً كما تظن الآن يا صديقي؛ لقد كنت تعاني آنذاك من جروح وإصابات شديدة، وكنت قلقاً من كونك لم تُعدَ لائقاً للخدمة العسكرية، وكنت تعاني من اكتئاب شديد نتيجة إقامتك في نُزلٍ للنفاهة، وكما أذكر فقد تعقدت الأمور أكثر نتيجة لوقوعك في حب امرأتين في وقت واحد.

ضحكت وقد احمرّ وجهي خجلاً وقلت: ما أقوى ذاكرتك يا بوارو!

- أنا أذكر الآن كيف كنت تتهد بحزن كلما تذكرت حماقتك بخصوص هاتين المرأتين الجميلتين.

- لعلك تذكر ما قلت لي، قلت: كلتاها ليستا لك، ولكنك تشجع يا صديقي، فربما خرجنا معاً للصيد مرة أخرى، وعندها ربما...

وتوقفت، فقد ذهبت مرة أخرى للصيد مع بوارو في فرنسا، وهناك قابلت المرأة الوحيدة...

ويرفق ربّ صديقي على يدي وقال: أعلم يا هيستنغز، أعلم!

لا يزال الجرح حديثاً ولكن عليك نسيانه. لا تنتظر وراءك بل انظر إلى الأمام.

فأومات باشمتراز وقلت: أنظر إلى الأمام! وماذا هناك لأنظر إليه؟

- حسناً يا صديقي، أماننا عمل يجب إنجازه.

- عمل؟ أين؟

- هنا.

حدقت إليه فقال: لقد سألتني الآن عما أتى بي إلى هنا، وربما لم تلاحظ أنني لم أجيبك. سأعطيك الجواب الآن: «أنا هنا للبحث عن قاتل».

فحدقت إليه مدهوشاً، ولوهلة ظننت أنه يهذي فقلت: أنت لا تعني ما تقول، أليس كذلك؟

- بالطبع أعني ما أقول، ولماذا تظنني حثثك على اللحاق بي؟ لم يعد جسمي سليماً ولكن عقلي - كما قلت لك - لم يضعف بعد، ومبدئي في هذه الحياة لا يزال كما كان دائماً. هل تذكر: «اجلس وفكر». هذا هو الأمر الذي لا أزال أستطيع القيام به، بل هو الأمر الوحيد الذي أستطيع القيام به في الحقيقة، أما بالنسبة إلى الجانب الآخر الحيوي والفعال من القضية فسوف أشرك به صديقي العزيز هيستنغز.

كررت بلهفة: أعني ما تقول؟

- بالطبع؛ سنذهب أنا وأنت إلى الصيد مرة أخرى يا هيستنغز.

احتجت إلى بضع دقائق لأدرك أن بوارو جاذ في الأمر، ولم يكن لدي من الأسباب ما يجعلني أشك في حكم بوارو بالرغم من غرابة تعبيراته السابقة. قال لي وابتسامة بسيطة تغطي وجهه: لقد اقتعت أخيراً. تصورت في البداية أن عقلي قد بدأ يخف، أليس كذلك؟

فأنكرت بسرعة قائلاً: لا، لا، ولكن لا يبدو أن جريمة قد وقعت هنا.

- هل تظن ذلك؟

- بالطبع لم أر جميع الأشخاص بعد.

- من رأيت؟

- فقط السيد والسيدة لانريل، ورجلاً يُدعى نورتون بدا لي شخصاً مسالماً، وأيضاً التقيب بويد كارنغتون، وقد أثار اهتمامي بشدة.

أوما بوارو قائلاً: حسناً يا هيستنغز، عندما تتعرف إلى بقية السكان ستبدو لك أقوالي بعيدة الاحتمال كما هي الآن.

- من يوجد أيضاً؟

- عائلة فرانكلين المكونة من طبيب وزوجته، وممرضة تعني بالسيدة فرانكلين، ثم ابنتك جوديث، وأيضاً يوجد رجل يُدعى أليرتون فانتن النساء، ثم الأنسة كول، وهي فتاة في الثلاثينيات. يمكنني أن أقول لك إنهم قوم لطفاء.

- وأحدهم قاتل؟

- نعم، أحدهم قاتل.

- ولكن لماذا؟ كيف؟ لماذا تظن...؟

وجدت صعوبة في صياغة أسئلتي التي كان بعضها يتهاوى فوق بعض، فقال بوارو: اهدأ يا هيستنغز ولنبدأ من البداية. أرجو أن تحضر لي تلك الحقيبة الصغيرة الموضوعة على المكتب. حسناً، ها هو ذا المفتاح.

وبعد أن فتح الحقيبة أخرج منها مجموعة من الأوراق المطبوعة وقصاصات الجرائد، ثم قال: يمكن أن تدرس هذه الأوراق في وقت فراغك يا هيستنغز، ولا تهتم بقصاصات الجرائد كثيراً، فهي روايات الصحف لعدد من المآسي، وهي غالباً غير دقيقة بل هي إبحائية أحياناً. ولكي تأخذ فكرة عن تلك القضايا فأنا أقترح عليك قراءة هذا الملخص الذي أعدته.

أخذت الملخص ورحت أقرؤه باهتمام:

القضية «أ»: قضية أ. إترنغتون

ليونارد إترنغتون: عادات غير حميدة، يتعاطى المخدرات والمسكرات، شخصية غريبة وسادية، زوجته شابة جذابة ليست سعيدة معه أبداً. مات نتيجة لتسمم غذائي، لم يفتتح الطبيب الشرعي، وبعد التشريح تبين أن سبب الوفاة سم الزرنبيخ، وتبين وجود سم قاتل للأعشاب الضارة في البيت ولكن كان قد تم طلبه منذ مدة طويلة. اعتقلت السيدة إترنغتون ووُجِّهت إليها تهمة القتل،

وكانت قد تعرفت حديثاً إلى رجل يعمل في الخدمة المدنية سوف يعود إلى الهند.

لم يظهر أي دليل على وجود خيانة زوجية ولكن كان بينهما نوع من الانسجام العميق، ثم تبين أن ذلك الشاب قد خطب وسوف يتزوج فتاة كان قد عرفها في إحدى رحلاته. وقد ثارت الشكوك: هل تلقت السيدة إترنغتون رسالة تخيرها بتلك الحقيقة بعد وفاة زوجها أو قبل الوفاة؟ هي تقول إنها تلقتها قبل وفاته، وكانت الأدلة ضدها ظرفية. لا يوجد متهم آخر واحتمال أن الأمر كان حادثاً غير وارد.

تعاطف الناس معها في أثناء المحاكمة نتيجة لشخصية زوجها ولمعاملته السيئة لها، وكان تلخيص القاضي في صالحها مؤكداً على أن حكم المحلفين يجب أن يكون مبنياً على عدم الشك إطلاقاً، فتتم تبرئة السيدة إترنغتون. ولكن الرأي العام كان يؤكد أنها مذنب، وقد أصبحت حياتها - بعد ذلك - صعبة نتيجة لمعاملة الأصدقاء وغيرهم لها ببرود، ثم ماتت نتيجة تناولها جرعة مضاعفة من الحيات المنومة بعد سنتين من المحاكمة، وتقرر بعد التحقيق أن الوفاة كانت نتيجة حادثة.

القضية «ب»: السيدة شاربليس

عجوز عانس عاجزة صعبة المراس تعاني من الآلام كثيراً، تُعنى بها ابنة أختها فريدا كلاي، ماتت نتيجة تناولها جرعة مضاعفة من المورفين، واعترفت فريدا كلاي بالذنب قائلة إن معاناة خالتها كانت شديدة ولم تعد تستطيع الاحتمال فأعطتها المورفين لتخفيف الألم.

رأي الشرطة أن العمل كان متعمداً ولم يكن عن طريق الخطأ، ولكن الأدلة لم تكن كافية لانهامها.

القضية «ج»: إدوارد ريفز

عامل زراعي، شك بأن زوجته تخونه مع نزيلهم بن كريغ، عُثر على كريغ والسيدة ريفز مقتولين بالرصاص وتبين أن الطلقات مصدرها بنادقية السيد ريفز. سلم ريفز نفسه إلى الشرطة وقال إنه يظن بأنه هو الذي ارتكب الجريمة، ولكنه لا يستطيع التذكر. حُكم على ريفز بالإعدام ثم خُفف الحكم بعد ذلك إلى الأشغال الشاقة المؤبدة.

القضية «د»: ديريك برادلي

كان على علاقة بإحدى الفتيات، واكتشفت زوجته الأمر فهددته بالقتل. مات نتيجة لوضع سيانيد البوتاسيوم في شرابه، وتم القبض على السيدة برادلي وحوكمت بتهمة القتل، وانهارت عند الاستجواب وتم الحكم عليها وسُفنت.

القضية «هـ»: ماثيو ليتسفيلد

طاغية عجوز، عنده أربع بنات لا يسمح لهنّ بالنسبية ولا يعطيهنّ نقوداً، وعندما كان عائداً إلى البيت هاجمه أحدهم في إحدى الأمسيات على عتبة بابه وقتله بضربة على رأسه. وأخيراً وبعد تحريات الشرطة تقدمت ابنته مرغريت إلى الشرطة واعترفت بقتل والدها، وقالت إنها ارتكبت جريمتها لكي تتمكن أخواتها من التمتع بحياتهنّ قبل فوات الأوان. وقد خُلف ليتسفيلد وراءه

ثروة هائلة، واعتُبرت مرغريت مجنوننة وأدخلت إلى مصحح برودمور، لكنها ماتت بعد فترة قصيرة.

قرأت بدهشة واهتمام، وأخيراً وضعت الأوراق جانباً ونظرتُ إلى بوارو متسانلاً فقال: حسناً يا صديقي، وماذا بعد؟

فقلتُ ببطء: أنا أتذكر قضية برادلي؛ لقد قرأت عنها في ذلك الوقت. ولكن أخبرني: ما سبب كل هذا؟

- أخبرني أولاً برأيك فيما قرأت.

كنتُ متحيراً فقلت: ما قدمته لي هو روايتك لخمس جرائم مختلفة حدثت في أماكن مختلفة وضمن طبقات مختلفة من الناس، كذلك لا يوجد أي تشابه بينها؛ فإحداها كانت قضية غيرية، وأخرى كانت زوجة تَعَسَة تحاول التخلص من زوجها، وثالثة كان الدافع إليها المال، ورابعة يمكن القول إن هدفها غير أناني، ولا سيما وأن القاتلة لم تحاول التخلص من العقاب. أما الخامسة فقد كانت وحشية وفي الغالب ارتكبت بتأثير الشراب.

وتوقفتُ هنيهة ثم قلت: أنا لست واثقاً... هل يوجد أي عامل مشترك بينها لم ألاحظه؟

- لا، بل كنتُ دقيقاً في تلخيصك، ولكن النقطة الوحيدة التي كان يجب أن تذكرها ولم تفعل هي أنه لم يوجد مجال للشك في أي من القضايا.

- لا أظن أنني أفهمك.

- لقد تمت تبرئة السيدة إثرنغتون على سبيل المثال، ولكن الجميع -دون استثناء- كانوا متأكدين من أنها هي الجانية. ولم تتهم فريدا كلاي بشكل واضح ولكن أحداً لم يفكر بأي حل آخر للجريمة. وقد قرر ريغز أنه لا يتذكر بأنه قتل زوجته وعشيقها، ولكن لم يوجد أي احتمال بأن أحداً آخر قد ارتكبها. واعترفت مرغريت ليشفيلد بجريمتها. فكما ترى يا هيستنغز: في كل قضية يوجد متهم واحد فقط.

قطبتُ حاجتي وقلت: نعم، هذا صحيح، ولكنني لا أدري ما هي الاستنتاجات التي تخرج بها من ذلك.

- آه، ولكن كما ترى فأنا توصلت إلى حقيقة لا تعلمها أنت بعد. لنفترض -يا هيستنغز- أنه في كل حالة من الحالات السابقة كان هناك طرف غريب، شخص غريب وُجد في الحالات كلها.

- ماذا تعني؟

قال بوارو ببطء: أنا أنوي أن أكون حذراً جداً فيما أقول يا هيستنغز. دعني أوضح لك الأمر: هناك شخص ما سأسأله «س». من الواضح أن السيد «س» هذا لم يكن لديه دافع واضح في جميع الحالات السابقة لارتكاب جريمته، بل لقد اكتشفت أنه كان بعيداً مسافة متني ميل عندما ارتكبت الجريمة في إحدى القضايا. وعلى الرغم من ذلك فأنا أقول لك إن «س» كان على علاقة حميمة بإثرنغتون، وإنه عاش لبعض الوقت في نفس القرية التي عاش فيها ريغز، وإنه كان يعرف السيدة برادلي، وإن لدي صورة له وهو يسير

مع فريدا كلاي في الشارع، وإنه كان قريباً من المنزل عندما قُتل العجوز ماثيو ليشفيلد... فماذا تقول بهذا الشأن؟

حدقت إليه ثم قلت ببطء: نعم، هذا كثير بالفعل. قد تكون صدفة في قضية أو اثنتين أو حتى في ثلاث، أما في خمس قضايا؟ هذا كثيراً إذن لا بد من وجود علاقة، مع أن الأمر يبدو مستبعداً بين تلك الجرائم المختلفة.

- إذن فقد توصلت إلى ما توصلت إليه أنا؟

- نقصد أن «س» هو القاتل؟ نعم، هذا ما توصلت إليه.

- في هذه الحالة أنت على استعداد للمضي معي قُدماً يا هيستنغز. والآن دعني أخبرك: إن «س» يعيش في هذا المنزل.

- هنا؟! في «ستايلز»؟

- نعم، في «ستايلز». فما هو الاستنتاج المنطقي الذي نستنتجه من هذا؟

كنت أعلم النتيجة عندما قلت: تابع، قلها.

فقال بوارو بصوت خفيض وقور: إن جريمة سُررتكب هنا عما قريب.

* * *

الفصل الثالث

لوهلة نظرتُ إلى بوارو برعب ثم قلت: لا، لن تحدث جريمة هنا لأنك سوف تمنعها.

رمانى بوارو بنظرة حانية وقال: صديقي المخلص، كم أقدر ثقتك بي، ولكن مع ذلك فأنا لست واثقاً إذا كنت محقاً في تقديرك لي هذه المرة.

- هراء! أنت تستطيع منعها بالطبع.

وكان صوت بوارو منخفضاً عندما قال: انتظر لحظة يا هيستنغز، يستطيع المرء العثور على القاتل، ولكن كيف يستطيع أن يوقف جريمة؟

- حسناً، أنت... أنت... حسناً، أعني... إذا كنت تستطيع أن تتنبأ...

وتوقفتُ وقد أحسستُ بالضعف لأنني بدأت أرى الصعوبات، فقال بوارو: أترى أن الأمر ليس سهلاً؟ توجد ثلاث وسائل فقط: الأولى هي تحذير الضحايا؛ أن نجعلهم حذرين، وهذا لا ينجح

دائماً لأن من الصعب جداً إقناع بعض الناس بأنهم معروضون لخطر شديد، وقد يكون هذا الخطر من شخص قريب وعزيز عليهم. سوف بغضوبون وسيرفضون التصديق. أما الوسيلة الثانية فهي تحذير القاتل، كأن تقول له بلهجة غامضة: "أنا أعلم نواياك، وإذا مات هذا أو ذاك فسوف تُشنق لا محالة". وهذا الأسلوب ينجح أكثر من الأسلوب الأول في أغلب الحالات، ولكن من المرجح أن يفشل أيضاً؛ فالقاتل هو أكثر المخلوقات غروراً على وجه الأرض يا صديقي، القاتل دائماً أذكى من الجميع؛ لا أحد يشك فيه، وسوف يرتبك رجال الشرطة ونتيجة لذلك فإنه سيمضي في خطته، وكل ما نحصل عليه هو السعادة عندما نشقه لاحقاً.

ونوقف ثم قال بحرص: لقد أُنذرتُ القاتل مرتين في حياتي، الأولى في مصر والثانية في مكان آخر، وفي كلتا الحالتين كان المجرم مصتماً على القتل، وربما كان الوضع كذلك هنا.

وذكرته قائلًا: لقد تحدثت عن أسلوب ثالث؟

- نعم، ولكنه يحتاج إلى براعة تامة، فأنت بحاجة لأن تتوقع كيف ستأتي الضربة وأين، ويجب أن تكون مستعداً للتدخل في اللحظة الحاسمة؛ يجب عليك الإمساك بالقاتل حتى إن لم يكن منلبساً، ولكن يكفي أن لا تكون نواياه السيئة محل يشك.

وتابع بوارو قائلًا: وهذا أسلوب ذو أهمية وصعوبة شديديتين يا صديقي، ولا أستطيع ضمان نجاحه ولو للحظة. قد أكون مغروراً ولكن ليس إلى هذه الدرجة.

- وأني الأساليب تقترح استخدامه هنا؟

- من المحتمل أن أستخدم الثلاثة معاً، والأول هو أصعبها.

- لماذا؟ كنت أظنه الأسهل.

- نعم، هذا إن كنت تعرف من سيكون الضحية، ولكن ألا

تدرك بأنني لا أعلم من الضحية يا هيستغز؟

- ماذا؟

قلتها بقوة وبلا تفكير. وبدأت تظهر لي صعوبات الموقف؛ فالصلة موجودة، يجب أن تربط بين هذه السلسلة من الجرائم صلة، ولكننا لا نعرف ما هي هذه الصلة! أما الدافع (وهو أمر شديد الأهمية) فإنه مفقود، ودون معرفته لا نستطيع معرفة المهدد بالقتل!

أوما بوارو برأسه عندما رأى من تعبيرات وجهي أنني قد أدركت صعوبة الموقف وقال: هل ترى يا صديقي؟ إن الأمر ليس سهلاً.

- نعم، أرى ذلك. ألم نستطع - بعد - اكتشاف الصلة بين هذه القضايا المختلفة.

هز بوارو رأسه وقال: لا شيء هنا.

وفكرت مرة أخرى في القضايا «أ» و«ب» و«ج». لقد تعاملنا في الماضي مع قضية بدا منها ظاهرياً أنها سلسلة من الجرائم حسب الأحرف الأبجدية، ثم تبين أنها كانت أمراً مختلفاً في الحقيقة. سألته: هل أنت متأكد من عدم وجود أي دافع مادي،

كما حصل في قضية إيفلين كارليل على سبيل المثال؟

- نعم، وكُن متأكداً من أن المكاسب المادية هي أول ما أبحث عنه يا عزيزي هيستنغز.

وفي الواقع كانت تلك هي الحقيقة. وفكرتُ مرة أخرى فيما إذا كانت عملية انتقام، فهذا الافتراض يتفق مع الحقائق أكثر. ولكن حتى هذا الافتراض يفترق إلى حلقة الوصل. وتذكرت قصة كنت قد قرأتها عن سلسلة من الجرائم بدا أنها تُرتكب دون أي هدف، ثم ظهر أن الضحايا كانوا من المحلّفين، وقد ارتكب الجرائم رجلٌ كانوا قد جرّموه سابقاً. استوقفتني فكرة أن هذا قد ينطبق على قضيتنا، وشعرت بالخجل لأنني احتفظتُ بالفكرة لنفسي لأنني شعرت أنها ستكون مصدر زهوي لو استطعت أن أذهب إلى بوارو بالحل، وبدلاً من ذلك فقد سألته: والآن أخبرني، مَنْ هو السيد «س» هذا؟

وليزيد من إزعاجي هز رأسه بتأكيد وقال: هذا ما لا أستطيع إخبارك به يا صديقي.

- هذا غير منطقي! ولماذا لا يمكنك هذا؟

تلاوات عينا بوارو وقال: لأنك لا تزال هيستنغز القديم ذاته يا صديقي، حيث تُظهر ملامحك ما تفكر به، وأنا لا أريدك أن تجلس محمداً إلى هذا الرجل وفمك مفتوح ووجهك يشير بوضوح إلى أن هذا الذي تنظر إليه قاتل.

- يمكنك أن تتق بي وبقدرتي على الإخفاء عند الحاجة.

- عندما تخفي يزداد الأمر سوءاً. لا، لا يا صديقي، يجب أن تكون أنت وأنا كتومين وحذرين، وعندما نقرر الهجوم فسوف نهاجم.

- أيها الشيطان العجوز العنيد ا لي عقل جيد و...

قاطعني طرق على الباب فهتف بوارو: ادخل.

ودخلت ابنتي جوديث. أحب أن أصف لكم جوديث، ولكنني كنت دائماً ضعيفاً في الوصف. جوديث فتاة طويلة القامة مرفوعة الرأس حاجبها حالكان مستويان، فكأها وخذاها جميلان، وهي متمتة وفورة مترنة، ولكنها من النوع الساخر، وكنت أتذكرها دائماً وقد اقترن بها شيء من المأساة.

لم تأت إليّ لتقبطني؛ ليست جوديث من تلك النوعية، بل ابتسمت لي قائلة: مرحباً يا أبي.

كانت ابتسامتها خجلى ولكنها جعلتني أشعر بأنها (وبالرغم من عدم إعلانها عن عواطفها) مسرورة لرؤيتي. وقلت وأنا أشعر بالحماسة كما أشعر دائماً مع الجيل الأصغر سناً: حسناً، لقد وصلتُ إلى هنا.

- هذا ذكاء منك يا أبي.

قال بوارو: كنت أصف له الطعام هنا.

فسألت جوديث: هل هو سئى إلى هذا الحد؟

- كان يجب عليك عدم السؤال يا طفلي، فأنت لا تفكرين

في شيء غير أنابيب الاختبار والمجهر. أصبعت الأوساط ملطخ بأزرق الميثيلين، وهذا ليس بالأمر الجيد بالنسبة لزوجك إن كنت تهتمين بمعدته.

- يمكنني أن أقول إنه لن يكون لي زوج.

- بالطبع سوف يكون لديك زوج. لماذا خلقتك الله؟

- أرجو أن يكون لعدة أمور.

- الزواج أولها.

قالت جوديث: حسناً، إذا وجدتُ زوجاً لطيفاً فسوف أعطني بمعدته جيداً.

قال بوارو: ابتك تسخر مني يا هيبستنغز، ولكن يوماً ما ستعرف معنى حكمة الرجال الكبار.

ثم طُرق الباب مرة أخرى ودخل الدكتور فرانكلين. كان شاباً طويلاً نحيلاً يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً، يُوحى فكه بالحزم، ذا شعر أحمر وعينين زرقاوين لامعتين، وبدا لي من أحسن الناس الذين عرفتهم إذ كان يرتطم بالأشياء بفكر غائب، وقد ارتطم بستارة خلف كرسي بوارو فأدار رأسه نصف دورة وهمس قائلاً لها: عذراً.

أردت الضحك ولكن جوديث بقيت هادئة ورزينة كما لاحظت، وأظن بأنها اعتادت مثل هذا الأمر. قالت: هل تتذكر والدي؟

فتلقتُ الدكتور فرانكلين بحذر وخجل وأغمض عينيه نصف

إغماضة وحقق إلي، ثم مدّ يده باتجاهي قائلاً: بالطبع، بالطبع. كيف حالك؟ لقد سمعت بأنك ستأتي.

ثم التفت نحو جوديث وقال: هل تظنين أن ثمة ما يدعو إلى تغيير ملابسنا؟ إذا لم تكن لذلك حاجة فنستطيع العمل قليلاً بعد العشاء، وإذا استطعنا إعداد عدد أكبر من هذا الشرائح...

- لا، أريد التحدث مع والدي.

- آه، نعم، بالطبع. أنا آسف.

وابتسم فجأة ابتسامة اعتذار صيانية وهو يكمل: أنا آسف؛ لقد انشغلت كثيراً بهذا الموضوع. هذا يجعل من الصعب مسامحتي كما أنه يجعلني أبدو أنانياً... أرجو أن تعذروني.

ودقت الساعة فنظر إليها فرانكلين بسرعة وقال: يا إلهي! هل الوقت متأخر إلى هذا الحد؟ سوف أقع في المتاعب؛ لقد وعدت باربرا بأنني سوف أقرأ لها قبل العشاء.

وابتسم لنا وأسرع بالخروج مصطدماً بالباب في أثناء عبوره، فقلت: كيف حال السيدة فرانكلين؟

فأجابت جوديث: لا تزال كما هي، بل أسوأ.

قلت: إنه لأمر محزن أن تكون معروفة بهذا الشكل.

قالت جوديث: كم تثير غضب الأطباء! الأطباء يحبون الناس الأصحاء.

فتعجبتُ قائلاً: ما أقساكم أيها الشباب!

فقلت جوديث ببرود: بل أنا أقر حقيقة واقعة.

قال بوارو: وبالرغم من ذلك فالدكتور الطبيب أسرع ليقرأ لها.

قالت جوديث: هذا منتهى الغباء. تستطيع الممرضة المسؤولة عنها القراءة لها بصورة جيدة إن أرادت السيدة القراءة. أنا شخصياً أكره أن يقرأ لي أي شخص بصوت مسموع.

قلت: حسناً، ولكن الأذواق تختلف.

- إنها امرأة غبية جداً.

قال بوارو: لا يا طفلي، أنا أختلف معك في هذا.

- ولكنها لا تقرأ إلا الروايات الرخيصة، كما أنها لا تهتم بأي عمل ولا تتابع أمور الساعة، بل هي فقط تتكلم عن صحتها لأي شخص يستمع إليها.

- ولكنني أؤكد لك أنها تستعمل خلاياها الرمادية وملكانها العقلية بطرق لا تعلمين عنها شيئاً يا طفلي العزيزة.

فقلت جوديث: إنها امرأة ظاهرة الأنوثة؛ تتمسح وتموء مثل القطة، وأتوقع أنك تفضلهن هكذا يا عم هيركيول.

فقلت: بالطبع لا؛ بل إنه يفضلهن ضخمت رومييات!

فقال بوارو: هكذا تشي بي يا هيستغز؟ حسناً، سأشي بك أنا أيضاً. لقد كان والدك -يا جوديث- يميل دوماً إلى الشعر البتي

المحتر، وقد سبب له هذا الأمر المتاعب أكثر من مرة.

وابتسمت جوديث بتسامح قائلة: يا لكما من مسليين!

ثم انصرفت ونهضت أنا قائلاً: يجب أن أفك أمتعتي، وقد أغتسل قبل العشاء.

وضغط بوارو على الجرس الذي كان بمتناول يده، وبعد دقيقتين دخل علينا الخادم، ودُهِشت حين رأيت أنه خادم جديد فقلت: أين جورج؟

كان جورج خادم بوارو الذي يعمل لديه منذ زمن بعيد، وقال بوارو: لقد عاد جورج إلى عائلته لأن والده مريض، وأرجو أن يعود في وقت قريب.

ثم ابتسم للخادم الجديد وهو يكمل: أما في الوقت الحاضر فإن كيرتس يعتني بي.

وابتسم كيرتس باحترام. كان رجلاً ضخماً يوحى وجهه بالبلادة والغباء، ولاحظت وأنا في طريقي خارجاً أن بوارو يقفل الحقيبة جيداً والأوراق بداخلها، وكان عقلي يلف ويدور وأنا أعبر الممر إلى غرفتي.

* * *

الفصل الرابع

في تلك الليلة نزلت لتناول طعام العشاء وأنا أشعر بأن كل ما في الحياة قد أصبح غير حقيقي فجأة، وتساءلتُ أكثر من مرة وأنا أستعد للعشاء عما إذا كان يوارو قد تخيل الأمر كله؛ فهو الآن رجل عجوز وصحته متدهورة، هو يقول إن عقله ما زال سليماً كما في السابق ولكن هل هو كذلك في الحقيقة؟ لقد أمضى حياته كلها في تعقب الجريمة، فهل من المستبعد - في النهاية - أن يتخيل الجرائم حين لا تكون جرائم؟

لا بد أن البطالة المفروضة عليه قد أثرت فيه بشكل كبير، والاحتمال الأكبر هو أنه سوف يخترع لنفسه فريسة جديدة. هل هي أمينة أم اختلال عقلي كامل؟ لقد اختار عدداً من الأحداث التي نُشرت في الصحف وقرأ من خلالها أموراً لم تكن موجودة. ولم أر خلف تلك الأحداث قاتلاً مجنوناً، بل الاحتمال أن السيدة إثرنغتون قد قتلت زوجها فعلاً، وأن العامل قد أطلق النار على زوجته، وأن الفتاة قد أعطت خالتها العجوز جرعة مضاعفة من المورفين، وأن الزوجة الغيور قد تخلصت من زوجها كما هددته من قبل، وأن العانس المجنونة قد ارتكبت فعلاً الجريمة ثم استسلمت بعد

ارتكابها... وفي الواقع فلا بد أن تلك الجرائم هي ما تبدو تماماً.

لكن بوارو قدّم رأياً مضاداً لهذا الرأي المعقول! ولم أستطع إلا أن أضع في اعتباري إيماني المطلّق بفضة بوارو وذكائه. قال بوارو إن جريمة قد تم إعدادها، وللمرة الثانية سيستضيف قصر ستايلز جريمة. الزمن وحده سوف يُثبت هذا الزعم أو ينفيه، ولكن إذا كان ذلك صحيحاً فإنه يتوجب علينا منع الجريمة.

بوارو كان يعرف هوية القائل التي لا أعرفها أنا، وكلما فكرت بالأمر ازداد انزعاجي؛ ففي الحقيقة كان هذا منتهى الوقاحة من بوارو: يريد منّي أن أتعاون معه وفي الوقت ذاته لا يثق بي! ولكن لماذا؟ كان هناك السبب الذي ذكره، وهو سبب غير كافٍ بالطبع. لقد سمعتُ من سخريته من وجهي المعتبر. أنا أستطيع الاحتفاظ بالسّر مثل غيري، وبوارو يُصِرّ دائماً على اعتقاده المُهين بأنني ذو شخصية يستطيع الجميع الرؤية من خلالها ويزعم أن أيّ شخص يستطيع قراءة ما يدور في ذهني، ثم يحاول التخفيف من حدة الإهانة بإرجاع ذلك إلى شخصيتي اللطيفة الصادقة التي تمتعت أيّ نوع من أنواع الخداع.

فكرت أنه إذا كان الأمر كله من أوامير بوارو وتخيلاته فيمكن تفسير نكته وتحفظه. ولم أكن قد توصلت إلى أي شيء حينما قرع جرس الطعام، فنزلت لتناول العشاء بعقل منفتح وبعين بفضة بحثاً عن مجهول بوارو الأسطوري، السيد «س».

في الوقت الحالي سأقبل أيّ شيء يقوله بوارو وكأنه حقيقة قاطعة لا مجال للشك فيها، وسوف أقتنع بأن في هذا البيت شخصاً

ارتكب حتى الآن خمس جرائم قتل وتُعدّ الآن لارتكاب جريمة أخرى. ولكن من هو؟

في غرفة الجلوس وقبل أن نذهب إلى العشاء تم تقديمي إلى الأنسة كول والميجور أليرتون. كانت الأنسة كول امرأة طويلة جميلة في أوائل العقد الرابع من عمرها، أما الميجور أليرتون فقد كرهته غريزياً. كان رجلاً وسيماً في أوائل الأربعينيات عريض المنكبين أسمر الوجه يتحدث بطلاقة وتحمل معظم كلماته أكثر من معنى، وأعتقد أن التجاعيد تحت عينيه سببها طريقته اللاهية في الحياة، فهو يعبث كثيراً ويقامر ويكثر من شرب الكحول، ولا بد أنه زير نساء. ولاحظتُ أن الكولونيل لانريل لا يحبه كثيراً أيضاً، وكذلك كان بويد كارنغتون متحفظاً في تصرفه نحوه.

أما النجاح الذي أحرزه أليرتون في الحفلة فقد كان مع النساء؛ فها هي السيدة لانريل تبسّم له وتثرثر معه في حين يُطربها هو بلهجة لا تخلو من الوقاحة، وقد انزعجتُ وأنا أرى أن جوديث تستمتع برفقته هي الأخرى وتبذل جهداً أكثر من المعتاد في الحديث معه، والسؤال الذي لم أستطع الإجابة عليه هو: "لماذا ينجح أسوأ أنواع الرجال في لفت انتباه أطف النساء وأحسنهن؟". لقد أدركت غريزياً أن أليرتون شخص بغيض وسوف يوافقني على ذلك تسعة رجال من أصل عشرة، ولكن تسع نساء سوف يقعن في أسره فوراً، بل ربما وقع العشرة كلهن!

بينما كنا نجلس حول طاولة العشاء وأمامنا صحون من الحساء أخذتُ أطوف بعيني حول الطاولة والنّص الاحتمالات الموجودة،

فإذا كان بوارو على حق وكان قد احتفظ بعقله سليماً غير مشوش فإن واحداً من هؤلاء الأشخاص مجرم خطير، ومن المرجح أن يكون مجنوناً أيضاً. لم يقل لي بوارو ذلك بوضوح ولكنني اعتقدت أن «س» سيكون رجلاً على الأرجح، ولكن أي واحد من هؤلاء الرجال هو؟

بالتأكيد ليس هو الكولونيل لانريل بترده وحيرته ومظاهر الضعف المحيطة به. هل هو نورتون، الرجل الذي التقيت به وهو يتدفع خارج المنزل يحمل منظار الميدان؟ لا، هذا غير محتمل؛ فهو يبدو شخصاً لطيفاً، وهو -في الغالب- شخص خامل يخلو من الحيوية. لكنني حدثت نفسي بأن الكثير من القتلة كانوا أشخاصاً عاديين ليسوا ذوي أهمية، وهذا السبب يدفعهم إلى ارتكاب جرائمهم لإثبات وجودهم، فهم يستأثرون من تخطي الناس لهم وتجاهلهم إياهم. ربما كان نورتون قاتلاً من هذا النوع، ولكن لدينا مسألة اهتمامه بالطيور، وأنا أعتقد أن حب الطبيعة هو بالضرورة علامة حسنة في صالح الرجل.

هل هو بويد كارنتون؟ مستحيل، هذا الرجل معروف في كل مكان، وهو رياضي جيد وإداري جيد ورجل يحبه الجميع ويغبطونه. وأيضاً استبعدت فرانكلين لأنني أعرف كم تحترمه جوديث وتقدره.

حسناً، لنبدأ بالميجور أليرتون. أمنت فيه النظر جيداً؛ كان شخصاً كريهاً لم أر مثله من قبل، فهو من تلك النوعية من الأشخاص الذين هم على استعداد لسلخ جلد جداتهم وهم على

قيد الحياة، تحيط به هالة من الفتننة الخادعة، فيها هو ذا يتحدث الآن فيروي قصة خبيثة وهزيمته مشيراً ضحك الجميع على نكتة أطلقها على نفسه. وتوصلت إلى أنه إذا كان أليرتون هو «س» فجرائمه قد ارتكبت لتحقيق الربح بوسيلة ما.

لكن بوارو لم يصرح بوضوح بأن المشتبه به رجل، لذلك يمكن اعتبار الأنسة كول احتمالاً من الاحتمالات؛ فقد كانت حركاتها قلقة ومنشججة، ومن الواضح أنها امرأة عصبية. كانت جميلة إلى حد ما ولكنها بدت عادية جداً، وكانت هي والسيدة لانريل وجوديث النساء الوحيديات على طاولة العشاء، فالسيدة فرانكلين تناول عشاءها في غرفتها في الطابق العلوي والممرضة التي تعني بها تناول وجباتها بعد أن تنتهي نحن من تناول الطعام.

بعد العشاء كنت أفق بجانب النافذة في غرفة الجلوس أنظر إلى الحديقة وأتذكر الوقت الذي تعرفت فيه على سيشيا ميردوك وهي تركز في المرح، وهي فتاة شابة شعرها بني محمر. كم بدت فاتنة في ثوبها الأبيض! وبينما أنا مستغرق في أفكارني عن الماضي فزعت عندما وضعت جوديث ذراعها في ذراعي وقادتني من النافذة إلى الشرفة، وعلى نحو مفاجئ سألتني: ما الأمر؟

فقلت وقد أخذتني المفاجأة: الأمر! ماذا تعنين؟

- لقد كنت غريب الأطوار هذه الأمسية، فلماذا كنت تحلق إلى الجميع في أثناء العشاء؟

وتضايقت لأنني لم أعلم بأنني قد سمحت لأفكاري بأن تتحكم بي وتسيطر علي، فقلت: هل كنت كذلك؟ لا بد أنني كنت

أتذكر الماضي، بل ربما ظننت أنني أرى أشباحاً.
يضيعون وقتهم وطاقتهم التي يمكن الاستفادة منها والتي يحتاج إليها المجتمع، هذه أمانة!

فقلت بلهجة جافة: العجائز لا يمتلكون هذه الصفة الاحتكارية.

- أجل، أنا أعلم أنك تظن أن الشباب أنانيون يا أبي، ربما كنا كذلك حقاً، ولكنها أمانة نظيفة. على الأقل نحن نريد أن نفعل ما نريده ولا نريد من الآخرين فعل ما نريده، نحن لا نريد استعباد الآخرين.

- نعم، ولكنكم فقط تدوسون عليهم إذا حدث وكانوا في طريقكم.

ضغطت جوديث على ذراعي ثم قالت: لا تكن قاسياً هكذا. أنا لا أدوس على الآخرين، وأنت لم تحاول التحكم في حياة أي منا ولذلك فنحن ممتنون لك.

- أخشى أنني كنت أتمنى فعل ذلك، ولكن أمك هي التي كانت تصر على السماح لكم بارتكاب الأخطاء الخاصة بكم.

ضغطت جوديث على ذراعي مرة أخرى وقالت: أعلم، لقد كنت ترعانا كما ترعى الدجاجة أبناءها، وأنا أكره هذا الاهتمام الشديد ولا أطيعه. ولكن ألا نتفق معي بشأن التضحية بحياة أولئك الأشخاص المفيدون في سبيل الأشخاص غير المفيدون؟

اعترفت قائلاً: يحدث هذا أحياناً، ولكن لا داعي للمغالاة، فكما تعلمين يستطيع أي شخص أن يهرب بعيداً.

أتذكر الماضي، بل ربما ظننت أنني أرى أشباحاً.

- آه، نعم، بالطبع؛ لقد أقمت هنا عندما كنت شاباً يافعاً، أليس كذلك؟ لقد قتلت هنا امرأة عجوز فيما أظن، أليس هذا صحيحاً؟

- بلى، سُممت بالإستركنين.

- وكيف كانت؟ لطيفة أم بغيضة؟

فكرت في السؤال ثم قلت ببطء: كانت امرأة طيبة كريمة، وكان الكثير من أموالها يذهب للصدقات.

- آه، هذا النوع من الكرم!

بدت في صوت جوديث نبرة خفيفة من الاحتقار، ثم سألتني سؤالاً فضولياً فقالت: هل كان الناس سعداء هنا؟

كنت أعرف أنهم لم يكونوا سعداء فقلت ببطء: لا.

- لماذا؟

- لأنهم كانوا يشعرون بأنهم سجناء؛ فالسيدة إنغليشورب كانت تملك المال كله وتصدقت به، ولم يستطع أولاد زوجها أن يعيشوا حياتهم مستقلين.

سمعتُ جوديث تشهق بصوت مرتفع واشتدت قبضتها على ذراعي وهي تقول: هذا أمر سيئ؛ إنه سوء استخدام للسلطة يجب عدم السماح به، يجب أن لا تُمنح السلطة للعجائز والمرضى ليتحكموا في حياة الشباب الأقوياء ويجعلوهم مقيدين قلقين،

- نعم، ولكن هل هذا هو ما يحدث حقاً؟

كانت نبرتها قوية لدرجة أنني نظرت إليها بدهشة، وكان الظلام شديداً بحيث لم أستطع رؤية وجهها بوضوح، فتأبعت بصوت منخفض ومضطرب: توجد أمور كثيرة صعبة مثل الاعتبارات المالية، والشعور بالمسؤولية، والتردد في إيذاء شخص تشعر نحوه بالعاطفة... كل هذه الأمور، وأيضاً يوجد بعض الناس معدومي الضمير الذين يعرفون كيف يتلاعبون بهذه المشاعر.

هتفتُ مأخوذاً بنبرة الغضب في صوتها: عزيزتي جوديث!

ويبدو أنها أدركت أن نبرتها كانت قوية جداً لأنها ضحكت وسحبت ذراعها من ذراعي وقالت: هل كانت لهجتي حادة؟ هذا موضوع أشعر نحوه بعمق. لقد عرفت حالة... آه، حالة كان الأب فيها عجوزاً متوحشاً، وعندما توفرت لدى إحداهن المشاعر الكافية لفك العقدة وتحريير الأشخاص الذين أحببتهم لقيوها بالمجنونة. مجنونة؟! لقد كان أعقل وأشجع شيء يمكن لأي شخص فعله.

وانتابني شعور فظيع بالغثبان. أين سمعت شيئاً مشابهاً ومن مدة غير بعيدة؟ سألتها: جوديث، عن أي قضية تتحدثين؟

- ليسوا أشخاصاً تعرفهم، إنهم أصدقاء لعائلة فرانكلين، رجل عجوز يُدعى ليتسفيلد. كان غنياً جداً ولكن يمكن القول إنه كان يجوع بناته البائسات، ولم يسمح لهن قط بالخروج أو رؤية أحد. لقد كان مجنوناً فعلاً، ولكن ليس بالدرجة الكافية من الناحية الطبية.

- وقد قتله ابنته الكبرى، أليس كذلك؟

- أظن أنك قرأت عن القضية. افترضتُ أنك ترى الأمر كجريمة، ولكنها لم تُرتكب لدوافع شخصية. لقد توجهت مرغريت ليتسفيلد فوراً إلى الشرطة وسلمت نفسها. لقد كانت في منتهى الشجاعة، ولا أظن بأنني يمكن أن تتوفر لي مثل تلك الشجاعة.

- الشجاعة لتسليم نفسك أم الشجاعة لارتكاب الجريمة؟

- كلاهما.

فقلت بحدة: كم أنا مسرور لسماع ذلك! لا أحب أن أسمعك تتحدثين عن جريمة تبررها ظروف معينة. وتوقفت هنيهة ثم تابعت: وماذا يظن الدكتور فرانكلين؟

قالت جوديث: يظن أنه يستحق ما حدث له. هل تعلم يا أبي؟ إن بعض الناس يطلبون أن يُقتلوا؟

- لا أسمح لك بالتحدث هكذا يا جوديث. من الذي وضع مثل هذه الأفكار في رأسك؟

- لا أحد.

- حسناً، ولكن دعيني أخبرك بأن هذا هراء خبيث.

- حسناً، سوف ندع الأمور على ما هي عليه. لقد حضرت لأعطيك رسالة من السيدة فراتلكين، فهي تود رؤيتك في غرفتها إذا لم يكن لديك مانع.

- هذا من دواعي سروري. أنا آسف لأنها لم تكن بحالة جيدة تسمح لها بالتنزل لتناول العشاء.

قالت جوديث بعدم حساسية: هي بخير، ولكنها تريد فقط أن تجذب الانتباه.

قلت: الشباب لا يراعون شعور الآخرين!



الفصل الخامس

لم ألتقي بالسيدة فرانكلين إلا مرة واحدة من قبل. كانت في الثلاثينيات من عمرها، ويمكن وصفها بأنها سيدة بكل معنى الكلمة؛ فعيناها بتيان واسعتان وشعرها مفروق في المنتصف ووجهها طويل ورقيق، وكانت نحيلة جداً.

رأيتها مستلقية في سريرها مستندة إلى الوسائد مرتدية عباءة أنيقة ذات لون أبيض وأزرق فاتح، وكان فرانكلين وبويد كارنغتون هناك أيضاً يتناولان القهوة. رحت بي السيدة فرانكلين بيد ممدودة وابتسامة صافية وهي تقول: كم أنا سعيدة لأنك أتيت يا كابتن هيستنغز! هذا سوف يسعد جوديث؛ فهي ترهق نفسها في العمل.

قلت وأنا أصافح يدها الرقيقة: تبدو جوديث سعيدة في عملها.

تهددت باربرا فرانكلين وقالت: نعم، إنها محظوظة. كم أحسدها! لا أظن أنها تعرف معنى المرض حقيقةً. ما رأيك أيتها الممرضة؟ آه، دعني أعرفك، هذه هي الممرضة كارفن التي تعني بي جيداً. لا أعلم ماذا كنت سأفعل دونها فهي تعاملني كأنني طفلة، اليس كذلك يا عزيزتي؟

كانت الممرضة كارفن فتاة شابة طويلة حسنة المظهر تبدو بصحة جيدة وذات وجه حسن وشعر بني محمر، ولقد لاحظت أن يديها الطويلتين البيضاوين تختلفان عن أيدي العديد من ممرضات المستشفيات، ويمكن وصفها بأنها فتاة قليلة الكلام، بل هي في بعض الأحيان لا تجيب على السؤال. ولم تجب في تلك اللحظة بل اكتفت بهز رأسها، فقالت السيدة فرانكلين: ولكن جون يرهق ابتك الهزيمة في الحقيقة، فهو كمراقب العمال. أنت مراقب عمال، أليس كذلك يا جون؟

كان زوجها يقف عند النافذة ينظر إلى الخارج، وكان يصفر لنفسه ويعبث ببعض العملات المعدنية في جيبه، وقد جنن قليلاً عند سؤال زوجته وقال: ماذا يا باربرا؟

- كنت أقول إنك ترهق المسكينة جوديث هستغز بصورة مخجلة، أنا الآن فالكابتن هستغز هنا وسوف تنفق معاً ونوقف ذلك.

لم تكن السخرية والتهكم من نقاط القوة عند الدكتور فرانكلين، وقد بدا فلقاً وإن كان قلقه غير ظاهر، ثم التفت إلى جوديث مستفسراً وتمتم قائلاً: يجب عليك إخباري إن كنت أباغ في الأمر.

قالت جوديث: يحاولون أن يكونوا مسلمين. وبمناسبة الحديث عن العمل فقد كنت أريد أن أسألك عن الصبغة المُعدّة للشريحة الثانية، تعرف ما أقصد، تلك التي...

فالتفت نحوها وقاطعها قائلاً: نعم، نعم. اقترح أن نذهب إلى المختبر إذا لم يكن لديك مانع؛ أريد التأكد.

ثم غادرا الغرفة معاً وهما لا يزالان يتحدثان، في حين استلقت باربرا فرانكلين على وسادتها وتنهدت. وفجأة تكلمت الممرضة كارفن بنبرة مستاءة وقالت: أظن أن الأنسة هستغز هي «مراقب العمال»!

تنهدت السيدة فرانكلين وغمغمت مرة أخرى: أشعر أنني غير مناسبة لجون. ينبغي أن أهتم بعمله أكثر، أعرف هذا، ولكنني لا أستطيع. يمكنك القول بأنني لست على ما يرام، ولكن...

قاطعها بويد الذي كان يقف بجانب المدفأة بصوت أجش: هراء يا بائس، أنت على ما يرام، لا تقلقي نفسك.

- ولكنني قلقة حقاً يا عزيزي بيل. أنا أصاب بالخيبة من نفسي ولا أستطيع منع نفسي من هذا الشعور، فهذا الأمر قبيح جداً؛ أرايب وفتران للتجارب!

ثم أضافت وهي ترتجف: أعلم أن هذا غباء وأنتي بلهاء، ولكن هذا يشير اشمزازي. أريد التفكير فقط في الأشياء الجميلة والسعيدة مثل الطيور والأزهار والأطفال وهم يلعبون... أنت تعلم يا بيل.

اقترب منها وتغير وجهه وهو ينظر إليها فأصبح رقيقاً كوجه النساء، وكان ذلك مؤثراً على نحو ما لأن بويد كان يرتدون كان رجلاً بكل معنى الكلمة. قال لها: أنت لم تتغيري كثيراً منذ كنت في السابعة عشرة يا بائس. هل تذكرين منزلك الصيفي ومنازل الطيور وجوز الهند؟

ثم التفت نحوي قائلاً: أنا وباربرا أصدقاء منذ كنا صغاراً.

واحتجت باربرا قائلة: أصدقاء قداماء!؟

- آه، أنا لا أنكر أنك تصغرينني بخمسة عشر عاماً، ولكنني كنت أَلعبُ معك وأنت لا تزالين طفلة صغيرة وكنت أنا شاباً يافعاً، وكنتُ أيامها أحملك على ظهري. وعندما عدت إلى الوطن وجدتك شابة جميلة نوشك على أن تبدأ حياتها في هذا العالم، وقد ساهمت أنا في ذلك بأخذك إلى ملاعب الغولف وعلمتك كيف تلعبينه، هل تذكرين؟

- آه يا بيل، هل تظن أنني أستطيع أن أتسى ذلك؟

وأوضحت لي قائلة: كان أهلي يعيشون في هذه المنطقة من العالم، وكان بيل يأتي لزيارة عمه العجوز السير إيفرارد في قصر «ناتون».

قال بيل: وقد كان «ناتون» (ولا يزال) كالقبر! أنا أياأس أحياناً من جعل هذا المكان محتلاً وملائماً للعيش.

قالت السيدة فرانكلين: ولكنه يمكن أن يصبح رائعاً يا بيل، رائعاً حقاً.

- نعم يا بانس، ولكن المشكلة أنني لا أملك أي أفكار؛ فقط بعض الحقايات وبعض الكراسي المريحة... هذا كل ما أستطيع التفكير فيه. الأمر يحتاج إلى وجود امرأة.

- قلت لك إنني سوف أذهب للمساعدة، وأنا أعني ذلك فعلاً.

ونظر السير ويليام نحو الممرضة كارفن بشك وهو يقول: إذا كنت قوية بدرجة كافية فيمكنني اصطحابك إلى هناك. ماذا تظنين أيتها الممرضة؟

- نعم يا سير ويليام، أظن أن هذا سيفيد السيدة فرانكلين، ولكن بالطبع إذا كانت حذرة في عدم إرهاق نفسها.

- هذا موعدٌ بيننا إذن. والآن عليك أن تنامي جيداً لكي تكوني في حالة جيدة استعداداً للغد.

* * *

تمنينا ليلة سعيدة للسيدة فرانكلين وخرجنا معاً، وفي طريقنا إلى الطابق الأرضي قال لي بويد كارنغتون بصوت أجش: أنت لا تدري كم كانت فائنة عندما كانت في السابعة عشرة. كنت عائداً من بورما حيث ماتت زوجتي هناك، وأرجو أن لا تمنع إذا أخبرتك بأنني قد أحببتها، ولكنها تزوجت الدكتور فرانكلين بعد ثلاث سنوات أو أربع. ولا تظنّ بأنه كان زواجاً سعيداً، وأظن أن ذلك هو سبب صحتها المعتلة فهو لا يفهمها ولا يقدرها، وهي حساسة جداً، وأنا أعتقد أن ضعفها هذا يرجع سببه إلى العصبية جزئياً، فعلى سبيل المثال خذها إلى الخارج للتسلية وحاول إثارة اهتمامها وستبدو امرأة مختلفة، ولكن هذا المغفل يهتم فقط بسكان أفريقيا الغربيين والحضارات البائدة وأنايب الاختبار...

أظن أنه كان فيما قال بعض الحقائق. وقد فوجئت بانجذاب بويد كارنغتون نحو السيدة فرانكلين، فهي مخلوقة مريضة على

الرغم من أنها جميلة ورقيفة كعلبة الحلوى، أما بويد كارنغتون فكان ممثلاً بالحبوبية بحيث ظننت أنه لن يكون صبوراً مع امرأة مقعدة عصبية. على أي حال فيبدو أن باربرا فرانكلين كانت فائتة في شبابها، والانطباعات القديمة لا تزول بسهولة.

وفي الطابق الأرضي اقتربت من السيدة لانريل واقترحت لعب البريدج، لكنني اعتذرت بحجة رغبي في الانضمام إلى بوارو.

* * *

وجدت صديقي في فراشه، وكان كيرتس يرتب الغرفة متنقلاً بين أرجائها، ولكنه خرج حين دخلت وأغلق الباب خلفه فقلت: أف لك يا بوارو أنت وعادتك اللعينة بالاحتفاظ بالأمور لنفسك! لقد أمضيت الليلة كلها وأنا أحاول العثور على صاحبنا.

- لا بد أن ذلك قد جعلك مشتت الذهن قليلاً. هل علق أحدهم على شرودك وسألك ما الأمر؟

واحمَر وجهي قليلاً وقد تذكرت سؤال جوديث، ويبدو أن بوارو لاحظ ارتباضي لأنني رأيت ابتسامة خبيثة على شفتيه، لكنه قال: وماذا كانت استنتاجاتك بشأن هذه النقطة؟

- هل ستخبرني إن كنتُ على حق؟

- بالطبع لا.

وراقبت وجهه بتمعن وأنا أقول: لقد فكَّرتُ في نورتون.

ولم يتغير وجه بوارو فأكملت: ولكن ليس لأنني أملك دليلاً، بل بدا لي أقل الموجودين إثارة لشكوكي، وأظن أن المجرم الذي تبحث عنه يجب أن يكون غير مثير للشكوك.

- هذا صحيح، ولكن توجد طرق أكثر مما تظن لعدم إثارة الشكوك.

- ماذا تعني؟

- فلنأخذ قضية فرضية؛ لنفترض أن رجلاً غريباً شريراً يصل إلى هنا قبل القاتل بأسابيع دون أي سبب محدد للقُدوم، فذلك سيكون ملاحظاً، ولكن كان من الأفضل لو أن هذا الغريب كان شخصية نافهة مشغلة برياضة غير مؤذية كصيد السمك.

فواقفته قائلاً: أو مراقبة الطيور... نعم، ولكن هذا هو ما كنت أقوله بالضبط.

تابع بوارو: ومن جهة أخرى من الأفضل لو كان القاتل شخصية بارزة، فلنقل إنه ربما كان الجزار، وهذا يعطيه ميزة حيث لن تلاحظ بقع الدم على ثياب الجزار.

- أنت تحاول أن تكون سخيلاً، فالجميع سيعرف إذا تعارك الجزار مع الخباز.

- ليس إذا كان الجزار قد أصبح جزاراً فقط لكي تُتاح له الفرصة لقتل الخباز. يجب على المرء أن يتنظر خطوة إلى الأمام يا صديقي.

نظرت إليه بإمعان محاولاً الاستنتاج: هل كانت كلماته تنطوي

على معاني مهمة وتعني شيئاً محدداً؟ يبدو أنها تشير إلى الكولونيل لاتريل؛ ألم يفتح بيته متعمداً للضيوف لئلا تتاح له الفرصة لقتل أحدهم؟

هز بوارو رأسه برفق قائلاً: لن تحصل على الجواب من تعبير وجهي.

قلت متهدأ: أنت صديق مثير للغضب يا بوارو! على كل حال فنورتون ليس المتهم الوحيد من وجهة نظري. ماذا عن ذلك الشخص أيرتون؟

تساءل بوارو ووجهه لا يزال جامداً: إنه لا يعجبك، اليس كذلك؟

- بلى، لا يعجبني.

- آه، إنه مثير تسميهم الجزء القدر من البضاعة، اليس هذا صحيحاً؟

- بالتأكيد، ألا تظن هذا؟

- بلى، بالطبع، وهو رجل تنجذب إليه النساء.

وهتفتُ بامتعاض: كم من غيبات هؤلاء النساء! ماذا يرون في شخص مثل هذا؟

- من يستطيع التكهن؟ ولكن الوضع هكذا دائماً، فالرجل المسمى تنجذب إليه النساء دائماً!

- ولكن لماذا؟

هز بوارو كتفيه وهو يقول: لعلهن يرين ما لا نراه نحن.

- ولكن ما هو؟

- لعلها المخاطرة، فالجميع يرغبون بالقليل من المخاطرة في حياتهم. البعض يحصل عليها بمشاهدة الآخرين (كما يحصل في مصارعة الثيران)، وبعضهم يقرأ عنها، والبعض يجدها في دور العرض... ولكنني متأكد من أن طبيعة النفس البشرية تكره الأمان الكامل، فالرجال يعثرون على المخاطرة بطرق عديدة، أما النساء فعنورهن على المخاطرة محدداً غالباً بالعلاقات العاطفية، ولهذا فهن يرحبن برائحة الخطر... أما الشخص الجيد الذي يصلح لأن يكون زوجاً جيداً وعطوفاً فيتعبدن عنه.

وفكرت في حديثه بحزن وأنا صامت لعدة دقائق، ثم عدت إلى الموضوع السابق فقلت: أتعلم يا بوارو؟ سيكون من السهل عليّ معرفة السيد «س»؛ فكل ما عليّ فعله هو البحث والعثور على الشخص الذي كان على معرفة بجميع الأفراد، أقصد الأشخاص الموجودين في القضايا الخمسة.

قلت ذلك بنبرة انتصار، ولكن بوارو اكتفى بأن رماني بتظرة احتقار وقال: أنا لم أطلب وجودك هنا يا هيستنغز لكي أراك تحذو حذوي بجد وحمافة، ودعني أخبرك بأن الأمر ليس سهلاً كما تعتقد. لقد وقعت أربع من تلك الجرائم في هذا البلد، والناس المجتمعون هنا تحت سقف هذا المنزل ليسوا مجموعة من الغرباء الذين قدموا إلى هنا كل على حدة، فهذا ليس بالفندق بالمعنى الحرفي للكلمة. عائلة لاتريل من هذه المنطقة، لقد كانوا في وضع

سئى واشتروا المكان وبدؤوا العمل فيه كنوع من المغامرة، والناس الذين يأتون إلى هنا هم أصدقاءهم أو أصدقاء أصدقائهم، فالسير ويليام هو الذي أفتح عائلة فرانكلين بالقدوم إلى هنا، وهم بدورهم طرحوا الأمر على نورتون وكذلك -على ما أظن- على الأنسة كول، وهكذا... لذلك فالفرصة متاحة لوجود شخص ما يعرفه أحد الأشخاص ويعرفه الياقون في الوقت نفسه، كما أن المجال مفتوح لصاحبنا المجهول ليكذب في حين تكون الحقائق معروفة للجميع.

ثم نظر نحوى وعقد حاجبيه وقال: خذ قضية العامل ريغز مثلاً، فالقرية التي حدثت فيها المأساة ليست بعيدة عن منزل عم بويد كارنغتون، وأيضاً أهل السيدة فرانكلين كانوا يسكنون قريباً، أما المنزل في القرية فيطرقه العديد من السياح باستمرار، كما أن بعض أصدقاء السيدة فرانكلين كانوا يتزلون هناك، فرانكلين نفسه أقام هناك وربما أقام فيه نورتون والأنسة كول. لا، لا يا صديقي؛ أرجو أن لا تقوم بهذه المحاولات الخرقاء للكشف عن السر الذي أرفض البوح به لك.

قلت: هذا سخيف جداً، فكأنك تظن أنني سأبوح به. دعني أخبرك بأنني سئمت من سخريتك من وجهي المعتبر يا بوارو، هذا الأمر ليس مسلياً.

قال بوارو يهدوء: هل أنت متأكد من أن هذا هو السبب الوحيد؟ ألا ترى -يا صديقي- بأن معرفتك بالأمر قد تعرّضك للخطر؟ ألا ترى بأنني أهتم بسلامتك؟

حدثت إليه بضم مفتوح، فحتى تلك اللحظة لم يخطر هذا

الأمر بيالي! ولكن كان ذلك صحيحاً بالطبع، فلو علم هذا المجرم الذي استطاع بذكائه ودهائه الإفلات بجرائمه الخمسة وهو يظن أن أحداً لا يشك به، لو استيقظ على حقيقة أن أحدهم في أعقابه فهذا سيعرض حياة أولئك الذين في أعقابه للخطر.

قلت بحدة: ولكن هذا يعني أنك أنت نفسك في خطر يا بوارو؟!

صدرت عن بوارو إيماءة ازدراء قوية حسب ما تسمح له حالته الصحية وقال: أنا معتاد على ذلك وأستطيع حماية نفسي. وكما ترى فإن معي حارساً لحمايتي، صديقي الممتاز والمخلص هيستنغز.



الفصل السادس

من المفروض أن ينام بوارو مبكراً، ولذلك فقد تركته لينام ونزلت إلى الطابق السفلي. وتوقفت في طريقي لأتحدث مع الخادم كيرتس، وقد وجدته شخصاً بليداً بطيء الفهم ولكنه قدير وأمين. كان قد صحب بوارو منذ عودته من مصر، وقد أخبرني بأن صحة سيده جيدة نوعاً ما ولكنه يتعرض لنوبات قلبية تحذيرية بين الحين والآخر، فقد ضَعُفَ قلبه كثيراً في الأشهر الأخيرة وكانت حالته كحالة محرك يضعف ببطء.

حسناً، لقد كانت حياته طيبة، ومع ذلك فإنني أحس بقلبي يتزف وأنا أرى صديقي القديم يحارب بشجاعة كل خطوة من خطوات الانحدار، وحتى الآن وعلى الرغم من ضعفه وعجزه فإن روحه التي لا تُقَهَّر لا تزال تواجهه لكي يقود المركب للعمل ببراعة ويجد في مجاله الذي برع فيه.

نزلت إلى الطابق السفلي وأنا حزين جداً، فأنا لا أستطيع تصوّر الحياة دون بوارو! وفي غرفة الجلوس كانت جولة من اللعب قد انتهت فدعوني للمشاركة، وظننت أن هذا سوف ينجح في شغل

ذهني فوافقت، وكان بوبد كارنغتون هو الذي خرج فجلست مع نورتون والكولونيل والسيدة لاتريل.

قالت السيدة لاتريل: ماذا تقول الآن يا سيد نورتون؟ هل تغلب هذين الاثنين أيضاً؟ لقد أثبتت شراكتنا نجاحها هذه الليلة.

فابتسم نورتون بلطف، لكنه همس قائلاً إن من الواجب إجراء قرعة لتحديد اللاعبين. ووافقت السيدة لاتريل، ولكن اعتقد أن طريقتها بالتعبير عن شعورها كانت غير لبقة عندما نتج عن القرعة أن ألعب أنا ونورتون ضد الزوجين لاتريل. وقد لاحظت أن السيدة لاتريل كانت غير راضية عن هذا الوضع وعضت على شفتيها، وقد اختفت في تلك اللحظة كل فنتتها ولهجتها الأيرلندية. وسرعان ما اكتشفت السبب، فقد لعبت في الأدوار التي نلت مع الكولونيل لاتريل، وفي الواقع لم يكن لاعباً سيئاً، بل يمكن وصفه بأنه لاعب متوسط ولكنه يميل إلى التسيان، ونتيجة لذلك يرتكب بين الحين والآخر بعض الأخطاء الكبيرة. أما وهو يلعب مع زوجته فقد أخذ يرتكب الخطأ نلوا الأخر دون توقف، وقد بدا واضحاً أنه يشعر بالتوتر معها وهذا التوتر جعله يلعب بطريقة أسوأ بثلاثة أضعاف من الوضع العادي.

أما السيدة لاتريل فقد كانت لاعبة جيدة في الحقيقة، على الرغم من أن اللعب معها ليس مسلياً لأنها تقتنص كل فرصة متاحة وتتجاهل القوانين إذا كان الفريق الأخر يجهلها وتطبقها على الفور إن كان ذلك في مصلحتها، وهي ماهرة جداً في استراق النظر إلى الأوراق الموجودة بين يدي خصمها؛ ويكلمات أخرى فهي تلعب بهدف الفوز.

وقد أدركت الآن ماذا كان يعني بوارو بالنكد، فهي في لعبة الأوراق تفقد سيطرتها على نفسها ويترصد لسانها بكل خطأ يرتكبه زوجها المسكين، وكان الوضع غير مريح بالنسبة لي وللسيد نورتون، ولذلك سررت عندما انتهت الجولة. واعتذر كلانا عن اللعب جولة أخرى لتأخر الوقت، وما إن ابتعدنا حتى أطلق نورتون لمشاعره العنان دون حذر فقال: ألا ترى معي أن ذلك كان شنيعاً جداً؟ يحزنني أن أرى هذا الرجل العجوز المسكين يعامل هكذا. انظر كيف يتقبل الأمر بخضوع... يا للفتي المسكين! أين لسان الكولونيل الهندي الحاد؟!

فقلت فجأة: اسكت.

كان صوت نورتون يرتفع بطيش وخشيت أن يسمعه الكولونيل لاتريل، فقال: ولكن هذا فظيع!

وقلت بانفعال: سوف أنفهم الوضع إذا ما قتلها بالبلطة ذات

يوم.

هز نورتون رأسه وقال: لن يفعلها. لقد تحجرت روحه، وسوف يتابع: "نعم يا عزيزتي، لا يا عزيزتي، آسف يا عزيزتي..." ويرم شاربييه ويتكلم بخنوع حتى يوضع في الكفن. هذا الرجل لا يستطيع الدفاع عن نفسه، حتى وإن حاول.

هزرت رأسي بحزن لأنني أخشى أن نورتون كان على حق. وتوقفت عند القاعة ولاحظت أن الباب الجانبي المؤدي إلى الحديقة كان مفتوحاً والريح تهب منه إلى الداخل فتساءلت: هل يجب علينا أن نغلقه؟

تردد نورتون لحظة قبل أن يقول: حسناً، لا أظن أن الجميع قد دخلوا بعد.

وراودني شك مفاجئ فسالته: من بالخارج؟

- أظنها ابتك مع ألبرتون.

وقد بذل جهداً في جعل صوته غير مبالي، ولكنني شعرت بعدم الارتياح. جوديث وألبرتون؟ بالتأكيد لا؛ فجوديث الذكية الهادئة لن تؤخذ برجل من تلك النوعية. بالطبع فهي تستطيع رؤية ما بداخله.

كررت هذا الكلام لنفسني وأنا أغتير ملابسي، ولكن ذلك الشعور الغامض من عدم الارتياح لازمني ولم أستطع النوم، واستلقيت وأنا أتقلب من جنب لآخر. وكما هو الحال دائماً في قلق الليل فكل شيء يصبح مبالغاً فيه، واجتاحني شعور باليأس والحسرة والقلق... لبت زوجتي لا تزال حية! لقد كنت أعتمد على تقديراتها لسنين عديدة، فقد كانت حكيمة دائماً في فهمها وتعاملها مع الأطفال، وقد لازمني شعور بالتقصان في غيابها؛ فمسؤولية سلامتهم وسعادتهم تقع على عاتقي الآن، فهل سأنجح في هذه المهمة؟ أنا (وليساعدني الله) لست بالرجل الذكي، فأنا أضطرب وأرتكب الأخطاء.

أشعلت الضوء وجلست. من غير المستحسن المتابعة هكذا، بل يجب أن أنام. نهضت من فراشي وتوجهت إلى المغسلة ونظرت بشك إلى علبه الأسبرين. لا، بل أنا بحاجة إلى شيء أقوى من الأسبرين. وتذكرت أن لدى بوارو بعض المواد المتؤممة على الأغلب.

عبرت الممر إلى غرفته وتوقفت متردداً للحظة خارج الباب؛ من المخجل إيقاظ هذا الصديق المعجوز! وبينما أنا واقف متردداً سمعت صوت خطوات فتلفتُ حولي، لكن إضاءة المكان كانت خافتة فلم أستطع رؤية وجه القادم حتى اقترب مني. وقد تعجبت من يكون، كان ألبرتون يتقدم نحوي عبر الممر، وعندما رأته تجمدت في مكاني فقد كان الرجل يتسم لنفسه، وقد كرهت ابتسامته تلك. نظر نحوي رافعاً حاجبيه وقال: مرحباً يا هيستنغز، ألا تزال مستيقظاً؟

- لم أستطع النوم.

- أهذا كل ما في الأمر؟ سوف أساعدك، تعال معي.

تبعته إلى غرفته التي كانت تقع بجانب غرفتي، ودفعني شعور غريب لدراسة هذا الرجل عن قرب فقلت له: يبدو أنك لا تنام مبكراً أيضاً؟

- لم أكن يوماً من الذين يذهبون إلى النوم مبكراً، ولا سيما عندما تتوفر أنواع الرياضة في الخارج. يجب عدم تضييع مثل هذه الأمسيات.

قالها وضحك، وكرهتُ ضحكته. تبعته إلى الحمام، وفتح خزانة صغيرة فأخرج منها علبة دواء وقال: إليك هذا، إنه منوم حقيقي. ستنام نوماً عميقاً وستحلم أحلاماً سعيدة. هذه مادة سلميريل، إنها مادة رائعة وهذا هو اسمها المرخص.

صدمتني نبرة الحماسة النابعة من صوته. هل هو مدمن

مخدرات؟ قلت بشك: ليست ضارة، أليس كذلك؟

- إنها تكون ضارة إذا تناولت الكثير منها. هذه المادة من مركبات الباريتيوريت التي يمكن للجرعة الكبيرة منها أن تكون سامة.

وابتسم بحيث انفرجت زوايا فمه بصورة غير لطيفة، فقلت له: لم أعلم أن الحصول عليها ممكن دون وصفة طبية.

- إنه ليس ممكناً يا عزيزي، لكنني استخدمت بعض علاقتي.

أظن أن ذلك كان غباءً مني، ولكنني لا أزال أعاني من الاندفاع أحياناً. سألته: أظن أنك تعرف إثرنغتون، أليس كذلك؟

وأدركت فوراً أنني أصبت نقطة حساسة، فقد أصبحت عيناه أكثر فسوة وقلقاً، وقال وقد تغير صوته الذي أضحي مصطنعاً: آه، بلي، كنت أعرف إثرنغتون. يا للفتى المسكين!

وتابع قائلاً: لقد تعاطى إثرنغتون المخدرات بالطبع، ولكنه بالغ في الأمر. على المرء أن يعرف متى يتوقف، ولو لم يعرف فستكون العاقبة وخيمة. لقد كانت زوجته محظوظة، فلو لم يتعاطف معها المحلفون لكانت قد سُتقت.

وناولني حبتَي دواء ثم قال بيروود: هل كنت تعرف إثرنغتون أنت أيضاً؟

أجبهه بصدق: لا.

بدا للحظة أنه لا يدري كيف يتابع، ثم أنهى الموضوع

ضاحكاً. لم يكن رجلاً مضحكاً، ليس بالشخصية المستقيمة، ولكن كانت رفقته حسنة في بعض الأحيان. شكرته على الحبوب وعدت إلى غرفتي.

استلقيت مرة أخرى بعد أن أطفأت النور وأنا أفكر كم كنت غيباً، وأدركت بقوة أن أليرتون هو السيد «س» بالتأكيد، وأنا جعلته يدرك أنني قد شككت في الأمر.



يجب أن أقول بحكماتي عن الأيام التي قضيتها في مستشفى
وعندما أستذكرها فهي تمثل لي مجموعة من المحادثات والكلمات
المشيرة للتكرارات والأفعال المرحية التي طُبعت في ذهني. فالأولى
التي تأتي فيس أشبه بوارث وحجود. فقد آمنت - كما أظن -
بأن حذو لا يزال يعمل بعض قوة السليقة، ولكن مظهره الخارجي
صفت بحدوث أدركت فوراً أنه من المستحيل أن أقتت دوراً أكثر
أدركت من أن وقت حياض يجب أن يكون مني بيروود وأنت

كنت كورثس يحصل مجددي الأيام الخسيلة ويتردد به الفرح
إلى حيث ينظر لترتبه السعد مستقاً، ثم يعود إلى الخديعة حيث
يعتد له يقينه بعيداً من مجرى الوردية أما في الأيام الأخرى وعندما
لا يكونه الحيز ملامحاً بعد كان يمشي إلى غرفة الحاد من وأما
فكن الحذر من أن أحضره إلى وجهه ولكن هذا ليس كذا لو
فأدركت من أني جازي السعد ويقود المرشد شخصيات حياض
تسبب أنني أجدت الحداث

الفصل السابع

- ١ -

يجب أن أتقل بحكايتي عن الأيام التي قضيتها في ستايلز، وعندما أستذكرها فهي تمثل لي مجموعة من المحادثات والكلمات المثيرة للذكريات والألفاظ الموحية التي طُبعت في ذهني. فأولاً وفي البداية يأتي فهمي لضعف بوارو وعجزه، فقد آمنت - كما أخبرني - بأن عقله لا يزال يعمل بنفس قوته السابقة، ولكن مظهره الخارجي ضَعُفَ بحيث أدركتُ فوراً أنه من المقدّر لي أن أَلعب دوراً أكثر فاعلية من أيّ وقت مضى، يجب أن أكون عينيّ بوارو وأذنيه.

وكان كيرتس يحمل سيده في الأيام الجميلة ويتزل به الدرج إلى حيث ينتظره كرسيه المعدّ سابقاً، ثم يقوده إلى الحديقة حيث يختار له بقعة بعيدة عن مجرى الهواء، أما في الأيام الأخرى وعندما لا يكون الجو ملائماً فقد كان يحمله إلى غرفة الجلوس. وأينما يَكُن فلا بد أن يأتي أحدهم إليه ويحدثه، ولكن هذا ليس كما لو كان بوارو هو الذي يختار لنفسه رفيقه، فلم يعد باستطاعته اختيار الشخص الذي يريد التحدث إليه.

في اليوم التالي لوصولي أخذني فرانكلين إلى معمل قديم في
الحديقة، وهو معمل أعدّه بطريقة سريعة لأغراض علمية. ودعوني
أوضح لكم بأنني لا أملك عقلاً علمياً، وفي حديثي لكم عن عمل
الدكتور فرانكلين ربما استعملت مصطلحات غير صحيحة قد تثير
امتناع أولئك العالمين يمثل هذه الأمور.

بقدر ما فهمت (كشخص عادي) كان فرانكلين يُجري تجاربه
مستعملاً أشباه القلوبات المختلفة المشتقة من مادة اسمها العامي
هو «لوبياء كالابارا»، وقد أدركت الأمر بصورة أفضل عقب المحادثة
التي جرت في أحد الأيام بين فرانكلين وبارو. أما جوديث التي
حاولت تعليمي فقد كانت - كما هو الحال دائماً مع هؤلاء الشباب
المتحمسين - تستعمل التعبيرات الفنية بصورة فظيعة، وقد أشارت
إلى شبه قلوبات الإيفنوستغمين وإسرين الفيزوفين والجينيسرين،
ثم أشارت إلى مادة أخرى صعبة اللفظ، بروسغمين أو ملح ديميثيل
كاربونيك إستر، وغيرها كثير من الأسماء التي بدت متشابهة ولكنها
تختلف في طريقة اشتقاقها.

كان كل ذلك غريباً وغير مفهوم بالنسبة لي، وقد أثرت ازدراء
جوديث عندما سألتها: ما نفع هذا كله للبشرية؟

لا شيء يزعم العالم الحقيقي أكثر من هذا السؤال، وقد
رمقتني جوديث بنظرة ازدراء وعاجلتي شرح مفصّل أوضحت فيه
أن بعض القبائل النائية في غرب أفريقيا أظهروا مناعة ضدّ مرض
نابٍ مميت يُدعى - على ما أذكر - جوردانائيس، نسبة إلى الطبيب
المتحمّس الذي اكتشفه واسمه الدكتور جوردان. كان مرضاً استوائياً

شديد الندرة، وقد التقطه السكان البيض في مناسبة أو اثنتين فأدى
إلى وفاتهم.

وخاطرت باحتمال إثارة غضب جوديث عندما قلت إنه
سيكون من الأفضل العثور على دواء يقضي على التأثيرات الجانبية
لمرض الحصبة، فأوضحت لي جوديث بشفقة وازدراء أن الهدف
الوحيد الجدير بالبلوغ هو ليس تحسين الجنس البشري ولكن توسيع
معرفة البشر.

ونظرتُ إلى بعض الشرائع من خلال المجهر ودرستُ بعض
الصور لسكان غرب أفريقيا الأصليين، وبالفعل كان الأمر مسلياً.
وشاهدتُ فأراً مخدراً في القفص، ومن ثمّ أسرعت بالخروج طلباً
للهواء.

وكما قلت قبل قليل فإن أيّ اهتمام كنت أشعر به قد ازداد
بعد المحادثة التي جرت بين فرانكلين وبارو، فقد قال فرانكلين:
أتدري يا بارو؟ هذه الأمور من اختصاصك أنت أكثر منّي، فهذه
المادة (لوبياء كالابارا) كانت هي التي تثبت البراءة أو الذنب، وكانت
قبائل غرب أفريقيا تؤمن بها بشكل مطلق (ولكنهم تغيروا الآن إذ
أصبحوا أكثر علماً)، فكانوا يمضغونها وهم واثقون من أنها ستقتلهم
إذا كانوا مذنبين ولن تؤذيهم إذا كانوا أبرياء.

- واحسرتاه! وهكذا يموتون؟

- لا يموتون جميعاً... هذا ما تمّ تجاهله دائماً حتى الآن.
يوجد نوعان من هذه المادة وهما يبدوان متشابهين بحيث لا يمكنك

من قرن لآخر، وما تختيره قد يكون الحس بالذنب أو الحس بالبراءة. في الحقيقة هذا الاختبار لا قيمة له أبداً.

- لا أرى كيف وصلت إلى هذه النتيجة.

- صديقي العزيز، افترض أن رجلاً يظن أنه يمتلك حقاً إلهياً لكي يقتل طاغية أو مجرماً أو أي شخص يثير حفيظته الأخلاقية، فهو يرتكب ما تعتبره أنت بَعَثَ مَذْنِباً، ولكنه هو يعتبره عملاً بريئاً. ماذا ستفعل حيوبك المسكينة عندها؟

- بالتأكيد لا بد أن شعوراً بالذنب يرافق المجرم دائماً.

قال الدكتور فرانكلين بمرح: يوجد العديد من الناس الذين أتمنى قتلهم، ولا تظن بأن ضميري سيقتني مستيقظاً بعد قتلهم، فأحدى أفكارى - كما تعلم - أنه يجب التخلص من ثمانين في المئة من أفراد الجنس البشري! سوف نتدبر الحياة بشكل أفضل دونهم.

ثم نهض ومشى بعيداً وهو يصغر لنفسه بمرح، فنظرتُ إليه بشك، ثم أعادني إلى الواقع ضحكة خافتة صدرت عن بوارو الذي قال: تبدو كمن رأى جحراً للأفاعي يا صديقي. دعنا نأمل بأن صديقنا العالم لن يمارس ما يدعو إليه.

فقلت: نعم، ولكن ماذا لو أنه فعل؟

-٢-

بعد تردد قصير قررت أنه يجب عليّ أن أطلع جوديث على أمر اليرتوت، فقد شعرت بأنه يجب عليّ أن أعرف كيف سيكون

ملاحظة الفرق، ولكن يوجد فرق؛ فكلاهما يحتوي على الفايروستغمين والجينسرين وبقية المواد، ولكن في الصنف الثاني يمكنك (أو أظن أنه بإمكانني أنا) فصل مادة أخرى شبه قلوية يُبطل مفعولها مفعول المواد الباقية. أضف إلى ذلك أن الصنف الثاني يتناوله عادة المقرَّبون في طقوس دينية سرّية، والذين يتناولونها لا يُصابون بداء جورداينس أبداً.

ثم التقط أنفاسه وعاد يكمل: وللمادة الثانية تأثير فعال على الجهاز العضلي دون أي تأثيرات تخديرية. هذا مهم ومثير جداً، ولكن لسوء الحظ فالمحلول شبه القلوي النقي غير ثابت، وعلى الرغم من ذلك فأنا أحصل على نتائج. ولكن المطلوب هو المزيد من البحث هناك في تلك البقعة، هذا عمل يجب إنهاؤه، أجل، أنا أصحّي بروحي...

وتوقف فجأة وقطب جبينه عابساً ثم قال: اعذرني؛ أنا أنفعلُ جداً بشأن تلك الأمور.

فقال بوارو بهدوء: كان سيسهل عملي لو استطعت اختبار الذنب والبراءة بهذه السهولة. آه، لو أن هناك مادة بديلة يمكنها فعل ما يقال إن لوياء كالابار تستطيع فعله!

قال فرانكلين: ولكن مشكلتك لن تنتهي عند ذلك الحد، ففي الواقع ما الذنب وما البراءة؟

علقتُ قائلاً: لا أظن أن الشك في هذا الأمر وارد.

التفت نحوي قائلاً: ما الشر؟ ما الخير؟ تختلف الآراء حولهما

رد فعلها. لقد كانت - كما أعلم - فتاة عاقلة قادرة على الاعتناء بنفسها، ولم أظن بأنها ستقع ضحية انجذاب رخيص نحو شخص مثل أليوتون.

وفي الحقيقة أظن أنني حدثتها بالأمر لأنني كنت بحاجة لأن تؤكد هي لي هذه النقطة، ولكنني لم أحصل على ما تمنت لسوء الحظ. ويمكنني القول إنني قد بدأت بداية خرقاء، إذ لا يكره هؤلاء الشبان شيئاً أكثر من التصبحة التي يقدمها لهم الكبار. حاولت أن تبدي كلماتي لامبالية ولطيفة ولكن يبدو أنني فشلت، فقد اتصبت جوديث بخشونة وقالت: ما هذا؟ أهو تحذير أبيّ من ذنب شرس كبير؟

- لا، لا يا جوديث، بالطبع لا.

- هل أفهم من هذا أنك لا تستلطف الميجور أليوتون؟

- في الحقيقة نعم، وأظن أنك لا تحبته في الحقيقة.

- ولم لا؟

- هو ليس من النوعية التي نحبها.

- وما هي النوعية التي أحبها في رأبك؟

بإمكان جوديث إثارة غصبي دائماً. لقد فشلْتُ فشلاً ذريعاً، فقد أخذت تنظر إليّ وقد تقوّسَ فيها في شكل ابتسامة استهزائية، ثم قالت: أنت لا تستلطفه بالطبع، ولكنني أستلطفه. إنه شخص مسلٌّ في نظري.

- مسلٌّ؟ لعله كذلك.

حاولت الموافقة على ذلك، ولكن جوديث قالت متمتدة: كما أنه جذاب جداً، أي امرأة أخرى نظن ذلك لكن الرجال لا يرونه بالطبع.

وتابعَتْ بغياها: بالطبع هم لا يرون ذلك. لقد خرجت معه الليلة الماضية حتى ساعة متأخرة.

ولم تسمح لي بالمتابعة، بل انفجرت كالعاصفة وقالت: حقاً أنت تصرف بحماقة يا أبي! ألا تدرك أنني أستطيع تدبر شؤوني بنفسني وقد بلغت هذه السن؟ ليس لك الحق بالتحكم فيما أفعل... إن أكثر ما يغضب في الآباء والأمهات هو تدخلهم غير المنطقي في حياة أبنائهم. أنا أحبك كثيراً ولكنني امرأة بالغة الآن وحياتي ملكي أنا فقط، فلا تحاول أن تجعل نفسك السيد باريت.

تألمت كثيراً من هذه الملاحظة القاسية جداً والتي لم أكن قادراً على الرد عليها، وانصرفت جوديث بسرعة وتركتني براودني شعور مريع بأن ما فعلته قد سبّب الضرر أكثر من النفع. وكنت واقفاً مستغرقاً في تأملاتي عندما أيقظني صوت ممرضة السيدة فرانكلين وهي تهتف بخبث: أوافقك على أفكارك يا كابتن هيستغز.

التفت بسرور مرحباً بهذه المقاطعة. كانت الممرضة كارفن فتاة جميلة، وربما كانت تصرفاتها تميل إلى المكر والخبث لكنها كانت لطيفة وذكية. وكانت قد انتهت من وضع مريضتها في بقعة مشمسة لا تبعد كثيراً عن المختبر، فتساءلت: هل السيدة فرانكلين مهتمة بعمل زوجها؟

رفعت الممرضة كارفن رأسها بازدراء وقالت: هذه الأمور فنية

بالنسبة لها، وهي ليست بالمرأة الذكية كما تعلم يا كابتن هيستنغز.
- نعم، لا أظن ذلك.

- لا يُقدَّر عملَ الدكتور فرانكلين إلا شخص يعلم بعض الشيء عن الطب والأدوية، فهو رجل ذكي جداً في الحقيقة، بل هو عبقرى. يا للرجل المسكين! إنني لأشعر نحوه بالأسف.

- تشعرين نحوه بالأسف؟

- نعم؛ لقد رأيت هذا يحدث أكثر من مرة، أعني الزواج بالمرأة الخطأ.

- هل تظنين أنها لا تناسبه؟

- حسناً، ألا تظن أنت ذلك؟ ليس بينهما أي شيء مشترك.

- يبدو أنه يحبها، فهو يلتقي جميع طلباتها مثلاً.

ضحكت الممرضة كارفن بطريقة كريمة وقالت: تأكد من أنها تدرك ذلك جيداً.

تساءلتُ بشك: هل تظنين أنها تستغل ذلك أو تستغل مرضها؟

ضحكت كارفن وقالت: لن تجد ما تستطيع تعليمها إياه في طرق الحصول على ما تريد، فما تريده فخامتها هو الذي يحصل. بعض النساء من هذا الصنف؛ ذكيات كالقروود، إذا عارضهن أحد فكل ما يفعلنه هو الاستلقاء وإغلاق أعينهن والتظاهر بالمرض، وبعضهن يتعرضن لنوبة عصبية. أما السيدة فرانكلين فهي من النوعية

التي تحاول استشارة الشفقة، فهي لا تنام طول الليل فتبدو شاحبة متعبة في النهار.

تساءلتُ بدهشة: ولكنها مريضة حقاً، اليس كذلك؟

رمتني الممرضة كارفن بنظرة غريبة ثم قالت بجفاء: بالطبع.

ثم غيرت الموضوع بسرعة وسألته إن كان صحيحاً أنني جئت في الماضي إلى هذا البيت إبان الحرب الأولى، فأجبت: نعم، هذا صحيح.

ثم خفضت صوتها وهي تقول: لقد وقعت جريمة هنا، اليس كذلك؟ هذا ما أخبرتني به إحدى الخادמות. هل كانت سيدة عمجوزاً؟

- نعم.

- وهل كنت موجوداً في ذلك الوقت؟

- نعم، كنت موجوداً.

ارتعشت قليلاً وقالت: هذا يوضح الأمر، اليس كذلك؟

- يوضح ماذا؟

رمتني بنظرة جانبية وأجابت: الجو المحيط بالمكان، ألا تشعر به؟ أنا أشعر بوجود شيء غير صحيح... إذا كنت تدرك ما أعني.

صمتُ مفكراً لحظة. هل ما قالته صحيح؟ هل حقيقة أن الموت بهذه الطريقة القاسية المتعمدة إذا وقع في بقعة معينة يترك فيها أثراً يمكن إدراكه بعد سنوات عديدة؟ هكذا يقول الوسطاء الروحانيون. هل

يحمل «ستايلز» آثار ذلك الحادث الذي حدث منذ وقت بعيد؟ هنا بين هذه الجدران وفي تلك الحدائق انبعثت فكرة جريمة ونمت إلى أن وصلت إلى الفصل الأخير، فهل لا تزال تلوث الهواء؟

قطعت كارفن حبل أفكارها فجأة بقولها: لقد كنت أعيش في منزل حدثت فيه جريمة قتل، ولم أنتها قط... أمر كهذا لا يُنسى أبداً كما تعلم. كان أحد مرضاي وكان يجب عليّ أن أشهد في المحكمة. كانت تجربة سيئة بالنسبة لفتاة.

- لا بد أنها كانت كذلك، أعرف ذلك الشعور شخصياً.

وقطعت حديثي وأنا أرى بويد كارنغتون يمشي مسرعاً حول زاوية المنزل، وكالمعتاد فشخصيته القوية المرحلة نجحت في إبعاد القلق والكآبة غير المحسوسين. كان ضحكاً جداً متزنأً يحب الهواء الطلق، واحداً من تلك الشخصيات المحببة التي تفرض نفسها والتي تجمع ما بين المرح والتعقل.

قال بمرح: صباح الخير يا هيستنز، صباح الخير أيتها الممرضة.

أين السيدة فرانكلين؟

- صباح الخير يا سير ويليام. السيدة فرانكلين في نهاية الحديقة تحت شجرة الدراق قرب المختبر.

- أظن أن فرانكلين في المختبر؟

- نعم يا سير ويليام، مع الأنسة هيستنز.

- يا للفتاة المسكينة! تصور نفسك وأنت مقيد مضطرب لممارسة

عمل بغض في مثل هذا الصباح. يجب عليك الاحتجاج يا هيستنز. قالت الممرضة كارفن بسرعة: ولكن الأنسة هيستنز سعيدة، فهي تستمتع بذلك كما تعلم، وأنا واثقة من أن الدكتور لا يستطيع التصرف دونها.

- يا للفتى العيس! لو كانت لديّ سكرتيرة جميلة مثل ابنتك جوديث لكنت نظرت إليها بدل النظر إلى حيوانات التجارب، ما قولك؟

كانت تلك من نوعية النكات التي كانت جوديث سكرهاها، ولكن الممرضة كارفن تقبلتها جيداً فضحكت منها ثم قالت: آه يا سير ويليام! يجب عليك عدم التفوه بمثل هذا الحديث. أنا واثقة من أن الجميع يعلم ما كنت ستفعله، ولكن الدكتور فرانكلين المسكين رجل جاد ومنهمك جداً في عمله.

قال بويد كارنغتون بمرح: حسناً، يبدو أن زوجته قد اتخذت موقفاً يمكنها من مراقبة زوجها. أظن بأنها غبورة.

- أنت تعلم الكثير يا سير ويليام.

ويبدو أن الممرضة كارفن كانت مسرورة بهذا المزاح، فقالت بتردد: حسناً، أظن أنه يجب عليّ أن أنفقد حليب السيدة فرانكلين.

وانصرفت ببطء، ووقف بويد كارنغتون وهو يتبعها بنظره ويقول: فتاة حسنة المظهر، لكن لا بد أن حياتها بالمجمل مملة من حيث الاعتناء بالمرضى دائماً. فتاة مثلها تستحق حياة أفضل.

- آه، حسناً، أظنها ستتزوج يوماً ما.

- أظن ذلك.

وتنهده وقد بدا لي أنه يفكر في زوجته المتوفاة، ثم قال: هل تريد أن تأتي معي إلى «ناتون» لترى المكان؟

- نعم، أودّ ذلك. سوف أرى أولاً إذا كان بوارو بحاجة لي.

عثرت على بوارو جالساً على الشرفة وقد أحكم الغطاء حول نفسه، وقد شجعتني على الذهاب إلى ناتون قائلاً: نعم، بالتأكيد. اذهب يا هيستغز، فهو قصر جميل ويجب عليك مشاهدته.

- أودّ ذلك، ولكن لا أريد أن أتركك وحيداً.

- لا يا صديقي المخلص، اذهب مع السير ويليام فهو رجل لطيف، أليس كذلك؟

فقلت بحرارة: من الدرجة الأولى.

ابتسم بوارو وقال: أجل، كنت أظن أنكما من النوعية ذاتها.

- ٣ -

استمتعت برحلتنا القصيرة تماماً، ليس فقط لأن الجو كان جميلاً، يوماً صيفياً جميلاً حقاً، ولكنني استمتعت أيضاً برفقة الرجل. يملك بويد كارنغتون جاذبية شخصية بحيث جعلته تجاربه الواسعة في الحياة والأماكن التي زارها الرفيق الأمثل. وقد أخبرني بقصص من أيام خدمته الحكومية في الهند وروى بعض الحقائق

المسلية عن بعض المعتقدات القبلية في شرق أفريقيا، وقد كان ذلك كله مسلماً بحيث انطلقت ونسيت قلقي على جوديث والهموم العميقة التي سببتها لي أحاديث بوارو.

وأعجبتُ أيضاً بالطريقة التي تحدّث بها بويد كارنغتون عن صديقي؛ كان يُكرِّم له الاحترام لعمله وشخصيته معاً، وعلى الرغم من تدهور صحة بوارو لم يتفوّه بويد كارنغتون بأي كلمات سطحية، فيبدو أنه يقظ بأن الحياة التي قضاها بوارو هي في حد ذاتها مكافأة سخية وأن صديقي سيجد الرضا والاحترام عبر ذكرياته. وقال: أراهن أن عقله لا يزال قوياً كما كان في السابق.

فأكدتُ بلهفة قائلاً: نعم، هو كذلك بالفعل.

- خطأ كبير أن يقظ أحدنا أن مجرد كون المرء مقيداً بسبب أرجله يؤثر على سلامة عقله. ليس هذا صحيحاً أبداً؛ الشيخوخة لا تؤثر على العقل بقدر ما نتصور. لا أظن أن بإمكانني الشروع في ارتكاب جريمة قتل تحت أنف بوارو وعلى مرأى منه، حتى في مثل هذا الوقت من النهار.

وابتسمتُ وقلت: سوف يقبض عليك إن أنت فعلتها.

قال: "أراهن على أنه يستطيع ذلك". ثم أضاف بحزن: لا يعني ذلك أنني أستطيع ارتكاب جريمة بأي حال؛ فأنا لا أستطيع تخطيط الأمور كما تعلم. إنني نافذ الصبر، وإذا ما ارتكبتُ جريمة فسيكون ذلك بتأثير تلك اللحظة.

- هذا النوع من الجرائم من أصعب أنواع الجرائم اكتشافاً.

- لا أظن ذلك؛ فعلى الأرجح سأترك خلفي العديد من الأدلة في جميع الاتجاهات، ومن حسن حظي أنني لا أملك عقلية إجرامية. أتخيل أن الشخص الوحيد الذي يمكنني قتله هو الشخص المبتز. يمكنك اعتبار قولِي هذا فظيماً إن شئت، ولكنني اعتقدت دائماً أن المبتز يستحق القتل. ما رأيك؟

اعترفت بتعاطفي مع وجه نظره، ثم انتقلنا إلى تفحص العمل الذي تم في المنزل، وتقدّم لملاقاتنا مهندس معماري شاب.

كان قصر «ناتون» كما كان أيام العهد التيودوري؛ فباستثناء جناح أضيف حديثاً لم يتم تحديث القصر أو تغييره منذ تم تركيب حمامين بدائيتين في نحو أربعينيات القرن السابع عشر. وقد أوضح لي بويد كارنغتون أن عمه كان ناسكاً إلى حد ما، يكره الناس ويعيش في جزء من المنزل الواسع. وقد كان بويد كارنغتون وأخوه يُمضون إجازاتهم هنا عندما كانوا تلاميذ قبل أن ينزل السير إيفرارد عن العالم. ولم يتزوج الرجل العجوز وكان ينفق عُشر دخله الكبير، لذلك فحتى بعد دفع نفقات الدفن والوفاة وجد البارون الحالي نفسه وقد أصبح رجلاً غنياً.

تهند الرجل وقال: لكنني رجل وحيد.

قالها وصمت، وكان تعاطفي شديداً لا يمكن التعبير عنه بالكلمات. لقد كنت رجلاً وحيداً أيضاً، فمنذ وفاة زوجتي وأنا أشعر بأنني نصف إنسان. وفي تلك اللحظة عبرت قليلاً وبتردد عما أشعر به فقال: آه يا هيستغز، لكنك تملك شيئاً لا أملكه.

وتوقف للمحظة، وفجأة بدأ يروي ملخص مأساته، قصة عن

زوجة شابة جميلة مخلوقة محببة، ولكنها ذات ثراث ملوث حيث مات معظم أفراد عائلتها بسبب الإفراط في الشراب. وقد سقطت هي نفسها فريسة لهذه اللعنة، وبعد مرور ستة على زواجهما ماتت بسبب الكحول. ولم يلمها، فقد أدرك أن الوراثة كانت قوية جداً بالنسبة لها. وبعد وفاتها استقرّ وبدأ حياة وحيدة وقرر -بناءً على تجربته السابقة- أن لا يتزوج مرة أخرى. قال ببساطة: المرء يشعر بالأمان وهو وحيد.

- نعم، أفهم شعورك هذا.

- كان الأمر مأساة، لقد جعلتني أهرم مبكراً وأشعر بالمرارة.

ثم توقف قليلاً وعاد يقول: صحيح أنني كنت على وشك الزواج في إحدى المرات، ولكنها كانت صغيرة جداً وشعرت بأنه ليس من العدل أن أقتدها إلى رجل واقعي. لقد كنتُ كبيراً جداً بالنسبة لها، كانت طفلة جميلة بريئة.

وتوقف وهو يهز رأسه فقلت له: كان أحمرى بك أن تترك الأمر لها لتقرر.

- لا أعلم يا هيستغز. لقد ظننت العكس، بدا وكأنها تستلطفني ولكنها كانت صغيرة جداً كما قلت. سوف أتذكرها دائماً كما رأيتها في اليوم الأخير من تلك الإجازة، كان رأسها مائلاً قليلاً، ثم تلك النظرة الساحرة واليدين الصغيرتين...

شكّلت كلماته في ذهني صورة بدت مألوفة بالرغم من أنني لم أستطع معرفة السبب، ثم قطع حبل أفكاره صوت بوبد

كارنغتون الخشن المفاجئ وهو يقول: لقد كنت غيباً! أي رجل يدع مثل هذه الفرصة تفلت من يده سيكون رجلاً غيباً. على كل حال ها أنذا! لدي مزرعة كبيرة ومنزل كبير جداً بالنسبة لي بلا زوجة تؤنس وحشتي.

فُنْتُ بطريقته القديمة في تصوير الأشياء. لقد استحضرت إلى ذهني صورة حُسن العالم القديم وسهولته فقلت: أين تلك السيدة الآن؟

- آه، لقد تزوجت وأغلق الموضوع. الحقيقة أنني قد أعددت نفسي لعزوبة دائمة يا هيستنغز. لدي طرفي الصغيرة. تعال وانظر إلى الحداثق، لقد أهملت بشكل فظيع ولكنها لا تزال جيدة نوعاً ما.

وتجولنا حول المنزل فتأثرت بما رأيت؛ فقد كان «ناتون» قصراً ممتازاً بلا شك، ولا بد أن بويد كارنغتون كان فخوراً به. كان يعرف أهل الجوار والجيران جيداً وبعض الناس القريين من المكان، بالرغم من بعض القادمين الجدد منذ قدومه.

عرف الكولونيل لاتريل منذ زمن، وقد عبّر عن أمله في أن تنجح مغامرة «ستايلز». قال: المسكين توبي لاتريل ليس بالشخص الغني كما تعلم. إنه شخص لطيف وجندي جيد، كما أنه رام ماهر. لقد ذهبت معه في إحدى المرات في رحلة قنص في أفريقيا... تلك هي الأيام! كان آنذاك متزوجاً بالطبع، لكن زوجته لم تأت معنا لحسن الحظ. كانت امرأة جميلة ولكنها كانت سريعة الغضب. من المضحك تصور القدر الذي يتحملة الرجل من المرأة! توبي لاتريل الذي كان مرؤوسه يرتعشون منه من رؤوسهم حتى أسفل أقدامهم

وكان ضابطاً صارماً وقاسياً تسيطر عليه زوجته فيخضع لها كما كان يخضع له مرؤوسوه! لا شك أن تلك المرأة تمتلك لساناً حاداً، ولكنها تمتلك العقل أيضاً، وإذا كان بإمكان أي شخص إنجاح هذا المكان فهو هي. لم يمتلك لاتريل العقل التجاري أما السيدة لاتريل فتستطيع سلخ جذتها وهي حية.

قلت: إنها مندمجة في هذا الأمر.

قال بويد كارنغتون بشيء من الحيرة: هذا صحيح، وهي تبدو في غاية اللطف، ولكن هل لعبت الورق معهم؟

- نعم.

- في الواقع أنا أنجنب السيدات اللاتي يلعبن البريدج، وإذا أردت نصيحتي فافعل ذلك أيضاً.

أخبرته عن شعوري أنا ونورتون بعدم الارتياح في الليلة الأولى لوصولي فقال: بالضبط، لا يعرف المرء أين يذهب بنظرته.

ثم أضاف: نورتون فتى لطيف على الرغم من أنه هادئ، وهو دائم البحث عن الطيور لكنه أخبرني بأنه لا يهتم باصطيادها. غريب أنه لا يهتم بالرياضة. لقد أخبرته أنه يفتقد الكثير، فلست أرى ما هي المتعة في التجول في الغابات الباردة ومراقبة الطيور بالمتظار!

ولم ندرك أن هواية نورتون تلك سوف تلعب دوراً مهماً في الأحداث القادمة.



الفصل الثامن

مرّت الأيام، وكان وقتاً عصيباً يسوده شعور قلق يترقب حدوث أمر ما. ولم يحدث حقيقة أي شيء (إذا صح لي أن أضع الأمور بهذا الشكل)، لكن وقعت بعض الحوادث: بعض المحادثات القريبة، معلومات عرضية عن نزلاء ستايلز المختلفين، ملاحظات وشروح تراكمت جميعها، وهي إن جُمعت بصورة صحيحة فسوف تفيد كثيراً في إنارة طريقي.

كان بواردو (وقد استعمل بعض الكلمات القوية) هو الذي أراني شيئاً كنت قد غفلت عنه بشكل لا يُغتَمَر. تَذمَّرت مراراً من رفضه المتعمد منحي ثقته وأخبرته أن ذلك ليس عدلاً. لقد كانت معلوماتنا دائماً متساوية، بالرغم من أنني كنت أحقّ وكان هو ذكياً في التوصل إلى الاستنتاجات الصحيحة من تلك المعلومات.

لوح بيده وقد نفذ صبره وقال: نعم يا صديقي، هذا ليس عدلاً، ولكن هذه ليست رياضة ولا لعبة. أعتزف بذلك، ليست

لعبة ولا رياضة. إنك تشغل نفسك بحماسة محاولاً معرفة هوية رجلنا الغامض، وأنا لم أطلب منك الحضور لهذا السبب. ليس من الضروري أن تشغل أنت نفسك بهذا فأنا أعرف جواب هذا السؤال، لكن الذي لا أعرفه والذي يجب أن أعرفه هو الضحية الجديدة. المسألة ليست اشتراكك في لعبة التخمين أيها العجوز، بل محاولة منع موت إنسان.

ذهشت وقلت ببطء: بالطبع، أنا... حسناً، أنا أعلم أنك قد قلت ذلك من قبل، ولكتني لم أكن قد أدركته.

- إذن هل أدركته الآن؟

- نعم، نعم. سأفعل... أعني: لقد أدركت الأمر.

- حسناً، أخبرني إذن يا هيبستنغز: من الذي سوف يموت؟

حدقت إليه بدهشة وقلت: ليست لدي أدنى فكرة.

- يجب أن تكون لديك فكرة، فلماذا أنت هنا إذن؟

قلت وأنا أرتجح تأملاتي في هذا الموضوع: بالتأكيد يجب أن توجد علاقة بين الضحية والسيد «س»، فإذا أخبرتني من هو السيد «س» هذا...

هزّ بوارو رأسه بشدة بحيث كان من المؤلم مشاهدته ثم قال: ألم أخبرك بأن هذا هو أساس أسلوبه؟ لن تجد ما يربط «س» بالقتل، هذا مؤكد.

- هل تعني أن العلاقة ستكون خافية؟

- ستكون مخفية بحيث لن نعثر عليها.

- ولكن بالتأكيد بعد دراسة ماضي «س» يمكن أن...

- قلت لك لا، بالتأكيد، ليس هذه المرة. ألا تدرك أن جريمة
سُحِّدَتْ في أية لحظة؟ هل تفهم؟

- لشخص في هذا المنزل؟

- نعم، لشخص في هذا المنزل.

- وأنت فعلاً لا تدري مَنْ أو كيف؟

- آه، لو كنت أعلم لما كنت أحتك الآن على أن تكشف ذلك

نبي.

- أنتني أنك تبني افتراضك هذا على وجود «س» فقط؟

بدوت متشككاً قليلاً فصرخ بوارو في وجهي. لقد خُفَّت
قدرته على ضبط نفسه مع عدم قدرته على تحريك أعضائه بحكم
الظروف، فصرخ في وجهي قائلاً: آه، يا إلهي! كم مرة يجب أن
أكرر هذا؟ إذا وصل عدد من المراسلين الحربيين فجأة إلى بقعة
معيّنة في أوروبا فماذا يعني هذا؟ إنه يعني الحرب. وإذا قَدِمَ الأطباء
من كل أنحاء العالم إلى مدينة ما فماذا يظهر من ذلك؟ يظهر منه
أنه سيعقد فيها مؤتمر طبي. وعندما ترى نسرأ يحوم سوف تكون
هناك جيفة، وإذا رأيت صيادين يسيرون في المستنقع فهذا يعني
أن هناك عملية صيد، وإذا رأيت رجلاً يتوقف فجأة ويخلع معطفه
ويقفز إلى البحر فهذا يعني أن هناك عملية إنقاذ من الغرق، وأخيراً
إذا شممت رائحة شهية وشاهدت عدداً من الأشخاص يمشون في

الممر وفي الاتجاه نفسه فبإمكانك الافتراض بأن وجبة طعام على
وشك أن تُقدّم.

فكرتُ في هذا التشبيه لأكثر من دقيقة، ثم قلت بشأن النقطة
الأولى: مراسل حربي واحد لا يصنع حرباً.

- بالطبع، وظهور طائر سنونو واحد لا يصنع صيفاً، ولكن
مجرماً واحداً يؤدّي إلى جريمة يا هيستغز.

هذا أمر لا يمكن إنكاره بالطبع، ولكن خطر بيالي (ويبدو أنه
لم يخطر ببال بوارو) أن للقاتل أوقاناً يرتاح فيها؛ فربما كان السيد
اسه موجوداً في ستاهلز للاستجمام فقط دون أي نوايا مبيتة. لكن
بوارو كان غاضباً جداً بحيث لم أجرؤ على تقديم هذا الاقتراح،
وقلت فقط إن الوضع كله يبدو لي ميؤوساً منه وأنه يجب علينا
الانتظار.

أكمل بوارو: أترى؟ مثل السيد إسكيت في الحرب الأخيرة.
هذا هو ما يجب علينا تجنبه يا عزيزي، وأرجو أن تتبه: أنا لا أقول
إننا سننجح حتماً، وقد أخبرتك سابقاً أنه عندما يصمم القاتل على
القتل فليس من السهل إيقافه، ولكن يمكننا المحاولة على الأقل.
فكر لنفسك يا هيستغز: أمامك مشكلة في لعبة البريدج ويمكنك
رؤية جميع الأوراق، والمطلوب منك أن تتنبأ بنتيجة اللعبة.

هززت رأسي بقوة وقلت: لن ينفع هذا يا بوارو، ليست لدي
أية فكرة. فقط لو عرفت من هو السيد اسه!

فصرخ بوارو مرة أخرى بصوت مرتفع جعل كيرتس يأتي

مسرعاً من الغرفة المجاورة وهو يبدو فزعاً، فأشار إليه بوارو بالانصراف، وعندما انصرف خارجاً تحدّث صديقي بطريقة أكثر انضباطاً فقال: هيا يا هيستنغز، أنت لست غيباً كما تحاول أن تتظاهر. لقد درست تلك القضايا التي أعطيتك إياها لتقرأها، ربما لم تعرف الرجل لكنك تعرف أساليبه في ارتكاب الجرائم.

قلت: نعم، لقد فهمت.

- تعلم طبعاً أن مشكلتك تكمن في أنك كسول عقلياً؛ أنت تحب لعب الألعاب والتخمين ولا تحب استعمال عقلك. ما هو العنصر الأساسي في تخطيط الرجل؟ العنصر الأساسي هو أن الجريمة تكون جريمة كاملة عند ارتكابها، أي أن الدافع للجريمة والفرصة والوسيلة تتوفر كلها، وأخيراً (وهو الأهم) الشخص المذنب الذي يجب سحقه!

وعلى الفور أدركت النقطة الأساسية وأدركت كم كنت غيباً لأنني لم أرها سابقاً، فقلت: آه، يجب البحث عن شخص تتوفر فيه جميع هذه المتطلبات، الضحية المحتملة.

اتكأ بوارو إلى الخلف متنهداً وقال: أخيراً! أنا متعب؛ أرسل لي كيرتس. أنت تفهم عملك الآن، وأنت نشيط ويمكنك التنقل وملاحقة الناس والتحدث إليهم والتجسس عليهم دون أن يلاحظوا.

كدتُ أن أحتج بسخط ولكنني هدأتُ، فقد كانت مناقشة عقيمة، وقال بوارو: يمكنك الاستماع إلى المحادثات بأن ننحني وتركع وتظنر من خلال ثقب الباب.

فقاطعته بحدة: لن أنظر من خلال ثقب الباب.

فأغمض بوارو عينيه وقال: حسناً، أنت لن تنظر من ثقب الباب. سوف تنظر ذلك الرجل الإنكليزي المهذب، وسيتقبل أحدهم... هذا لا يهم فالشرف يأتي أولاً بالنسبة للرجل الإنكليزي. شرفك أهم من حياة أحدهم. حسناً، لقد فهمت.

- لا، ولكن... تباً يا بوارو!

قال بوارو ببرود: انصرف وايعث لي كيرتس. أنت عتيد وغيي جداً، وكم أتمنى لو أجد شخصاً آخر يمكنكني أن أتق به، ولكن يبدو أنني مضطر لاحتمالك أنت وأفكارك السخيفة في اللعب النظيف. وبما أنك لا تستطيع استعمال خلاياك الرمادية، ملكات عقلك، ومن الواضح أنك لا تمتلكها، فعلى الأقل استعمال عينيك وأذنيك (وأفك عند الضرورة) بما يملئ عليك شرفك.

-٢-

كان ذلك في اليوم التالي عندما تجزأت على التطرق إلى فكرة خطرت ببالي أكثر من مرة، وقد قلتها بتردد، فلا أحد يعرف كيف يمكن لبوارو أن يتصرف. قلت: لقد كنت أفكر يا بوارو، أنا أعلم أنني لست بذلك الرجل، أنت قلت إنني غبي... حسناً، هذا صحيح نوعاً ما وأنا فعلاً نصف الرجل الذي كنته سابقاً، فمنذ موت ستديلا...

توقفت فأصدر بوارو صوتاً أحسبه تعبيراً عن تعاطفه، ثم

تابعت: ولكن يوجد رجل يمكنه مساعدتنا وهو الرجل الذي نحنناح إليه بالضبط؛ يمتلك العقل والخيال والحيلة والدهاء. إنه معتاد على اتخاذ القرارات وهو رجل ذو خيرة واسعة. أنا أتكلم عن بويد كارنغتون، هو الرجل الذي نريد يا بوارو، فلماذا لا نتق به وتضع الأمر كله أمامه؟

فتح بوارو عينيه وقال بصوت حازم شديد: بالطبع لا.

- لم لا؟! لا يمكنك إنكار أنه ذكي، بل هو أذكى مني كثيراً.

قال بوارو بسخرية مؤلمة: هذا سهل، ولكن اصرف هذه الفكرة من ذهنك يا هيستنزف. نحن لا نتق بأحد، هل هذا مفهوم؟ أنا أمتنع من الحديث في هذا الموضوع.

- حسناً، إذا كان هذا رأيك، ولكن في الواقع فإن بويد كارنغتون...

- آه، بويد كارنغتون! لماذا أنت مهتم ببويد كارنغتون؟ ما هو على أية حال؟ رجل ضخم ومغرور ومسرور من نفسه لأن الناس ينادونه بلقب «صاحب السعادة»! صحيح أنه يتمتع ببعض الكياسة واللباقة وحسن التصرف، ولكنه ليس رائعاً. بويد كارنغتون يكرر نفسه، يروي القصة مرتين، والأكثر من ذلك أن ذاكرته ضعيفة جداً لدرجة أنه يروي لك نفس القصة التي أخبرته أنت بها. رجل ذو قدرات هائلة؟ بالطبع لا، بل هو عجوز ممل متبجح ثرثار، وأخيراً فهو مغرور إلى أبعد الحدود.

- آه، هذا رأيك، وقد بدأت أرى الحقيقة.

صحيح أن ذاكرة بويد لم تكن جيدة، كما أنه -حقيقة- كان قد ارتكب الخطأ الذي أحسبه السبب في غضب بوارو الشديد. لقد أخيره بوارو بقصة من أيام خدمته في الشرطة البلجيكية، وبعد يومين فقط وعندما اجتمع عدد متنا في الحديقة روى بويد كارنغتون بإهمال بسيط نفس القصة مرة أخرى لبوارو. لقد أدركت الآن بأن الأمر أثار غضبه، وبلباقة انسحبت دون أن أقول شيئاً.

-٣-

نزلت إلى الطابق السفلي ثم خرجت إلى الحديقة. لم يكن فيها أحد، وتجولت في بستان من الأشجار حتى وصلت إلى هضبة عشبية يتوجها منزل صيفي بلغ مرحلة متقدمة من التداعي، وقد جلسْتُ هناك وأشعلتُ غليوني وأخذت أفكر في الأمور: من من هؤلاء الموجودين في «ستايلز» بملك دافعاً معقولاً ومحددداً لقتل شخص آخر؟ أو من هو الشخص المتوقع الذي يمكن إثبات أنه يملك دافعاً؟

استثني الكولونيل لاتريل؛ إذ بدا لي من غير المحتمل أن يستعمل البلطة ضد زوجته ولو في مبارزة، على الرغم من أن مثل هذا التصرف يمكن تبريره.

في البداية لم يخطر ببالي أحد، والمشكلة أنني لا أعرف القدر الكافي عن هؤلاء الأشخاص، فما الذي أعرفه عن نورتون أو الأنسة كول على سبيل المثال؟ وما هي دوافع الجريمة في العادة؟ المال؟ رأيت أن بويد كارنغتون هو الرجل العتيق الوحيد بين أفراد

المجموعة، فمن الذي يرثه إذا مات؟ هل وارثه هو أحد الموجودين في المنزل؟ هذا الاحتمال بعيد ولكنها نقطة تستوجب البحث. وماذا لو أنه كان قد أوصى بأمواله للأبحاث واضعاً فرانكلين وصياً؟ لو صح هذا الافتراض وأضفنا إليه ملاحظات الطيب الطائشة حول القضاء على ثمانين في المئة من الجنس البشري فيمكن أن تنشأ قضية جيدة ضد الدكتور ذي الشعر الأحمر. وربما كان أي من نورتون أو الأنسة كول قريبين بعيدين وسوف يرثانه تلقائياً في هذه الحالة. احتمال بعيد، لكنه جائز. هل يمكن أن يستفيد الكولونيل لاتريل (وهو صديق قديم) من وصية بويد كارنغتون؟ بدا أن هذه الاحتمالات قد غطت جميع الجوانب المادية.

نظرت في الاحتمالات الرومسية. عائلة فرانكلين مثلاً: السيدة فرانكلين مريضة، فهل من المحتمل أنه قد تم تسميمها ببطء؟ وهل ستلقى مسؤولية موتها على الزوج لأنه طيب ويمتلك الفرصة والوسيلة؟ ولكن ماذا عن الدافع؟ وراودتني فكرة مزعجة جعلتني أشعر بالخوف من أن تكون جوديث متورطة أيضاً. كان لدي من الأسباب ما يجعلني أعلم أن علاقتهما مهينة بحثة، ولكن هل يصدق الرأي العام ذلك؟ هل يمكن لشروطي شاك أن يصدق؟ كانت جوديث شابة جميلة جداً، وسكوتيرة أو مساعدة جذابة قد تكون الدافع لارتكاب العديد من الجرائم. وأقلقتني هذا الاحتمال كثيراً.

ثم فكرت في أثيرتون. هل يوجد أي سبب لقتل أثيرتون؟ إذا كان لا بد من وجود قاتل فأنا أفضل أن أرى أثيرتون الضحية. يستطيع المرء أن يجد الدوافع بسهولة لقتله. مثلاً الأنسة كول، على الرغم من أنها لم تُعد شابة إلا أنها لا تزال امرأة جميلة، ومن

الممكن أن تحركها الغيرة إذا كانت هي وألبرتون في علاقة حميمة، رغم أنني لم أجد من الأسباب ما يدفعني إلى الاعتقاد بأن هذه هي الحالة، هذا إذا كان ألبرتون هو «س» المجهول.

هزئت رأسي بفغاد صبر، فكل هذا لم يوصلني إلى أي شيء. واسترعى انتباهي صوت خطوات على ممر الحصى السفلي، كان ذلك فرانكلين يمشي بسرعة متوجهاً نحو المنزل الصيفي ويده في جيبه ورأسه مرفوع إلى الأعلى. كان مظهره مظهر رجل مكتب، وعند رؤيته بهذه الحالة صُعقتُ بحقيقة أنه بدا رجلاً غير سعيد أبداً. كنت مشغولاً في متابعته بحيث لم أسمع صوت الخطوات القريبة مني.

استدرتُ فرعاً عندما تحدثت إليّ الأنسة كول، وقلت معتدراً وأنا أنهض: لم أسمعك وأنت قادمة.

كانت تتفحص المنزل الصيفي فقالت: ما أجمل هذا التذكار الفكتوري!

- أليس كذلك؟ لكن من المؤسف أنه مهجور تملؤه خيوط العنكبوت. تفضلي بالجلوس، سأفرض لك المقعد.

وبدت لي فرصة جيدة للتعرف على واحدة من الضيوف بصورة أفضل. وتاملت الأنسة كول بصورة خفية وأنا أزيل خيوط العنكبوت؛ كان عمرها بين الثلاثين والأربعين، وكانت هزيلة نوعاً ما وذات عينيْن جميلتين جداً ويحيط بها جو من التحفظ والشك.

وأحسستُ بأنني بحاجة لمعرفة المزيد عن إليزابيث كول. قلت

بعد أن انتهيت من تنقيض الكرسي بمندبلي: هاك الكرسي، هذا أفضل ما أستطيعه.

جلست قائلة: شكراً لك.

جلستُ بجانبها فصرتُ المقعد بصورة منذرة بالسوء، ولكن لم تحدث مصيبة. قالت: أخبرني، بماذا كنت تفكر عندما وصلتُ؟ لقد كنت تبدو مستغرقاً في التفكير.

قلت ببطء: كنت أراقب الدكتور فرانكلين.

- حقاً؟

ولم أزد ضرورة لإعادة ما كنت أفكر به فقلت: لقد فوجئت بأنه بدا غير سعيد.

قالت بهدوء، بالطبع ليس سعيداً، لا بد أنك قد أدركت ذلك.

أظن أنني أظهرت دهشتي وقلت بتلعثم بسيط: لا، لا، ثم أدرك ذلك، لقد كنت أظنه مشغولاً جداً في عمله على الدوام.

- هو كذلك بالفعل.

- أتسمين ذلك تعاسة؟ يجب أن أقول إن هذه من أسعد الحالات التي يمكن تصورها.

- نعم، أنا لا أنكر هذا، ولكن ليس إذا مُنع الإنسان من القيام بالعمل الذي يحسه، أي إذا لم يستطع تقديم أحسن ما عنده.

- لا أريد أن أقول ذلك، هذا مجرد شك، ولكنها تبدو قادرة على القيام بأي شيء تريده.

فكرت بصمت لمدة دقيقة أو اثنتين، وخطر ببالي أن الأنسة كول مطلّعة جيداً على مختلف شؤون عائلة فرانكلين، فسألته بفضول: أظن أنك تعرفين الدكتور فرانكلين جيداً؟

هزّت رأسها قائلة: لا، أنا لا أعرفه جيداً؛ فقد قابلته مرة أو اثنتين فقط قبل أن نتقابل هنا.

- إذن أظن أنه حدّثك عن نفسه؟

هزّت رأسها مرة أخرى نفيًا وقالت: لا، ما أخبرتك به الآن أعلمتني به ابتكك جوديث.

فكرت بمرارة في أن جوديث تتحدث مع الجميع إلا أنا، وتابعت الأنسة كول قائلة: جوديث مخلصة جداً لصاحب عملها وهي تدافع عنه دائماً، وشجها لآناية السيدة فرانكلين واضح تماماً.

- أنتظنين أنت أيضاً بأنها آناية؟

- نعم، ولكنني أرى وجهة نظرها. أنا أفهم المعوقين، كما أن باستطاعتي أيضاً أن أفهم استسلام الدكتور فرانكلين لها. أما جوديث فتعتقد طبعاً أن عليه أن يترك زوجته في أي مكان ويلتفت لعمله. إن ابتكك متحمسة للعلم كثيراً.

قلت بحزن: أعلم، وهذا يقلقني أحياناً. إنه لا يبدو طبيعياً...

نظرت إليها دهشاً في حين تابعت مفسرة: لقد عرض على الدكتور فرانكلين في الخريف الماضي أن يذهب إلى أفريقيا لمتابعة أبحاثه هناك، وهو ذكي جداً كما تعلم وقد حقق إنجازاً من الدرجة الأولى في حفل الطب الاستوائي.

- ألم يذهب؟

- نعم، لم يفعل؛ فقد احتجت زوجته. لم تكن صحتها تسمح لها باحتمال المناخ، وقد رفضت فكرة بقائها هنا وحدها رفضاً قطعاً، ولا سيما أن ذلك يعني أن عليها أن تحيا حياة متشقة لأن الأجر الممنوح لم يكن عالياً.

- آه، أظن أنه شعر بأنه لا يستطيع تركها وهي في مثل هذه الحالة الصحية.

- هل تعلم أي شيء عن حالتها الصحية يا كابتن هيستغز؟

- أنا؟ لا، ولكنها مقعدة، أليس كذلك؟

قالت الأنسة كول بجفاء: بل هي تستمتع بسوء صحتها.

نظرتُ إليها بشك، وكان من السهل ملاحظة أن تعاطفها كان كله مع الزوج. قلت ببطء: أظن أن النساء الرقيقات يملن إلى الآناية، أليس كذلك؟

- أظن أن المعوقات منهن، المعوقات حقاً، يكنّ آنايات جداً، ولا أظن أن المرأة يستطيع لومهن.

- ألا تعتقدين أن السيدة فرانكلين مريضة حقاً؟

إذا كنت تفهمين ما أعني. أشعر بأنها يجب أن تكون أكثر إنسانية وأن تهتم بأن تستمتع بوقتها، أن تسلي نفسها قليلاً، ففي الحقيقة فترة الشباب هي فترة اندفاع المرء ولهوه لا جلوسه متأملاً أنابيب الاختبار! ليس هذا طبيعياً. في أيام شبابنا كنا نستمتع ونلهو بوقتنا، أنت تعلمين هذا.

مصت لحظة صمت ثم قالت الأتسة كول بصوت غريب: لا، لا أعلم.

وفجأة أحسستُ بالهخول، فدون أن أشعر تحدثت معها وكأننا من جيل واحد، لكنني أدركت فجأة أنها تصغرنني بعشر سنوات على الأقل وأنتي ظهرت -دون قصد- مفتقراً إلى التهذيب. واعتذرت بأحسن ما أستطيع لكنها قاطعت جُملي المتلعثمة قائلة: لا، لم أفصد ذلك، أرجوك لا تعتذر. كنت أعني -ببساطة- ما قلته: أنا لا أعلم؛ إذ لم أكن قط ما يمكن أن تسميه «شابة» ولم أتمتع يوماً بما سمّيته وقت النسبية واللهو.

شعرت بشيء ما في صوتها، ربما كان فيه ضياع أو مرارة أو استياء عميق... وقلت بضعف ولكن بصدق وإخلاص: أنا أسف.

فابتسمت قائلة: حسناً، لا يهم. أرجوك أن لا تبدو متزعجاً هكذا، دعنا نتكلم في موضوع آخر.

تابعْتُ قائلاً: أخبريني بعض الشيء عن الأشخاص الآخرين هنا، إلا إذا كانوا غريبين بالنسبة لك.

- لقد عرفتُ عائلة لاتربل طول حياتي، ومن المجهز أن

يُضطروا لفعل هذا، ولا سيما بالنسبة له فهو عزيز جداً. وهي أطفف مما تظن، إلا أن الحياة القاسية التي عاشتها جعلتها قاسية وجارحة نوعاً ما. الشيء الوحيد الذي لا أحبه فيها هو تصرفها العنيف.

- حدثيني عن السيد نورتون.

- لا يوجد الكثير لأحدثك به. إنه لطيف جداً وخجول إلى حد ما، ولعله غني قليلاً. كان دائماً لطيفاً ورفيقاً، وقد عاش مع أمه التي كانت امرأة نكدة وغبية وأظن أنها سيطرت عليه كثيراً، ثم ماتت قبل سنوات قليلة. يهتم بالطيور والأزهار وأمثال هذه الأشياء، وهو شخص عطوف من ذلك النوع من الأشخاص الذين يرون الكثير.

- أتعتين بمنظاره؟

ابتسمت الأتسة كول قائلة: حسناً، لم أعني ذلك حرفياً بل قصدت أنه شديد الملاحظة، هذا ما يفعله الأشخاص الهادئون. إنه ليس أنانياً بل هو شخص متفهم ويراعي الآخرين، ولكنه غير فعال إذا أدركت ما أعني.

أومأت برأسي وقلت: نعم، أفهم هذا.

وفجأة قالت إليزابيث كول وقد عادت النيرة المريرة إلى صوتها: هذا هو الجزء المحزن في مثل هذه الأماكن. فندق يدبره شخصان لطيفان ولكنهما مفلسان، وهو مليء بالفاشلين، أناس لم يصلوا إلى أي مركز ولن يصلوا أبداً، أناس هزمتهم الحياة وأقعدتهم، أناس كبار متعبون ومتتهون.

حَفَّت صوتها، ونفذ إلى أعماقي حزن عميق. كم كان هذا

صحيحاً! ها نحن أولاء جماعة من الناس وصلوا إلى مرحلة الانحطاط؛ شعور رمادية، وقلوب رمادية، وأحلام رمادية! أنا نفسي حزين ووحيد، وهذه المرأة بجانب مخلوقة مصابة بالخيبة، والدكتور فرانكلين متحمس طموح مقبّد عنيد، وزوجته وفعت فريسة للمرض، ونورتون الهادئ المنهمك في مراقبة الطيور، حتى يوارو صار الآن عجوزاً مقعداً!

كم كان الأمر مختلفاً في الماضي، في تلك الأيام عندما قدمت إلى «ستايلز» لأول مرة! كانت تلك الفكرة أكثر مما أستطيع احتمالها فصدرت مني آهة ألم مكتومة، فقالت رفبتي بسرعة: ما الأمر؟

قلت: لا شيء، لقد صعفتي الفرق. لقد كنت هنا - كما تعلمين - منذ عدة سنوات عندما كنت شاباً، وقد كنت أفكر في الفرق بين الحالين!

- لقد كان متراً سعيداً إذن. هل كان الجميع سعداء هنا؟

غريب أن تتأرجح أفكار المرء هكذا. لقد حدث ذلك لي الآن، خلط غريب وإعادة خلط للذكريات والأحداث، ثم عادت القطع إلى تركيبها الحقيقية. كانت حسرتي على الماضي من حيث هو ماضٍ فقط لا على الواقع الذي يمثله؛ فحتى في ذلك الوقت، في ذلك الوقت البعيد، لم يعرف «ستايلز» معنى السعادة. وتذكرت بهدوء بعض الحقيقة. كان صديقي جون وزوجته تعيسين غاضبين بسبب تلك الحياة التي أجبراً على عيشها، وكان لورنس كافيندش غارقاً في الحزن، وستييا خبا صباحها الفتى بسبب موقفها غير

المستقل، وإنغليثورب تزوج امرأة ثرية لمالها... لا، لم يكن أي من الناس سعيداً هنا. والآن، ومرة أخرى، لم يكن أي منهم هنا سعيداً؛ لم يكن «ستايلز» بالمنزل الذي يجلب الحظ!

قلت للآنسة كول: لقد أطلقت العنان لمواقف خاطئة؛ لم يكن هذا قط بالمنزل السعيد. وهو ليس كذلك الآن، فالجميع هنا غير سعداء.

- لا، لا، ابتك...

- جوديث؟ جوديث أيضاً ليست سعيدة.

قلت ذلك بقوة معرفة مفاجئة، ثم قلت بشك: بويد كارنتون كان يخبرني قبل أيام بأنه وحيد، ولكن أظن أنه يستمتع بوقته جداً. قالت الآنسة كول بحدة: نعم، لكن السير ويليام مختلف؛ فهو لا ينتمي إلى هذا المكان مثل بقيتنا. إنه من العالم الخارجي، عالم النجاح والاستقلال. لقد نجح في حياته، وهو يعلم ذلك. إنه ليس من المعوقين.

كانت كلمة غريبة تلك التي اختارتها، والنضت إليها محذراً وقلت: هلاً أخبرتني لماذا استعملت هذا الاصطلاح بالتحديد؟

قالت فجأة وبقوة: لأن هذه هي الحقيقة، والحقيقة أنني أنا نفسي إنسانة معوقة.

- أنا أعلم أنك لم تكوني سعيدة.

قالت بهدوء: أنت لا تعرف من أنا، أليس كذلك؟

- آه، أعرف أن اسمك...

- كول ليس اسمي... أعني أنه اسم أمي، وقد اقتبسته فيما بعد.

- فيما بعد؟

- اسمي الحقيقي هو ليتسفيلد.

للوهلة الأولى لم أفهم جيداً، كان مجرد اسم يبدو مألوفاً، ثم تذكرت فقلت: ماثيو ليتسفيلد؟!

أومات برأسها قائلة: أرى أنك تعرف الموضوع. هذا ما كنت أعنيه، كان أبي مريضاً وطاغية ومنعنا من ممارسة حياة طبيعية. لم يكن باستطاعتنا دعوة أصدقائنا إلى المنزل وأبقانا دائماً في حاجة إلى النقود... لقد كنا نعيش في زنزاة!

توقفت عن الحديث، وكانت عيناها الجميلتان غامضتين واسعتين، ثم أكملت: ثم أختي، أختي...

وتوقفت عن الحديث فقلت: أرجوك، لا تتابعي! هذا مؤلم بالنسبة لك. أعرف الموضوع فلا داعي لإخباري.

- ولكنك لا تعلم، ليس باستطاعتك أن تعلم. ماغي... ذلك لا يمكن تصديقه أو فهمه. أنا أعرف أنها توجهت إلى الشرطة وأنها سلمت نفسها واعترفت، ولكنني لا أزال عاجزة عن تصديق الأمر أحياناً. أشعر بأن ذلك لم يكن صحيحاً، لم يكن من الممكن أن تحدث الأمور كما قالت إنها حدثت.

وترددت قبل أن أقول: أتعين إن الحقائق كانت مختلفة؟

قاطعتني قائلة: لا، لا، ليس هذا ما أعنيه، بل ماغي نفسها؛ لم يكن ذلك من طبعها، لم تكن... لم تكن ماغي!

اهتزت الكلمات بين شفتي، ولكنني لم أفلها. لم يجرن -بعد- الوقت الذي أستطيع فيه أن أقول لها: أنتِ على حق؛ لم تكن ماغي.

* * *

الفصل التاسع

لا بد أن الساعة كانت نحو السادسة عندما جاء الكولونيل لانريل عبر النمر. كانت معه بندقية صيد وكان يحمل معه زوجين من الحمام، وقد جنف عندما حيتته وبدا دهشاً لرؤيتنا فقال: مرحباً، ماذا تفعلان هنا؟ هذا المكان القديم المتداعي ليس آمناً كما تعلمان، فهو يتداعي وقد يتفكك من حولكما، سوف تسخ ثيابك يا إليزابيث.

- لا بأس، لقد ضحى الكابتن هيستنغز بمنديله لهدف نبيل هو المحافظة على ثوبي نظيفاً.

همس الكولونيل بغموض: آه، حقاً؟ حسناً، هذا جيد.

ووقف هناك وعلى وجهه ابتسامة غامضة فتهضنا وانضممنا إليه. بدا ذهنه مشتتاً في ذلك المساء، وقد ضغط على نفسه ليقول: كنت أحاول اصطیاد ذلك الحمام اللعين؛ فهو يسبب الضرر الكثير كما تعلمان.

قلت: أنت صياد ماهر كما سمعت.

- آه، من أخبرك بذلك؟ بويد كارنغتون؟ كنت صياداً ماهراً، كنت، أما الآن فقد كبرتُ وضعفت.

- أهو نظرك؟

استبعد الاقتراح فوراً وقال: هراء، نظري لا يزال جيداً كما كان، أعني أنني أحتاج إلى وضع النظارة للقراءة طبعاً لكن نظري البعيد لا يزال جيداً.

وكرر بعد دقيقتين: نعم، حسناً، هذا ليس مهماً.

ثم انخفض صوته إلى غمغمة شاردة، ونظرت الأنسة كول حولها قائلة: ما أجمل هذه الأمسية!

كانت على حق؛ فقد مالت الشمس نحو الغروب، وكان ضوءها كلون الذهب مبرزاً لون الشجر الأخضر بلون وضاء. كانت ليلة هادئة إنكليزية جداً يتذكرها المرء عندما يكون في البلاد الاستوائية البعيدة... هكذا قلتُ. ووافقتي الكولونيل لاتريل بحماسة قائلاً: نعم، نعم، لطالما ذكرت أمسيات مثل هذه عندما كنت في الهند. إن هذا يجعلك تنطلع إلى اليوم الذي تتقاعد وتستقر فيه. ما رأيك؟

أومات موافقاً، فتابع وقد تغير صوته: أجل، الاستقرار والعودة إلى الوطن. لا شيء كما تتخيله، لا شيء.

فكرت أن هذا صحيح لمن هو في مثل وضعه. لا أظن أنه تصور نفسه يوماً يدبر تزيلاً للضيافة ويحاول أن يجعله يدّر ربحاً مع زوجة نكدة تعامله بازدراء وتدمر طول الوقت.

مشيتا نحو المنزل ببطء، وكان نورتون وبويد كارنغتون يجلسان على الشرفة فانضمت أنا والكولونيل إليهما في حين دخلت الأنسة كول إلى المنزل. تحدثنا عدة دقائق، ويبدو أن الكولونيل لاتريل قد عاد

إليه ابتهاجه فقد ألقى بعض النكات وبدأ أكثر مرحاً وانتعاشاً من قبل.

قال نورتون: لقد كان يوماً حازماً، كم أشعر بالعطش!

فقال لاتريل: تناولوا بعض المرطبات على حساب صاحب المنزل أيها الرفاق، ما رأيكم؟

بدأ الكولونيل متحمساً ومرحاً، وشكرناه بعدما وافقنا فنهض وذهب إلى الداخل.

كان ذلك الجزء من الشرفة الذي جلسنا فيه بطلّ على نافذة غرفة الطعام، وكانت النافذة مفتوحة فسمعنا صوت الكولونيل في الداخل وهو يُعَدّ العصير، ثم سمعنا صوت السيدة لاتريل حاداً ومرتفعاً وهي تقول: ماذا تفعل يا جورج؟

وانخفض صوت الكولونيل إلى غمغمة، فلم نستطع سوى سماع بعض الكلمات المتلعثمة مثل: «الرفاق في الخارج»، «المرطبات»... ثم انفجر الصوت الحاد المزعج: أنت لَنْ تفعل مثل هذا الشيء يا جورج، هذه الفكرة في مثل هذا الوقت! كيف تظن أن بإمكاننا إنجاح هذا المكان وأنت تدعو الجميع إلى الشراب؟ المشروبات هنا يجب أن يُدعّ ثمنها. أنا أملك عقلاً تجارياً إذا كنت لا تملكه. كنت ستفلس من الغد لو لم أكن هنا، يجب أن أعطني بك كما لو كنت طفلاً، أنت لا تملك عقلاً أبداً.

ومرة أخرى سمعت غمغمة احتجاج خافتة ومتألّمة، وأجابت السيدة لاتريل بحدة: لا أبالي إن فعلوا أو لم يفعلوا، هكذا يجب أن تكون الأمور!

وهذه المرة جاءنا صوت الكولونيل بوضوح يقول: لقد تجاوزت الحدود يا ديزي، وأنا لن أقبل بهذا.

- لن تقبل بهذا؟ أنا أريد أن أعرف من أنت، من يدير هذا المنزل؟ أنا، وإياك أن تنسى ذلك.

وسمعنا حفيف أقمشة فأدركنا أن السيدة لاتريل قد اندفعت خارج الغرفة. ومضت عدة دقائق قبل أن يظهر الكولونيل، وحين أقبل بدا أنه قد صَمَغَ وهم خلال هذه الدقائق القليلة، ولم يبقَ أحدٌ منا إلا وشعر نحوه بالأسف. ومن منا لم يكن لِيَتَطَوَّعَ -عندئذ- بقتل السيدة لاتريل؟

قال الكولونيل بصوت جامد غير طبيعي: أنا أسف جداً أيتها الأصدقاء؛ يبدو أن العصير البارد لا يتوفر لدينا الآن.

ولا بدّ أنه أدرك أننا لم نملك إلا أن نسمع ما جرى، وإذا لم يكن قد أدرك ذلك فلا بدّ أن نصرّفنا سرعان ما أخبره به. بدا التوتر والضيّق علينا جميعاً، وقال نورتون بسرعة إنه لا يريد أن يشرب أي شيء لأن موعد العشاء قد اقترب، ثم غيّر الموضوع فجأة وأخذ يُبدي مجموعة من الملاحظات غير المترابطة. كانت لحظة سبّية فعلاً وقد أحسستُ بأنني لا أستطيع فعل أي شيء، أما بويد كارنغتون الذي كان الوحيد القادر على تغيير الموضوع فلم تسنح له الفرصة بسبب ترثرة نورتون.

ومن بعيد شاهدت السيدة لاتريل تمشي بسرعة عبر أحد الممرات مزوّدة بكفوف البستنة وأداة لإزالة الأعشاب الضارة؛ كانت

امرأة كئيباً بحق، ولكنني شعرت بالمرارة نحوها في تلك اللحظة؛ فلا بحق لأني إنسان أن يهين إنساناً آخر.

كان نورتون لا يزال يتحدث بانفعال، وقد التقط إحدى الحمامات وبدأ يحدثنا كيف ضحك منه أصدقاؤه في المدرسة الإعدادية عندما شعر بالغبثان لدى رؤيته أرباباً مفتولاً، ثم انتقل إلى موضوع مستنقعات الطيور راوياً قصة طويلة لا جدوى منها عن الذي حدث في اسكتلندا عندما أطلق أحدهم النار على مشير الطرائد، كما تحدثنا عن العديد من حوادث الصيد التي نعرف عنها.

ثم تنحج بويد كارنغتون قائلاً: في الواقع لقد حدث أمر طريف مع أحد جنودي. كان فتى أيرلندياً وكانت لديه إجازة ذهب خلالها إلى أيرلندا، وعندما عاد سألته إن كان قد تمتع بإجازته فقال: "نعم يا سيدي، كانت أحسن عطلة قضيتها في حياتي". فقلت إنني سعيد لذلك، هذا ما قلته وأنا مدهوش من حماسه، فقال: "نعم، كانت إجازة رائعة؛ لقد أطلقت النار على أخي!" فهتفت: "أطلقت النار على أخيك؟!!" فقال: "نعم، بالطبع، لقد أردت فعل ذلك لسنوات، وها أنذا وقد كنت على أحد السطوح في دبلين ورأيت أخي قادماً يسير في الشارع وبنديتي في يدي. طلقه رائعة على الرغم من أنني أنا الذي أقول ذلك. لقد اصطدته كما اصطاد الطائر، كانت لحظة رائعة ولن أنساها أبداً!"

روى بويد كارنغتون القصة بصورة حسنة مع بعض المبالغة وتضخيم الأمور فضحكنا جميعاً وشعرنا بالارتياح، وعندما نهض قائلاً إنه بحاجة إلى الاستحمام قبل العشاء عبر نورتون عن مشاعرنا

بقوله بحماسة إنه رجل رائع، ووافقته في حين قال لانربيل: نعم، نعم، هو كذلك.

قال نورتون: كان ناجحاً دائماً، ينجح في أي أمر يفعله. إنه صافي الذهن ويعرف ماذا يريد، رجل فعال، مثال الرجل الناجح.

قال لانربيل ببطء: بعض الرجال مثل هذا، أي شيء يفعلونه ينجح ولا يمكن أن يخطئوا، بعض الناس لديهم كل الحظ.

هز نورتون رأسه قائلاً: "لا، لا يا سيدي، هذا ليس حظاً". ثم أضاف مفتبساً أحد الأقوال المشهورة: "ليس في نجومنا حظنا يا عزيزي بروتس، ولكن في أنفسنا".

قال لانربيل: لعنك على حق.

قلت بسرعة: على كل حال هو محفوظ حقاً لأنه ورث قصر ناتون. يا لذلك المكان! ولكن عليه أن يتزوج، سوف يكون وحيداً هناك إذا بقي بلا زواج.

ضحك نورتون وقال: يتزوج ويستقر؟ افترض أن زوجته سيطرت عليه.

كان ذلك سيئاً. إنها ملاحظة يمكن لأي شخص إداؤها، ولكنها بدت غير مناسبة في مثل هذه الظروف، وقد أدرك نورتون ذلك لحظة صدور كلماته وحاول سحبها، فتردد وتلعثم ثم توقف بغرابة وقد زاد الوضع سوءاً.

بدأنا أنا وهو الكلام معاً، وأبدت ملاحظة غبية حول ضوء المساء، وقال نورتون شيئاً عن لعب البريدج بعد العشاء. ولم يهتم

الكولونيل لاتريل بأي منا، ثم قال بصوت غريب غير معتبر: لا، لن تسيطر زوجة بويد كارنغتون عليه لأنه ليس من تلك النوعية من الناس الذين يسمحون للآخرين بالسيطرة عليهم. إنه رجل حقيقي.

كان الوضع غريباً، وبدأ نورتون بالثرثرة حول البريدج مرة أخرى، وفي وسط كلامه رفرفت حمامة كبيرة فوق رؤوسنا واستقرت على جذع شجرة غير بعيد، فالتقط الكولونيل لاتريل بندقيته وقال: ها هي ذي إحدى المفسدات.

وقبل أن يصوب بندقيته طارت الحمامة عبر الأشجار بحيث أصبح من المستحيل إطلاق النار عليها، وفي اللحظة نفسها تحول اهتمام الكولونيل بسبب سماعه خطوات على المنحدر البعيد فقال: اللعنة، أحد الأرانب يقضم لحاء أشجار الفاكهة الصغيرة، وقد ظننت أنني طوّقت المكان بالأسلاك.

ورفع بندقيته وأطلق النار، وفيما كنت أراقبه ارتفعت صرخة بصوت نسائي، ثم ضعفت الصرخة إلى حشرجة مريضة. وسقطت البندقية من يد الكولونيل وارتخى جسده وعض على شفتيه وصرخ: يا إلهي، ديزي!

ركضت نحو المرج ولحقتي نورتون وصولاً إلى المكان. كانت السيدة لاتريل منحنية تسند وتبدأ إلى إحدى شجيرات الفاكهة الصغيرة، وكان العشب هناك طويلاً فأدركت كيف لم يستطع الكولونيل رؤيتها بوضوح بل مَيَّر فقط حركة بين الأعشاب، وكان الضوء مضللاً. أصيبت في كتفها وكان الدم يتدفق منه، وانحنيت أفحص الجرح ونظرت نحو نورتون الذي كان متكئاً على الشجرة

شاحباً وكأنه على وشك الإغماء، وقال معتذراً: لا يمكنتي احتمال منظر الدم.

قلت بحدة: استدع فرانكلين أو الممرضة على الفور.
فأوما برأسه وركض مسرعاً.

كانت الممرضة كارفن أول من ظهر على المسرح، وقد وصلت بعد فترة قصيرة جداً وبدأت العمل فوراً بطريقة محترفة لوقف النزيف. وصل الدكتور فرانكلين بسرعة بعد ذلك، وقام الاثنان بنقلها إلى المنزل ومن ثم إلى السرير، وقام فرانكلين بتضميد الجرح وأرسل في طلب طبيبها الخاص، وبقيت الممرضة كارفن معها.

وركضت نحو فرانكلين بعد أن انتهى من الحديث بالهاتف وسألته: كيف حالها؟

- سوف تجتاز المحنة بسلام. لحسن الحظ لم تُصَب الرصاصة أيّ منطقة حيوية. كيف حدث ذلك؟

أخبرته بما حدث فقال: حسناً، أين الرجل العجوز؟ لا بد أنه مصاب بصدمة، أظن أنه بحاجة إلى العناية أكثر منها. لا أستطيع القول إن قلبه يعمل بصورة سليمة.

عشنا على الكولونيل لاتريل في غرفة التدخين، وكان لونه أزرق حول الفم وبدأ أنه في حالة انهيار تام. قال بضعف: ديزي، هل هي...؟ كيف هي؟

فقال فرانكلين بسرعة: ستكون على ما يرام يا سيدي، لا حاجة للقلق.

- لقد ظننتها أرنياً يقضم اللحاء! لا أعرف كيف ارتكبت مثل هذا الخطأ... لعله بسبب انعكاس الضوء في عيني...

قال فرانكلين باقتضاب: مثل هذه الأمور تحدث، لقد رأيت واحداً أو اثنين مثلها من قبل. اسمع يا سيدي، ينبغي أن أعطيك دواء مهدئاً؛ أنت لا تبدو على ما يرام.

- بل أنا على ما يرام. هل يمكنني أن أذهب إليها؟

- ليس الآن، الممرضة كارفن معها. ولكن لا داعي للقلق فهي بخير، وسوف يحضر الدكتور أوليفر قريباً وسيخبرك بالرأي نفسه.

تركت الاثنتين معاً وخرجت إلى ضوء المساء، وكانت جوديث وأليرون يتقدمان نحوي عبر الممر. كان رأسه مائلاً نحو رأسها وكلاهما يضحكان، وأنى ذلك ليزيد عليّ المأساة التي حدثت. جعلتني هذا المنظر أشعر بالغضب، وناديت جوديث بحدة فنظرت إليّ بدهشة، وبكلمات قليلة أخبرتها بما حدث فقالت: إنه أمر غير عادي.

ظننت أنها لم تبدُ قلقاً كما كان ينبغي، أما نصرّف أليرون فقد كان قظيماً؛ إذ اعتبر الأمر كله نكتة حيث قال: تلك العجوز النكدة تستحق ما حدث لها. هل تظن العجوز فعلها متعمداً؟

قلت محتدّاً: بالطبع لا، لقد كان الأمر مجرد حادثة.

- نعم، ولكنني أعرف أن هذه الحوادث تكون مناسبة أحياناً، وإذا كان هذا العجوز قد أطلق النار عليها متعمداً فأنا أرفع قبعتي احتراماً له.

قلت بغضب: لم يكن الأمر كذلك.

- لا تكن واثقاً جداً. لقد عرفت رجلين أطلقا النار على زوجتيهما، كان أحدهما ينظف مسدسه، أما الآخر فقد أطلق النار عليها مباشرة وقال إنه كان يمزح ولم يكن يعلم أن المسدس مشحون بالرصاص. وقد أفلت كلاهما، وأقول إن هذه حرية رائعة.

قلت بيروء: ليس الكولونيل لاتريل من تلك النوعية من الناس.

فقال أليرون بعدم احترام: لا يمكنك القول إن ذلك لن يكون خلاصاً محموداً، أليس كذلك؟

ابتعدت غاضباً، وفي الوقت نفسه كنت أحاول أن أخفي قلقاً ما. لقد اقترب أليرون قليلاً من نقطة مهمة، ولأول مرة تسرب الشك إلى عقلي.

لم يتحسّن ذلك بلقائي ببويد كارتغتون الذي أوضح لي إنه كان يتمشى باتجاه البحيرة، وعندما أخبرته بالأمر قال فوراً: أنت لا نظن أنه كان ينوي قتلها، أليس كذلك يا هيستنغز؟

- يا عزيزي، المقروض أن...

- أنا آسف، آسف؛ لم يكن من المقروض أن أقول ذلك. يا للعجب! لقد كانت تستغزه قليلاً كما تعلم.

صمتنا قليلاً ونحن نذكر الحوار الذي سمعناه دون قصد منا، وصعدت إلى الطابق العلوي وأنا أشعر بالتعاسة والقلق وطوقت باب بوارو. كان قد سمع بما حدث من كيرتس ولكنه كان متشوقاً

لسماع التفصيلات كاملة، فمئذ وصولي إلى ستايلز تعوّدت سرد معظم الأحداث اليومية والمحادثات له بالتفصيل. بهذه الطريقة كنت أحسّ أن صديقي العزيز يشعر بأنه أصبح أهل اعزّالاً وأنه يشارك حقاً في كل أمر يحدث. كنت أتمتع بذاكرة جيدة ودقيقة، ووجدت من الضروري أن أكرر له المحادثات حرفياً.

استمع بوارو بانتباه، وكنت أمل أن يستسخف بشكل قاطع ذلك الاقتراح المخيف الذي سيطر على عقلي بسهولة مع مرور الوقت، لكن وقيل أن تتاح له الفرصة ليخبرني عن ظنونه سمعنا نقرأ خفياً على الباب. كانت تلك هي الممرضة كارفن التي اعتذرت عن إزعاجها لنا قائلة: أنا آسفة، ولكنني ظننت أن الطبيب هنا. لقد استيقظت السيدة العجوز وهي قلقة على زوجها وتريد رؤيته. هل تعلم أين هو يا كابتن هيستنغز؟ لا أريد أن أترك مريضتي.

تطوعت بالذهاب للبحث عنه، وأوماً بوارو موافقاً وشكرتني الممرضة كارفن بحرارة.

عثرت على الكولونيل لاتريل في الغرفة الصباحية التي لا تُستعمل إلا نادراً، وكان واقفاً بجوار النافذة ينظر إلى الخارج. التفت بحدة عندما دخلتُ وسألته عيانه سؤالاً، وأظنه بدا خائفاً، فقلت له: لقد استيقظت زوجتك يا كولونيل لاتريل، وهي تسأل عنك.

- حقاً؟

اندفع الدم إلى وجهتي فأدركتُ عندها كم كان شاحياً من قبل، وقال بيظه متلعثماً كرجل عجوز جداً: تسأل عني؟ سوف أذهب فوراً.

بدا مترنحاً عندما بدأ يجرّ قدميه إلى الباب، فتوجهت إليه وساعدته، وانكأ عليّ بثقل جسده حتى صعدنا الدرج. كان يتنفس بصعوبة؛ فالصدمة كانت قوية كما تنبأ فرانكلين.

انجھنا إلى باب غرفة المريضة، ونقرتُ على الباب فسمعنا صوت الممرضة كارفن الجادّة والقوي وهي تقول: ادخل.

دخلنا الغرفة وما زلت أسند الرجل المعجوز. ورأينا حول السرير ستارة رقيقة فوقنا عند زاويتها، وقد بدت السيدة لاتريل مريضة جداً وشاحبة وضعيفة، وكانت عينها مغمضتين ففتحتهما عندما وصلنا إلى زاوية السرير وقالت بصوت ضعيف لاهت: جورج، جورج!

فأجابها جورج بلهفة: ديزي، عزيزتي.

كانت إحدى ذراعيها مضطّدة ومسنّدة، أما الأخرى الطليقة فقد تحركت نحوه مرتعشة، فتقدم خطوة إلى الأمام وأمسك يدها الضعيفة بيده وقال مرة أخرى: ديزي!

ثم قال بصوت أجش: الحمد لله أنك بخير.

وعندما رأيت عينيه مغرورتين بالدموع تنطلقان بالحب والقلق العميقين شعرت بالخجل العميق من كل تخيلاتنا الشريرة، وتسللتُ خارج الغرفة بهدوء. ثم تخفّ شعوره العميق بحبها، وقد أشعرنني الموقف براحة لا حدود لها.

أفزعتني قرع جرس الطعام وأنا أسير عبر الممر. كنت قد نسيت مرور الوقت، فقد أفسدت الحادثة كل شيء. الطباخ فقط

تصرّف كالمعتاد وجهّز العشاء في الوقت المحدّد. ولم يغير معظمنا ثيابه، ولم يظهر الكولونيل لاتريل لكن السيدة فرانكلين التي بدت جذابة جداً في ثوب زهري فاتح اللون كانت في الطابق السفلي، ولأول مرة بدت بصحة ونفسية جيديتين، ولاحظتُ أن فرانكلين كان مستغرقاً في التفكير. الأمر الذي أزعجني هو اختفاء أيرتون وجوديث في الحديقة معاً بعد العشاء.

جلست فترة أستمع إلى فرانكلين ونورتون يناقشان الأمراض الاستوائية، وكان نورتون مصغياً جيداً وإن كان لا يعرف إلا القليل عن الموضوع الذي تجري مناقشته. وكانت السيدة فرانكلين وبويد كارنغتون يتحدثان في الجانب الآخر من الغرفة حيث كان يربها بعض نماذج الستائر والأقمشة القطنية، وكانت إليزابيث كول مستغرقة في قراءة كتاب في يدها، وقد بدا لي أنها كانت محرّجة منّي. ربما كان ذلك طبيعياً بعد محادثتنا في ذلك المساء، وقد شعرتُ بالأسف لهذا الأمر وتمنيت أن لا تندم على ما أخبرتني به، وكنت أود أن أوضح لها بأنني أحترم ثقّتها وأني لن أتحدث بما أخبرتني به، لكنها لم تمنحني أية فرصة.

بعد فترة صعّدتُ إلى يوارو فوجدت الكولونيل لاتريل جالساً في دائرة من الضوء يرسلها مصباح كهربائي صغيرة مضاء، وكان يتحدث ويوارو يستمع. أظن أن الكولونيل كان يتحدث إلى نفسه وليس إلى مستمعه، كان يقول: أتذكّر ذلك جيداً، كانت حفلة صيد وكانت ترندي ثوباً حريمياً أبيض يلفّها جيداً، وكانت فتاة جميلة جداً. لقد صعقتني وأنا في مكاني، وقلت لنفسي: "إنها هي الفتاة التي سأزوجها، أقسم على هذا، وقد فعلتُ. كانت طريقتها في

كلامها حلوة شائعة، دائماً تعطي بقدر ما تستطيع. آه، بارك الله فيها.

تخيلت المنظر في عقلي. كان بإمكانني تصور وجه ديزي لاتريل الأنيق الفتى ولسانها المهذب، كانت فائنة آنذاك ثم تحولت إلى امرأة سليطة بمرور السنين، لكن الكولونيل لاتريل كان يفكر فيها -في ذلك المساء- بصورة تلك الفتاة الشابة، حبه الحقيقي الأول.

مرة أخرى شعرت بالخجل مما قلناه في الساعات الماضية، وبالطبع أخبرت بوارو بالأمر كله عندما ذهب لاتريل إلى فراشه أخيراً. واستمع بهدهوء، ولم أستطع فهم التعبيرات التي علت وجهه. قال لي: أتقصد أنك ظننت أن الطلقة أطلقت عمداً؟

- نعم، وأنا الآن أشعر بالخجل لهذا الظن.

- وهل بدت لك تلك الفكرة من نفسك أم أن أحداً آخر اقترحها عليك؟

قلت باستياء: لقد قال البيرتون شيئاً مشابهاً، بالطبع سوف يفعل ذلك.

- وهل من أحد آخر؟

- بويد كارنغتون اقترح ذلك.

- آه، بويد كارنغتون!

- نعم، فهو في الحقيقة رجل مجرب ولديه خبرة في مثل تلك الأمور.

- نعم، بالطبع، بالطبع. لكن هل رأى الحادثة عند وقوعها؟

- لا؛ كان قد خرج ليتمشى، بعض الثمرين قبل أن يستعد للعشاء.

- نعم، فهمت.

قلت بتوتر: لا أظن أنني صدقت هذه النظرية حقاً، كان ذلك مجرد...

قاطعني بوارو قائلاً: لا داعي لأن تأسف على شكوكك يا هيستنغز، فمثل هذه الفكرة يمكن أن تخطر ببال أي شخص في مثل تلك الظروف. نعم، كان ذلك طبعياً جداً.

كان في سلوك بوارو شيء لم أستطع فهمه، لعله تحفظ. كانت عيناه تراقباني بتعبير فضولي، وقلت ببطء: قد تكون محقاً، ولكن بعد أن رأيت تفانيه وإخلاصه...

أوماً بوارو قائلاً: بالضبط، هذه هي الحالة عادة، فواء هذه المشاجرات والخلافات والعداوات الواضحة يومياً تكمن العاطفة الحقيقية.

أبدته في رأيه، وتذكرت تلك النظرة الرقيقة الحنونة في عيني السيدة لاتريل عندما نظرت إلى زوجها وهو ينحني فوق فراشها، لا مزيد من النكد والقلق والعصية.

أخذت أفكر -وأنا في طريقي إلى الفراش- بأن الحياة الزوجية أمر غريب، ولكن ذلك الأمر في سلوك بوارو لا يزال يقلقني! نظرتة

المراقبة الغربية تلك كأنه يتوقع مني أن أرى شيئاً ما، ولكن ماذا؟
وكنت في طريقي إلى الفراش عندما أدركت ذلك الشيء... أدركته
وكانه أصابني بشدة فيما بين عيني! لو أن السيدة لا تريل قتلت لكانت
تلك قضية مثل باقي القضايا السابقة، ولبدا وكان الكولونيل لا تريل
قد قتل زوجته. كانت ستسجل حادثة، ولكن وفي الوقت نفسه لن
يكون الجميع متأكدين إن كانت حادثة أم جريمة ارتكبت عمداً. إن
الأدلة غير كافية لكي يبرهن على أنها جريمة قتل، لكنها تكفي لإثارة
الشك في ذلك.

ولكن هذا يعني... هذا يعني... ماذا يعني؟ إذا كان الأمر
معقولاً فإنه يعني أن الكولونيل لا تريل لم يطلق النار على السيدة
لا تريل، بل إن اس هو الذي فعل! ولكن هذا يبدو مستحيلاً. لقد
رأيت الأمر كله، كان الكولونيل لا تريل هو الذي أطلق النار ولم
تُطلق أية طلقة أخرى، (إلا إذا... ولكن هذا مستحيل بالطبع.

لا، لعله ليس مستحيلاً بل هو أمر بعيد الاحتمال فقط، ولكنه
جائز. فلنفترض أن شخصاً آخر كان ينتظر هذه اللحظة، وفي الوقت
المناسب وعندما أطلق الكولونيل النار على الأرنب أطلق هذا
الشخص الآخر النار على السيدة لا تريل، عندها سنسمع صوت
طلقة واحدة. حتى مع اختلاف بسيط كانت الطلقة الثانية ستعتبر
صدى صوت الطلقة الأولى. والآن وأنا أعيد التفكير أعتقد أنه كان
هناك صدى بالفعل.

لا، هذه فكرة سخيفة. توجد عدة طرق لتحديد السلاح الذي
انطلقت منه الرصاصة بالضبط، فالعلامة على الرصاصة يجب أن

تطابق علامات أنبوبة البندقية. لكنني تذكرت أن ذلك يحدث فقط
عندما يكون الشرطة بحاجة إلى تحديد السلاح الذي أطلقت منه
الرصاص، ولن يجري تحقيق في الأمر لأن الكولونيل لا تريل
كان متأكداً (مثلما كان الجميع) من أنه هو الذي أطلق تلك الطلقة
المعينة، وسيعترف بهذه الحقيقة ويقبل بها دون أي شك أو سؤال.
الشك الوحيد سيكون حول إطلاق النار إن كان عرضياً أم بنوايا
إجرامية... سؤال لا يمكن حله أبداً.

لهذا فهذه القضية تشبه القضايا الأخرى تماماً، تشبه قضية
العامل ريفز الذي لا يتذكر ولكن يفترض بأنه فعلها، وماغي
ليستفيلد التي جُنت وسلمت نفسها معترفة بجريمة لم ترتكبها. نعم،
هذه القضية تشبه القضايا الأخرى، ولقد عرفت الآن معنى سلوك
بوارو... كان ينتظر مني أن أدرك تلك الحقيقة.



الفصل العاشر

- ١ -

فاتحت بوارو في الموضوع صباح اليوم التالي فأشرق وجهه وهز رأسه بتقدير قائلاً: أحسنت يا هيستنغز، لقد تساءلت متى سترى هذا التشابه ولم أكن أريد توجيه نظرك.

- إذن فأنا على حق، هذه قضية أخرى من قضايا السيد
«س»؟

- بالتأكيد.

- ولكن لماذا يا بوارو؟ ما الدافع؟

هز بوارو رأسه فسأله: ألا تعلم؟ أليست لديك أية فكرة؟

فقال بوارو ببطء: بلى، لدي فكرة.

- هل أدركت الصلة بين جميع تلك القضايا المختلفة؟

- أظن ذلك.

- حسناً، ماذا...؟

ولم أستطع ضبط نفسي فقال: لا يا هيستنغز.

- ولكن يجب أن أعرف.

- من الأفضل أن لا تعرف.

- ولماذا؟

- يجب أن تصدقني عندما أقول ذلك.

- كم أنت عنيد! يُقعدك التهاب المفاصل وتجلس هنا لا حول

لك ولا قوة، ولا تزال تحاول اللعب وحدك.

- لا تُفنع نفسك بأنني أحاول اللعب وحدي. بالعكس،

أنت في الصورة يا هيستنغز، أنت عياني وأذناي، وأنا فقط أرفض

إعطائك معلومات قد تكون خطيرة.

- خطيرة بالنسبة لي؟

- بل بالنسبة للقاتل.

قلت ببطء: لا تريده أن يشك أنك في أعقابه؟ أظن أن هذا هو

الوضع، وإلا فأنت تظن أنني عاجز عن الاعتناء بنفسني.

- يجب أن تعلم شيئاً واحداً على الأقل يا هيستنغز: الرجل

الذي يقتل مرة سوف يقتل مرة أخرى وأخرى وأخرى وأخرى...

قلت بنجهم: على أية حال لم تقع جريمة أخرى هذه المرة،

فهذه الطلقة لم تُصِب الهدف.

- نعم، كان هذا من حسن الحظ حتماً، من حسن الحظ بالتأكيد. وكما أخبرتك فهذه الأمور يصعب التنبؤ بها.

ثم تنهد وغطى وجهه تعبيراً قلبي، فانصرفت بهدوء وقد أدركت بحزن عدم استطاعة بوارو تحمّل أيّ جهد. كان عقله لا يزال قوياً ولكنه أصبح رجلاً مريضاً متعباً.

لقد حذرني بوارو من محاولة اختراق شخصية الرجل المجهول، ولكنني داخل عقلي كنت لا أزال أتعلق باعتقادي بأنني اخترقت هذه الشخصية. لقد كان هناك شخص واحد خطر ببالي ويقوم في استايلز، هو الشر بحد ذاته، وبسؤال بسيط أستطيع التأكد من أمر واحد. ستكون النتيجة سلباً، لكن على الرغم من ذلك فسوف تكون للمحاولة فائدة محدودة.



أمسكت بجوديث بعد الفطور وقلت لها: أين كنت مساء أمس عندما التقينت أنت والميجور ألبرتون؟

المشكلة أنك عندما تكون مستغرماً في نقطة معينة فأنت تميل إلى تجاهل النقاط الأخرى، وقد فوجئت عندما صاحبت جوديث بي قائلة: حقاً يا أبي لا أدري ما دخلك في هذا!

حدقت إليها وقد أخذت بردها، وقلت: أنا أسأل فقط.

- ولكن لماذا؟ لماذا يجب أن تسأل الأسئلة باستمرار؟ ماذا كنتُ أفعل، أين ذهبتُ، مع من كنتُ... هذا لا يُحتمل!

المضحك في الأمر أنني في هذه المرة لم يكن يهمني أين كانت جوديث بقدر ما كان يهمني أن أعرف أين كان ألبرتون. حاولت تهدئتها فقلت: حقاً يا جوديث أنا لا أدري لماذا لا أستطيع أن أسالك سؤالاً بسيطاً.

- وأنا لا أدري لماذا تريد أن تعرف.

- لا أريد بالتحديد، أعني أنني أتعجب فقط. لماذا لم يعرف أي منكما ماذا حدث؟

- أتعني بالنسبة للحادث؟ لقد ذهبت إلى القرية - إذا كان لا بد أن تعرف - للحصول على بعض الطوابع.

وركزت على الضمير الشخصي فسألتها: هل كان ألبرتون معك آنذاك؟

زفرت جوديث بغضب وقالت: لا، لم يكن.

ثم أضافت بنبرة غضب بارد: في الحقيقة التقينا قرب المنزل قبل أن نلتقك بدقيقتين فقط. أرجو أن تكون قد ارتحت الآن، ولكنني أريد أن أقول لك إنني إذا أمضيت اليوم كله مع الميجور ألبرتون فهذا من شأني. أنا أبلغ الحادية والعشرين وأعمل وأكسب عيشي، وكيفية قضاء وقتي هو شأني أنا وحدي بالتأكيد.

قلت محاولاً صدّ الهجوم: بالتأكيد.

فبدت جوديث هادئة وهي تقول: يسعدني أن وافقت.

ومنحتني شبه ابتسامة حزينة وأكملت: أبي العزيز، لا تحاول

أن تبالغ في دور الأب الرزين. أنت لا تعلم كم هذا مثير للغضب،
لو أنك فقط لا تقلق هكذا!

فوعدها قائلاً: لن أفعل هذا في المستقبل.

وفي تلك اللحظة أتى فرانكلين بمشي بسرعة وقال: مرحباً
يا جوديث، هيا بنا، لقد تأخرنا أكثر من اللازم.

كان سلوكه جافاً ولم يكن لطيفاً أبداً، وشعرت بالانزعاج
رغمًا عني. أعلم أن فرانكلين هو رب عمل جوديث وأنه يتحكم في
وقتها، وبما أنه يدفع ثمنه فله الحق في إعطاء الأوامر، لكنني لم أر
ما يمنعه من التصرف بلباقة على الرغم من ذلك. لن يستطيع أحد
أن يصف تصرفه بأنه معقول ومهذب، فهو يتصرف مع معظم الناس
بقدر من الأدب الاعتيادي، أما مع جوديث، ولا سيما مؤخراً، فقد
كان سلوكه دائماً جافاً واستبدادياً بشكل كبير، فهو بالكاد ينظر إليها
عندما يتحدث ويكتفي بإعطاء الأوامر فقط.

لم يبدو على جوديث أنها مستاءة من ذلك، ولكنني كنت أشعر
بالاستياء بالنيابة عنها. وقد خطر ببالي أن هذا كان من سوء الحظ،
خصوصاً وأنه يتعارض بصورة واضحة مع اهتمام أليرتون المبالغ
به بها. بلا شك كان فرانكلين أحسن من أليرتون بعشر مرات، أما
بالنسبة للوسامة فلا يمكن مقارنته به.

راقبت فرانكلين وهو يمشي عبر الممر إلى المعمل مشيته
الخرقاء بينته النجيلة وعظامه البارزة وشعره الأحمر. كان رجل
بشعاً صعب المراس ليست له ميزات واضحة، إنه يتمتع بعقل جيد
حقاً، ولكن نادراً ما تُعجب المرأة بالعقل وحده. وفكرت بأسى

بأن جوديث لم تعرف أنواع الرجال من قبل بسبب ظروف عملها، ولذلك أسرها سحر أليرتون الكاذب ولم تمنح الفرصة لابنتي المسكينة لتقييمه ومعرفته على حقيقته.

كان الاستياء الذي أبدته علامة مزعجة؛ فأليرتون شخص سيئ حقاً كما أعلم، وربما كان الأمر أسوأ إذا كان أليرتون هو قاتلنا المجهول. ربما كان كذلك، فهو لم يكن مع جوديث وقت إطلاق النار. ولكن ما هو دافعه لارتكاب هذه الجرائم بلا معنى؟ كنت واثقاً من أن أليرتون ليس بالرجل المجنون. إنه عاقل ولكنه مجرد من المبادئ كلياً، وجوديث ابنتي تقابله كثيراً.

-٢-

حتى ذلك الوقت وبالرغم من أنني كنت قلقاً على ابنتي قليلاً فإن اهتمامي كان موجهاً نحو السيد «س» واحتمال حدوث جريمة في أي لحظة، ونجحت في إبعاد مشكلاتي الشخصية قليلاً.

والآن وقد وقعت الضربة وحاول أحدهم ارتكاب جريمة، وقد فشلت والحمد لله، فقد أصبحت حراً للتفكير في هذه الأمور، وكلما فكرت بالأمر ازددت قلقاً. لقد كشفت لي كلمة سقطت سهواً في أحد الأيام أن أليرتون كان متزوجاً، وقد أخبرني بويد كارنغتون (الذي كان يعرف الكثير عن الجميع) بالمزيد. كانت زوجة أليرتون كاثوليكية ملتزمة، وقد تركته بعد فترة قصيرة من زواجها، لكن الطلاق لم يمكن ممكناً بسبب مذهبها. وقال بويد كارنغتون بصراحة: وإذا سألتني فهذا يناسب ذلك الفاسد جيداً. لقد كانت

نواياه سيئة دائماً ويناسبه وجود زوجة في خلفيته الاجتماعية.

مرت الأيام التي نلت حادثة إطلاق النار دون ظهور أي أحداث على السطح، ولكن صاحبها شعوراً متزايد بعدم الارتياح من جانبي. وأمضى الكولونيل لانترييل الكثير من وقته في غرفة زوجته، ووصلت ممرضة للعناية بالمريضة وعادت الممرضة كارفن تستأنف تقديم خدماتها للسيدة فرانكلين.

لا أريد أن أكون مشاكساً، ولكن يجب أن أعترف بأنني لاحظت بعض إشارات انزعاج من جانب السيدة فرانكلين لعدم كونها المريض الوحيد، وبدا واضحاً أن الاهتمام والقلق اللذين تركّزا على السيدة لانترييل لم يحققا الرضا للسيدة الصغيرة التي اعتادت أن تكون صحتها محور الحديث يومياً.

استلقت في كرسيها الهزاز ويداها على جانبها، تنذر من سرعة نبضات قلبها ولا يناسبها أي نوع من الأغذية التي تُقدّم لها، وكل معاناتها محاطة بمظهر مخادع من الصبر الكاذب. همست لبوارو بحزن: كم أكره إحداث الجلبة، كم أشعر بالخجل من صحتي البائسة! إنه لأمر مُخز أن أضطرّ دائماً إلى طلب المساعدة من الناس. أحياناً أظن أن المرض جريمة في الحقيقة... إذا لم يكن المرء سليماً فهو لا يناسب هذا العالم ويجب أن يُدفن بهدوء.

قال بوارو بود وشهامة كعادته: لا يا سيدتي، تحتاج الزهرة الرقيقة إلى بيت زجاجي لحمايتها لأنها لا تستطيع تحمّل الرياح الباردة. إنها تلك الأعشاب العادية التي تعيش في الجو البارد، ولكن لا يُنظر إليها بتقدير لهذا السبب. انظري إلى حالتي: أنا مُقعّد وعاجز

عن الحركة، ولكنني لا أفكر بتترك هذه الحياة بل أستمتع بما أقدر،
الطعام والشراب ومباهج العقل.

تهتدت السيدة فرانكلين وهمست: لكن الأمر مختلف بالنسبة
لك؛ فليس لديك مَنْ ترعاه سوى نفسك، أما في حالتي فيوجد
المسكين جون. أنا أشعر بشدة بأثني عبء على عاتقه، مجرد زوجة
مريضة لا فائدة منها، صخرة معلقة بعنقه.

- أنا متأكد من أنه لم يقل ذلك عنك قط.

- نعم، هو لم يقل ذلك، لكن الرجال شفافون جداً يا عزيزي
بوارو، وجون ليس ماهراً في إخفاء مشاعره. إنه لا يقصد أن يكون
قاسياً بالطبع ولكنه رجل بليد الأحاسيس والمشاعر، وبما أنه لا
يمتلك المشاعر فإنه يفترض أن غيره لا يمتلكها. إنه لمحظوظ لأنه
وُلد عديم الإحساس.

- لا يمكنني وصف الدكتور فرانكلين بأنه عديم الإحساس.

- لا يمكنك ذلك، ولكنك لا تعرفه كما أعرفه أنا. بالطبع
أعلم أنه سيكون طليقاً دوني. أحياناً أشعر بالاكئاب الشديد بحيث
أفكر كم سيكون مريحاً أن ينتهي كل هذا.

قال بوارو: على رسلك يا سيدتي!

لكنها تابعت قائلة: ما تفعلين لأبي إنسان؟ الخروج من ذلك كله
إلى المجهول.

وهزت رأسها وأضافت: وعندها سيكون جون حراً.

* * *

عندما أعدتُ ما حدث على مسامع الممرضة كارفن قالت:
هراء، إنها لن تفعل شيئاً من هذا القبيل. لا تقلق يا كابتن هيستنز؛
أولئك الذين يتحدثون عن الانتحار بصوت مسموع لا ينوون فعل
أي شيء أبداً.

ويجب أن أقول إنه وما إن زالت الإثارة التي سببها إصابة
السيدة لانريل وعادت الممرضة كارفن لتكون في الخدمة حتى
تحسنت معنويات السيدة فرانكلين كثيراً.

وفي صباح أحد الأيام المشرقة ساق كيرنس بوارو إلى زاوية
تحت أشجار الدراق قرب المختبر. كانت تلك بقعته المفضلة حيث
كانت محمية من الرياح الشرقية، وفي الواقع فأنت بالكاد تشعر بأي
نسمة هناك، وكان هذا يناسب بوارو الذي يكره مجرى الهواء ويشكو
دائماً من الهواء النقي. وفي الواقع أظن أنه يفضل البقاء داخلًا،
ولكنه تعود احتمال الهواء الخارجي إذا تم لفة بالأغطية جيداً.

مشيت لكي أنضم إليه، وما إن وصلت إليه حتى كانت السيدة
فرانكلين قد خرجت من المختبر. كانت مرتدية ثيابها بشكل جذاب
وبدت مرحة جداً، وأوضحت أنها ستذهب مع بويد كارنغتون لرؤية
منزله ولتعطيه نصائحها الخبيرة في اختيار الأقمشة، وشرحت لنا
قائلة: لقد نسيْتُ حقيبتِي في المختبر بالأمس عندما كنت أتحدث
مع جون. يا للمسكين جون! لقد ذهب هو وجوديث إلى تادكاستر
لإحضار بعض الكواشف الكيميائية أو أشياء من هذا القبيل.

غرقت في مقعدها بالقرب من بوارو وهزت رأسها بتعبير
مضحك قائلة: يا لعزيزي المسكين! كم أنا سعيدة لأنني لا أملك

عقلاً علمياً، ففي يوم لطيف مثل هذا يبدو ذلك كله صيانتاً.

قال بوارو: لا تدعي العلماء يسمعونك وأنت تقولين ذلك
يا سيدتي.

- بالطبع لن أفعل.

ثم تغيّر وجهها فأصبح جاداً وقالت بهدوء: لا تظن أنني غير
معجبة بزوجي يا سيد بوارو، بل أنا معجبة به وأظن أن طريقته في
تكريس حياته لعمله أمر رائع في الحقيقة.

بدا في صوتها ارتعاش بسيط، وشككتُ في أن السيدة
فرانكلين تحب أن تلعب أدواراً عدة؛ فهي تلعب في هذه اللحظة
دور الزوجة المخلصة التي تمجد زوجها البطل. واتكأت إلى الأمام
واضعة كفها على ركة بوارو وهي تقول: جون يباليغ في إنكار ذاته
في الحقيقة، وهذا الأمر يخيفني أحياناً.

أحسست أن في قولها مبالغة، لكنها تابعت وعيناها تشعان:
فرانكلين مستعد لفعل أي شيء، إنه يصنع أي شيء ليزيد من قدر
المعرفة البشرية! وهذا أمر جميل، ألا تظن ذلك؟

قال بوارو بسرعة: بالتأكيد، بالتأكيد يا سيدتي.

وتابعت السيدة فرانكلين: ولكنني أحس بالغضب تجاهه
أحياناً، أعني بسبب المدى الذي يذهب إليه. هذه المادة المريرة
التي يُجري تجاربه عليها... أخشى أن يبدأ التجربة بها على نفسه
ذات يوم.

فقلت: سوف يأخذ كافة الاحتياطات بالتأكيد.

هزت رأسها بابتسامة حزينة وقالت: أنت لا تعرف جون، هل سمعت قط عمًا فعل بهذا الغاز الجديد؟

هزرت رأسي نفيًا فقالت موضحة: كان ذلك نوعاً جديداً من الغاز أرادوا التعرف إلى خواصه فتطوع جون لاختباره، فأغلق عليه في خزان لمدة ست وثلاثين ساعة تقريباً حيث تم قياس نبضه وحرارته وتنفسه. كانت مخاطرة مخيفة كما أخبرني أحد الأسانذة لاحقاً؛ فقد كان من المحتمل أن يموت! ولكن جون من ذلك النوع من الرجال الذي يتناسى سلامته دائماً. أظن أنه من الرائع أن يكون المرء هكذا، ألا نظن ذلك؟ لا أظن أنني سأكون شجاعة بما فيه الكفاية.

قال يوارو: في الواقع إنها لشجاعة نادرة أن يصنع المرء مثل هذه الأمور بأعصاب باردة.

فقالت باربرا فرانكلين: نعم، هو كذلك، وأنا فخورة جداً به كما تعلم. ولكن هذا يجعلني أشعر بالغضب في الوقت نفسه، فحيوانات التجارب لا تصلح بعد مرحلة معينة حيث تصبح الحاجة ملحة إلى رد فعل إنساني، ولذلك أشعر بالخوف من أن يقوم جون بإعطاء نفسه جرعة من تلك الحبوب فيحدث له أمر سيئ.

في تلك اللحظة قدم بويد كارنغتون نحونا قائلاً: مرحباً بابس، هل أنت مستعدة؟

- نعم يا بيل، وأنا في انتظارك.

الفصل الحادي عشر

أظن أن ذلك كان في صباح اليوم التالي قبل الغداء عندما جرت المحادثة التي تركتني قلقاً بشكل غامض. كنا أربعة: جوديث وأنا وبويد كارنغتون ونورتون. لا أدري كيف بدأ الموضوع بالضبط، ولكننا كنا نتحدث في موضوع «القتل رافة بالمريض» ونذكر ما له وما عليه، وكالعادة قام بويد كارنغتون بمعظم الحديث في حين قال نورتون كلمة هنا وكلمة هناك وجوديث تجلس بصمت ولكن بانتباه.

اعترفت بأنه رغم وجود كافة الأسباب لتأييد هذا العمل ظاهرياً إلا أنني أشعر بالنفور منه في الحقيقة، وبالإضافة إلى ذلك فأنا أظنه يعطي المزيد من القوة لأقارب المريض. وأيضاً نورتون وأضاف أنه يظن أن من الواجب أخذ موافقة المريض نفسه قبل الإقدام على هذا العمل عندما يكون الموت مؤكداً بعد معاناة طويلة الأمد. وقال بويد كارنغتون: ولكن هذا هو الأمر الغريب، هل يتمنى الشخص صاحب الشأن أن يقتل نفسه ليضع حداً لآلامه كما تقول؟!

وروي لنا قصة (قال إنها حقيقية) عن رجل يعاني من ألم فظيع جزاء مرضه بالسرطان الذي لا يمكن استئصاله، وقد توسل ذلك الرجل إلى طبيبه أن يعطيه شيئاً يُنتهي ذلك كله، لكن الطبيب قال له:

- لا أعتقد ذلك، فالتاس يخشون تحمل المسؤولية. يمكنهم تحمل مسؤولية كلب فلماذا لا يتحملون مسؤولية إنسان؟

- هذا مختلف، أليس كذلك؟

- بلى، بل هو أكثر أهمية.

غمغم نورتون: أنت تخيفيني.

وسألها بويد كارنغتون بفضول: إذن فأنت على استعداد لتحمل المخاطر، أليس كذلك؟

- أظن ذلك، أنا لا أخشى المخاطرة.

هز بويد كارنغتون رأسه وقال: هذا لا يصلح كما تعلمين؛ لا يمكن السماح للناس هنا وهناك وفي كل مكان بأن يقرروا في أمور الحياة والموت.

قال نورتون: في الحقيقة فإن معظم الناس لا يملكون الجرأة لتحمل المسؤولية كما تعلم يا بويد كارنغتون.

وابتسم بلطف وهو ينظر إلى جوديث وأكمل: لا أظن أنه بإمكانك فعل ذلك إذا وضعت على المحك.

قالت جوديث باتزان: بالطبع لا يمكن للمرء التأكد من ذلك، لكن أظن أنني سأكون قادرة على فعل هذا الأمر.

فقال نورتون وقد اهتزت عيناه قليلاً: ربما استطعت لو كنت طرفاً في حالة مشابهة.

"لا أستطيع عمل ذلك أيها العجوز". وعندما كان الطبيب مغادراً ترك بالقرب من المريض بعض حبوب المورفين وأخبره كم عدد الحبات التي يمكنه تناولها بأمان وكم هي الجرعة التي ستكون خطيرة. وعلى الرغم من أن تلك الحبوب تُركت بين يدي المريض وأنه كان بإمكانه أخذ الكمية الفائضة بسهولة إلا أنه لم يفعل، وهذا يثبت أنه قد فضل المعاناة على الموت السريع الرحيم بالرغم من كلماته.

وللمرة الأولى تكلمت جوديث فجأة وبقوة فائلة: بالطبع سوف يتصرف هكذا؛ لم يكن من الواجب أن يُترك الأمر له ليقرر.

سألها بويد كارنغتون عما عنته بذلك فقالت: أعني أن أي شخص ضعيف بسبب المرض والألم لا يملك القوة لاتخاذ قرار. ليس بإمكانهم ذلك، بل يجب أن يتخذ شخص ما القرار نيابة عنهم، هذا من واجب الشخص الذي يحبهم.

سألته بسرعة: واجب؟

فقالت وكأنها نهاجمني: نعم، واجب. تلك مسؤولية الشخص ذي العقل السليم الواضح.

هز بويد كارنغتون رأسه قائلاً: لينتهي به الأمر في السجن متهماً بالقتل؟

- ليس بالضرورة. وعلى أي حال إن أنت أحببت شخصاً ما فسوف تجازف بالأمر.

قال نورتون: لحظة واحدة يا جوديث، إن ما نقترحينه مسؤولية كبيرة.

احمرّ وجه جوديث وقالت بحدة: هذا يثبت أنك لا تفهم الأمر أبداً. إذا كان لديّ دافع شخصي فلن أستطيع عمل شيء، ألا ترى؟

ثم توجهت إلينا جميعاً وأكملت: يجب أن يكون الأمر غير شخصي. يمكنك أن تتحمل مسؤولية إنهاء الحياة إذا كنت متأكداً من دوافعك، يجب أن يكون الأمر غير اناني.

قال نورتون: بغض النظر فلن نفعل ذلك.

فقالت بإصرار: بل أستطيع، فأولاً أنا لا أعتبر الحياة بالأهمية التي ترونها جميعاً، فالحياة السقيمة وغير المفيدة يجب إزالتها من الطريق. فقط أولئك الذين يُسهّمون في خدمة المجتمع هم الذين يجب أن يُسمح لهم بالحياة، أما الآخرون فيجب إزالتهم بطريقة غير مؤلمة.

ثم نظرت إلى بويد كارنغتون فجأة وقالت: أنت تتفق معي، أليس كذلك؟

فقال ببطء: من ناحية المبدأ أوافقك؛ فلا ينبغي أن يعيش سوى الأشخاص النافعين.

- ألن تأخذ القانون بيدك وتطبقه إذا اقتضى الأمر؟

قال بويد كارنغتون ببطء: ربما صنعت ذلك، لا أدري.

وقال نورتون ببطء: كثير من الناس يوافقون معك نظرياً لكن التطبيق أمر مختلف، فهذا غير منطقي.

ثم تابع وقد نفذ صبره: بالطبع ليس منطقياً، تلك في الحقيقة مسألة شجاعة. دعيني أصفها لك بصراحة: لا يملك المرء الجرأة على هذا.

صمتت جوديث وتابع نورتون قائلاً: في الواقع يا جوديث وكما تعلمين: لن يكون الوضع مختلفاً بالنسبة لك، لا نملكين الشجاعة عندما توضعين في تجربة حقيقية.

- هل ترى ذلك؟

- أنا متأكد من ذلك.

قال بويد كارنغتون: أظن أنك مخطئ يا نورتون، أظن أن جوديث تمتلك شجاعة هائلة، ولحسن الحظ فالمسألة غير واردة الآن.

وسمعنا صوت جرس الطعام آتياً من المنزل، فهضمت جوديث وقالت بوضوح لنورتون: أنت مخطئ؛ فانا أملك من الجرأة أكثر مما تظن.

ومضت بسرعة نحو المنزل فلحق بها بويد كارنغتون قائلاً: انتظري يا جوديث.

تبعثهم وأنا أشعر بالقلق لسبب ما، ولأن نورتون شعر بمزاجي فقد حاول مواساتي فقال: جوديث لا تعني ذلك كما تعلم، هذه مجرد أفكار غير مدروسة يمتلكها الفرد في شبابه، ولكن لا ينبغي هذا لحسن الحظ ويبقى الأمر مجرد كلام.

أظن أن جوديث سمعتنا لأنها ومقتنا بنظرة غاضبة من فوق
كتفها، فخفض نورتون صوته وقال: النظريات لا تُغلق أي شخص،
ولكن...

ماذا؟

بدا نورتون محرّجاً وقال: لا أريد التدخل، ولكن ماذا تعرف
عن أليرون؟

- أليرون؟

- نعم، عذراً إذ كنت فضولياً لكن لو كنتُ مكانك لما سمحت
لابتي بأن تراه كثيراً. إنه... حسناً، ليست سمعته حسنة.

فقلت بمرارة: أنا أعرف نوعه تماماً، ولكن الأمر ليس سهلاً
هذه الأيام.

- آه، أعلم، تستطيع الفتيات الاعناء بأنفسهن كما يقلن،
ومعظمهن يمكنهن ذلك أيضاً، ولكن... حسناً، أليرون يمتلك
أسلوباً خاصاً في هذا المجال.

وتردد قليلاً ثم قال: أشعر بأنه يجب عليّ أن أخبرك. لا تسمح
للأمر بالتطور بالطبع، ولكنني أعرف شيئاً سيئاً عنه.

وأخبرني فوراً، واستطعت التأكد لاحقاً من كل كلمة قالها.
كانت رواية تثير الاشمئزاز؛ قصة فتاة عصرية واثقة من نفسها
ومستقلة استعمل أليرون كافة أساليبه للإيقاع بها، ولاحقاً أتى
الجانب الآخر من الصورة، وانتهت القصة بأن قضت الفتاة البانسة

على حياتها بتناول جرعة مضاعفة من حبوب الفيرونال المنومة. كان
الجزء المخيف أن الفتاة المقصودة كانت من نفس نوعية جوديث،
النوع المستقل المثقف، ذلك النوع من الفتيات اللاتي يجيبن - إذا
أحببن - بحماسة لا تعرفها الفتيات من النوع السخيف الخليع.

وذهبتُ إلى الغداء براودني إحساس فظيع بأن مصيبة ستحدث.

* * *

الفصل الثاني عشر

-1-

سألني بوارو ذلك المساء: أ يوجد ما يقلقك يا صديقي؟

ولم أجه بل اكتفيت بهز رأسي، وشعرت بأنني لا أملك الحق في إرهاب بوارو بمشكلتي الشخصية المحضة، وعلى أية حال لم يكن باستطاعته مساعدتي؛ كانت جوديث ستقابل أي اعتراض من جانبها بابتسامة تعكس تحيز الشباب ضدّ تصائح الكبار العملة.

من الصعب الآن أن أصف ما مررت به ذلك اليوم، ولكن بعدما فكرت في الأمر لاحقاً وجدت نفسي مضطراً إلى إعادة السبب إلى جوّ «ستايلز» نفسه، حيث تسيطر الأفكار الشريرة على العقل بسهولة. لم يكن ذلك بسبب الماضي فقط، بل والحاضر الفاسد أيضاً... ظلال المجرم والجريمة تلاحق هذا المنزل! وباعتقادي فإن القاتل هو ألبرتون، وقد وقعت جوديث في شباكه. كان ذلك أمراً يصعب تصديقه، أمراً رهيباً، ولم أدر ماذا أفعل!

* * *

بعد الغداء أخذني بويد كارتوتون جانباً، وقد تردّد وتلعثم في كلامه قبل أن يدخل في الموضوع، وأخيراً قال بنشج: لا تظن أنني أتدخل، ولكن أظن أنه يجب عليك التحدث. هل حذرت ابتك؟ أنت تعرف هذا الشخص أليرون، إن سمعته سيئة جداً، وهي... حسناً، يبدو ذلك شيئاً بقصة سمعتها...

من السهل بالنسبة لهؤلاء الرجال الذين ليس لديهم أولاد التحدث هكذا. أحذرها؟ هل سيفيد تحذيري أم أنه سوف يزيد الأمور سوءاً؟

لو أن زوجتي كانت هنا لعرفت كيف تتصرف! وأردت أن ألزم الصمت وأن لا أتفوه بشيء، لكنني فكرت بعد فترة بأن هذا نوع من الجبن والنهرب، ونفرت من فكرة بغیضة هي التحدث حديثاً صريحاً مع جوديث؛ لقد كنت خائفاً من ابنتي الجميلة!

أخذت أذرع الحديقة جيئة وذهاباً وفي كل مرة يزداد قلقي، وقادنتي قدماي إلى حديقة الأزهار حيث خرج الأمر من يدي، فقد كانت جوديث تجلس وحدها على المقعد، ولم أر من قبل في حياتي كلها مثل هذا الحزن العميق على وجه أية امرأة!

سقط القناع وظهرت مكانه الحيرة والتعاسة بوضوح، فاستجمعت شجاعتي وذهبت إليها، ولم تسمعني إلا عندما صرت إلى جانبها. قلت لها: جوديث، بالله عليك لا تقلقي هكذا.

التفتت نحوي وقد فوجئت وقالت: أبي، لم أسمع صوت اقترابك!

تابعْتُ وأنا أعلم مبلغ الخطر فيما أقول: آه يا طفلي العزيزة! لا تظني أنني لا أعرف أو أنني لا أرى. إنه لا يستحق ذلك، صديقتي، لا يستحق ذلك.

التفت وجهها العيس نحوي ثم قالت بهدوء: أعتقد حقاً أنك تدرك عمّ تتحدث؟

- أنا أعلم، أنت تهتمين بذلك الرجل، ولكن هذا لن يفيد يا عزيزتي.

ابتسمت ابتسامة حزينة تحطّم القلب ثم قالت: لعلي أعرف هذا كما تعرفه أنت.

- أنت لا تعلمين، آه يا جوديث! ماذا سنستفيد من ذلك كله؟ إنه رجل متزوج ولا مستقبل أمامك معه، بل الحزن والخجل، وسيتهي الأمر كله بأن تكرهي نفسك وتحترقها.

اتسعت ابتسامتها وازدادت أسي وهي تقول: أنت تتكلمم بطلاقة، أليس كذلك؟

- فلتتسبه يا جوديث، تخلي عن الأمر كله.

- لا.

- هذا الرجل لا يستحق ذلك يا عزيزتي.

قالت بهدوء وبطء: إنه يعني كل شيء في العالم بالنسبة لي.

- لا، لا يا جوديث، أرجوك!

ثم توقفت فجأة عن حديثه فشككت فوراً في الأمر، ومددت يدي طالباً المنظار وقلت: دعني أنظر.

فأخذ نورتون يعبث بمنظاره ثم قال بصوت غريب متردد: أنا... لقد أخطأت، لقد طار. كان طائراً عادياً في الحقيقة.

كان وجهه شاحباً مضطرباً وتجنب النظر إلينا وبدأ متضامناً، وحتى الآن فأنا لا أظن بأنني كنت غير منطقي في استنتاجي بأنه قد شاهد شيئاً بمنظاره وأنه كان مصراً على منعي من مشاهدته. ومهما كان ذلك الذي شاهده فقد أدهشه بشدة، وقد بدا ذلك واضحاً لكلينا.

كان منظاره موجهاً نحو شريط بعيد من الغابة، فماذا رأى هناك؟

قلت بحزم: "هات المنظار"، وخطفتُه منه. وأتذكر أنه قد حاول منعي من أخذه، ولكنه فعل ذلك بشكل أخرق فأخذته بجفاء، فقال نورتون بضعف: لم يكن ذلك حقاً، أعني أن الطائر قد اختفى، أنهى...

وبينما كانت يداي ترتجفان قليلاً عدلت المنظار ليناسب عيني. كانت عدسته قوية، ووجهته بقدر المستطاع إلى البقعة التي اعتقدت بأن نورتون كان ينظر إليها ولكنني لم أر شيئاً، مجرد ومضة من البياض تختفي بين الأشجار. وأنزلت المنظار، ودون أية كلمة أعدته إلى نورتون.

بدا نورتون قلقاً ومرتبكاً ولم ينظر إلى عيني، ثم عدنا إلى

فاختفت ابتسامتها والثفتت نحوي مثل امرأة حاقدة تريد الانتقام وقالت: كيف تجرؤ؟ كيف تجرؤ على التدخل؟ لن أقبل بهذا. أنت لن تتحدث معي في هذه الموضوع مرة أخرى! هذا الأمر لا يخصك فهذه حياتي الخاصة، سرّي في هذه الحياة.

ثم نهضت ودفعتني جانباً بيد ثابتة قوية ونجاوزتني، وبقيت جامداً أحرق إليها بقلق.

-٢-

مضت ربع ساعة وأنا ما أزال جامداً في موضعي مدهوشاً عاجزاً عن التفكير في خطوتي التالية، وكنت كذلك حينما عثر علي نورتون وإليزابيث كول. ولا بد أنهما لاحظا ما بي من الاضطراب الذهني، ولكنهما كانا لبقين فلم يسيروا ولو بإشارة بسيطة إلى حالتي الذهنية تلك، وبدلاً من ذلك فقد أخذاني معهما للتجول.

كان كلاهما من محبي الطبيعة، وأشارت إليزابيث إلى وردة بوية وأراني نورتون بعض الطيور بواسطة منظاره، وكان حديثهما رقيقاً لطيفاً يدور حول الطيور والأزهار البرية، وعدت شيئاً فشيئاً إلى حالتي الطبيعية ولكنني كنت لا أزال في حالة من الاضطراب الشديد في داخلي. والأكثر من ذلك أنني (وكما يحدث لمعظم الناس) كنت مقتنعاً بأن أي أمر سيحدث سوف يكون مرتبطاً بحالة الارتباك التي أعاني منها.

هتف نورتون ومنظاره على عيني: مرحى، يبدو أن هذا نقار الخشب. في حياتي لم...

المنزل جميعاً، وأذكر أن نورتون بقي صامتاً طول الطريق.

-3-

عاد بويد كارنغتون والسيدة فرانكلين بعد وقت قصير من عودتنا إلى المنزل. كان قد أخذها بسيارته إلى تادكاستر لأنها أرادت التسوق، وقد تسوّقت جيداً - فيما يبدو - لأنها أخرجت العديد من المشتريات من السيارة، وبدت مفعمة بالحياة والنشاط وتحدث وتضحك وقد عادت النظارة إلى وجهتها. أرسلت بويد كارنغتون إلى الأعلى وهو يحمل الحقائق التي تحتوي على البضائع سهلة الكسر، وقد حملت أنا البضائع الأخرى بشهامة.

كان حديثها أكثر سرعة وعصبية من المعتاد، قالت: الجو شديد الحرارة، أليس كذلك؟ أظن أن عاصفة ستهب، أرجو أن يعتدل هذا الطقس قريباً - يقولون - كما تعلم - إن في المياه نقصاً، هذا أسوأ جفاف يحدث منذ سنين.

ثم تابعت وقد التفتت نحو إليزابيث كول: ماذا كنت تفعلين بنفسك؟ أين جون؟ أه، لقد قال إنه يعاني من صداع وأنه سوف يذهب للمشي لكي يرتاح منه. ليس من عادته أن يعاني من الصداع، أظن أنه قلق على نجاربه، يبدو وكأنها لا تسير كما ينبغي... كم أتمنى لو أنه يحدثني عن هذه المواضيع أكثر.

ونوقفت هنيهة ثم تحدثت مخاطبة نورتون: أنت صامت يا سيد نورتون. ما الأمر؟ تبدو خائفاً، أرجو أنك لم ترّ شبح السيدة العجوز أباً كانت؟

جفل نورتون وقال: أنا لم أرّ أيّ شبح، فقط كنت أفكر في أمر ما.

وفي تلك اللحظة دخل كيرتس عبر الباب وهو يدفع بوارو على كرسيه، وتوقف بالكرسي في القاعة تمهيداً لإخراج سيده منه وحمله إلى الأعلى. وتقلّ بوارو ببصره بيننا وبدت عيناه يقظتين فجأة وقال بحدة: ما الأمر؟ هل من مشكلة؟

ولم يجب أيّ منّا للحظة، ثم ضحكت السيدة فرانكلين ضحكة مصطنعة قائلة: بالطبع لا، ماذا يمكن أن يحدث؟ لعل عاصفة زعدية ستثور، هذا كل ما في الأمر. يا إلهي، أنا متعبة جداً. لعلك تفضل بجلب هذه الأغراض إلى الأعلى يا كابتن هيسنغز؟ شكراً جزيلاً.

وتبعته على الدرج ثم عبر الجناح الشرقي حيث كانت غرفتها الأخيرة في ذلك الجناح، وفتحت السيدة فرانكلين الباب وكنت خلفها ويدي ممتلئتان بما اشترته، وتوقفت فجأة عند عتبة الباب. كانت الممرضة كارفن تتفحص يد بويد كارنغتون عند النافذة، فنظر نحونا وضحك بارتباك قائلاً: مرحباً، أنا أحاول معرفة حظي؛ الممرضة كارفن تقرأ الحظ.

- حقاً؟ لم أعرف ذلك.

كان صوت باربرا فرانكلين حاداً، ولم تكن لديّ أية فكرة بأنها كانت متضايقة من الممرضة كارفن. قالت لها: أرجو أن تأخذني هذه الأشياء من فضلك أيها الممرضة، وإذا أمكن أعدّي لي شراب

البيض وزجاجة ماء حارًا. أنا أشعر بالتعب الشديد وسأذهب إلى الفراش بأسرع ما يمكن.

- بالتأكيد يا سيدة فرانكلين.

باشرت الممرضة كارفن عملها دون أن تُظهر أي شيء باستثناء الاهتمام المهني. وقالت السيدة فرانكلين: أرجو أن تذهب يا بيل، أنا نعبة جداً.

وبدا بويد كارنغتون قلقاً جداً وهو يقول: يا إلهي يا بابس! هل أتعبتك كثيراً؟ أنا آسف. كم كنت غيباً وأناثياً! ما كان ينبغي أن أدعك ترهقين نفسك.

فوجهت له السيدة فرانكلين ابتسامة ملائكية عذبة وهي تقول: لا أرغب أن أقول أي شيء، فأنا أكره أن أكون مملة.

وخرجنا من الغرفة خجلين وتركنا المرأتين معاً. قال بويد كارنغتون بندم: كم كنت غيباً! لقد بدت باربرا مشوقة ومرحة بحيث نسيت كل شيء عن وجوب عدم إرهاقها. أرجو أن لا تكون قد أرهقت نفسها كثيراً.

قلت تلقائياً: أعتقد أنها ستكون على ما يرام بعد أن ترتاح وتنام.

نزل هو إلى الطابق السفلي في حين ترددت أنا ثم ذهبت إلى الجناح الآخر حيث توجد غرفتي وغرفة بوارو. كان صديقي الضيفيل ينتظرني، وللمرة الأولى كنت متردداً في الذهاب إليه. كان لدي الكثير مما يشغل بالي وكنت ما زلت أعاني من ذلك الشعور

بالمرض في أعماق معدتي. مشيت عبر الممر ببطء، ومن غرفة البرتون سمعت بعض الأصوات. لم أكن أنوي استراق السمع على الرغم من أنني توقفت تلقائياً للحظة خارج باب غرفته، ثم فجأة فتحت الباب وخرجت ابتي جوديث!

وتجمدت عندما رأني فأسكتها من ذراعها ودفعتها بقوة إلى غرفتي. لقد أصبتُ فجأة بالغضب الشديد فقلت لها: ما معنى دخولك إلى غرفة هذا الشخص؟

نظرت إليّ بشات ولم يظهر عليها الغضب بل البرود التام فقط، ولثوانٍ عدة لم تجب عن سؤالي، فهزتها من ذراعها قائلاً: لن أسمع بذلك، لقد أخبرتك، أنت لا تدرين ماذا تفعلين.

وعندها قالت بصوت منخفض جارح: أظن أن لك عقلاً شكاكاً.

- لا أظن ذلك، هذا هو ما يحب جيلكم اتهام جيلي به. على الأقل لدينا مبادئ. افهمي هذا جيداً يا جوديث، أنا أمنعك بشكل قاطع من أن يكون لك أية صلة بهذا الرجل بعد الآن.

نظرت إليّ بهدوء وقالت: حسناً، إذن فهذا هو الأمر.

- هل تنكرين أنك تحيينه؟

- لا.

- ولكنك لا تعلمين أي نوع من الأشخاص هو، ليس باستطاعتك أن تعرفي ذلك.

ويتعمد ودون أي تهذيب وتسيق لكلامي أعدت على مسامعها
القصة التي سمعتها عن ألبرتون، وعندما انتهيت قلت: أترين الآن
أي إنسان ستين متوحش هو؟

- أؤكد لك أنني لم أظن يوماً أنه قدس.

- ألا يغير هذا شيئاً بالنسبة لك؟ لا يمكن أن تكوني فاسدة إلى
هذا الحد يا جوديث!

- يمكنك تسميتي هكذا إن أردت.

- جوديث، أنتِ لم... أنتِ لا...

لم أستطع التعبير عن أفكاري بالكلمات، وانتزعت يدها من
يدي التي احتجزتها وقالت: والآن اسمع يا أبي، أنا أفعل ما أريد
ولا يمكنك التحكم بي، ولن تنفيذ القسوة. سأصرف في حياتي كما
أشاء ولن تستطيع إيقافني.

وخلال لحظة كانت قد خرجت من الغرفة، ولاحظت أن
رقيبتي كانتا ترتجفان فجلست على أحد المقاعد. كان الأمر أسوأ
مما تصورت بكثير؛ كانت مفتونة به كلياً، ولم أعرف أحداً أستطيع
التوجه إليه سوى أمتها؛ المخلوق الوحيد الذي كانت تستمع إليه.

لكن أمها ماتت والأمر كله يعتمد عليّ. آه، لا أظن أنني
عائيت قط مثلما عائيت في تلك اللحظات القاسية.

-٤-

بعد ذلك نهضت فغسلت وجهي وحلقت ذقني وغيّرت

ملابسي ثم نزلت لتناول العشاء، وتصرفت -على ما أظن- بصورة
طبيعية، ولا يبدو أن أحداً قد لاحظ أي شيء.

لاحظت مرة أو اثنتين أن جوديث رمتي بنظرة فضولية. أظن
أنها كانت محتارة من كيفية استطاعتي التصرف بصورة طبيعية،
ولكنني صممت في فرارة نفسي على تنفيذ خطة ما، وكان كل ما
أحتاج إليه هو الشجاعة والذكاء.

بعد العشاء خرجنا جميعاً نتأمل السماء، وتحذّثنا عن الطقس
وتنبأنا بعاصفة رعدية مطيرة، ولاحظت بطرف عيني أن جوديث
اختفت عن أنظارني عند زاوية المنزل ثم مشى ألبرتون بسرعة في
الاتجاه نفسه. أنهيت ما كنت أقوله لبويد كارنغتون ومشيت أنا نفسي
في ذلك الاتجاه. وحاول نورتون إيقافني فأمسك بذراعي واقترح
عليّ أن نتمشى إلى حديقة الأزهار، لكنني لم أعره انتباهاً، وكان
لا يزال معي عندما انعطفت عند زاوية المنزل.

ولقد كانا هناك. رأيت جوديث ورأيت ألبرتون ينحني نحوها
ورأيت كيف أخذها بين ذراعيه... ثم تباعدا بسرعة، وتقدمت خطوة
إلى الأمام فجذبني نورتون إلى الخلف عبر الزاوية مستخدماً قوته
البدنية وقال: اسمعني، لا يمكنك...

فقاطعته قائلاً بعنف: بل أستطيع، وسأفعل.

- هذا لن يفيد يا صديقي العزيز. أعلم أن الأمر مؤلم ولكن
-في النهاية- لا يمكنك فعل شيء.

لُدت بالصمت، وربما ظن نورتون أن الوضع كذلك ولكنني

وقفت لبرهة في الممر الذي بدا هادئاً جداً وليس فيه أحد؛ فنورتون (الذي تقع غرفته في هذا الجانب) بقي في الطابق السفلي، وكانت إليزابيث كول هناك أيضاً تلعب البريدج، أما كيرنس فلا بد أنه كان يتناول العشاء. كان المكان كله تحت تصرفي.

أطريت نفسي مفكراً أن سنوات عملي مع بوارد لم تُضِعْ هباءً، فقد عرفت ما هي الاحتياطات الواجب اتخاذها تماماً. لن يقابل ألبرتون جوديث في لندن غداً، لن يذهب ألبرتون إلى أي مكان غداً.

كان الأمر في غاية السهولة؛ ذهبت إلى غرفتي والتفتحت علبة الأسبرين، ثم ذهبت إلى غرفة ألبرتون ثم إلى حمامه. كانت الحبوب المنومة في الخزانة... ثمان حبات منها يمكن أن نفي بالفرض. واحدة أو اثنتان هي الجرعة الآمنة، لذلك لا بد أن ثمانياً كمية كبيرة، وألبرتون نفسه قال إن الجرعة السامة ليست عالية. وقرأت النشرة التي كان مكتوباً فيها: «من الخطورة تجاوز الجرعة الموصوفة من قبل الطبيب»، ثم ابتسمت ل نفسي.

لفتت يدي بمتديل حريري وفتحت الزجاجية بحذر؛ يجب أن لا يُعثر على بصماتي. أفرغت الحبات التي كانت في نفس حجم حبوب الأسبرين تقريباً، ووضعت ثمان حبات أسبرين في الزجاجية. ثم ملأتها بالحبوب المنومة مرة أخرى بعدما احتفظت بثمانٍ منها. لقد بدت الزجاجية الآن كما كانت قبل أن آخذ منها الحبوب ولن يلحظ ألبرتون الفرق.

أعرف أكثر منه، ثم تابع: أنا أعلم معنى أن يشعر المرء بالغضب وعدم الفائدة، ولكن كل ما يمكنك فعله هو الاعتراف بالهزيمة. تقبلها يا صديقي.

ولم أعارضه بل تركت له فرصة الكلام، ثم توجهت نحو زاوية المنزل مرة أخرى. كانا قد اختفيا ولكن كانت لدي فكرة واضحة عن مكانهما، فقد كان هناك منزل صيفي غير بعيد تخفيه مجموعة من أشجار الليلك. اتجهت في ذلك الاتجاه، وأظن أن نورتون كان لا يزال معي ولكنني لست واثقاً من ذلك.

ما إن اقتربت حتى سمعت أصواتاً فتوقفت، وكان ذلك الذي سمعته هو صوت ألبرتون وهو يقول: حسناً يا فتاتي العزيزة، لقد تمّت تسوية الأمر فلا تعترضني. ستذهبن إلى المدينة غداً، أما أنا فسأقول إنني سأذهب إلى إيسويش لأقيم مع صديقي لمدة ليلة أو اثنتين، وستبرقين من لندن بأنك لا تستطيعين العودة. من سيعلم بالعشاء الساحر في شقتي؟ أعدك بأنك لن تندمي أبداً.

شعرت بنورتون يجذبني بعيداً، وفجأة التفت بخضوع وكدت أضحك من منظر وجهه القلق، وسمحت له بجري إلى المنزل متظاهراً بالاستسلام لأنني أدركت في تلك اللحظة ما كان يجب علي عمله. قلت له بوضوح: لا تقلق يا صديقي، أنا أرى الآن بأنه لا فائدة. لا يستطيع المرء التحكم في حياة أبنائه، لقد انتهيت من ذلك.

وقد بدا مرتاحاً جداً، ثم أخبرته بعد وقت قصير بأنني سوف أتوجه إلى الفراش مبكراً وتعدّرت بأنني أعاني من صداع بسيط، ولم يشك قط فيما كنت أنوي فعله.

عدت إلى غرفتي حيث كنت أحتفظ بزجاجة من عصير
البرتقال وأخرجت كأسين. لن يرفض البيرون كأساً من العصير في
هذا الجو الحار!

أذنتُ بعض الحبوب في قليل من العصير فوجدت أنها تذوب
بسرعة، وتذوقُت المزيغ بحذر شديد. ربما كان فيه بعض الحرارة
لكن بالكاد يمكن ملاحظتها. أعددت خلطتي؛ سأكون كمن بهم
بالشرب عندما يصعد البيرون، وسوف أعطيه الكأس وأصّب نفسي
كأساً غيرها. سيبدو الأمر طبيعياً وفي غاية السهولة؛ فهو لا يعرف
شعوري نحوه بالطبع... ما لم تكن جوديث قد أخبرته بذلك. فكّرت
في هذا الاحتمال لحظة، ثم قررت أنني في مأمن من هذه الناحية
لأن جوديث لا تخبر أحداً بأي شيء، كما أنه يظن بأنني لا أعلم
عن خلطتها شيئاً.

لم يكن لدي ما أعمله سوى الانتظار. قد ينقضي وقت طويل،
ساعة أو اثنتان، قبل أن يصعد البيرون إلى فراشه؛ فقد كان دائماً من
أولئك الذين ينامون متأخرين. وجلست أنتظر بهدوء.

أفزعتني نقرٌ مفاجئٌ على الباب، ولكنه كان كيرتس الذي
أخبرني أن يوارو يسأل عني. عدتُ إلى الواقع مصعوقاً. يوارو؟ لم
أفكر به ولو مرة واحدة طوال المساء! لا يد أنه يتساءل عما حل بي.
أقلقني ذلك قليلاً لسببين: الأول أنني كنت خجلاً لأنني لم أذهب
إليه، والثاني لأنني لم أرد أن يشك بأن أمراً خاطئاً قد حدث.

تبعث كيرتس عبر الممر، وهتف يوارو عندما رأيته: حسناً،
لقد تحلّيت عتي، لماذا؟

تظاهرت بالثأوب وابتسمت ابتسامة اعتذار وقلت: أنا في غاية
الأسف يا صديقي، ولكنني في الحقيقة أعاني من صداع شديد
بحيث لا أكاد أرى أمامي. أظن أن ذلك سببه الرعد، لقد كنتُ
مشوّس الذهن فنسيت أنني لم أت لآتمنى لك ليلة سعيدة.

وكما كنت أأمل فقد قلّقت يوارو على الفور وعرض عليّ
العلاج، ثم بدأ يعانيني ويؤنّبني. اتهمني بأنني جلست في الهواء
الطلق في مجرى الهواء في ذلك اليوم الذي يُعدّ من أكثر أيام
الصيف حرّاً، ورفضت حبوب الأسيرين بحجة أنني قد أخذت
بعضها بالفعل، ولكنني لم أستطع رفض كوب من الشكولاتة التي
كانت شديدة الحلاوة إلى حد يثير الغثيان، وقد عرضه عليّ يوارو
قائلاً: هذا ينعش العقل كما تعلم.

شربته تجنّباً للمناقشة، ثم تمّنت له ليلة سعيدة وهو لا يزال
ينصحني بكلمات عطوفة قلقة. وعدت إلى غرفتي وأغلقت الباب
وأنا فخور بنفسي، وبعد قليل فتحتة قليلاً بحذر شديد حتى أستطيع
سماع صوت البيرون عندما يأتي، ولكن ذلك لن يكون عتاً
قريب.

جلست أنتظر، وأخذت أفكر في زوجتي المتوفّاة وقلت
أحدت نفسي: أنتِ تفهمين يا عزيزتي، سوف أنقذها.

لقد تركت جوديث في عنايتي ولن أخذلها. وفي هذا الهدوء
والسكون شعرت فجأة بأن زوجتي سندريلا بجاني، وأحسنت
كأنها معي في الغرفة، وجلست أنتظر بتجهم.

* * *

الفصل الثالث عشر

-1-

ثمة شيء ما بخصوص الكتابة عن خيبة الأمل، وهو أنها تحطم احترام المرء لنفسه. فحقيقة الأمر أنني جلست أنتظر ألبير تون، ولكنني غفوت! أظن أن ذلك ليس مفاجئاً في الحقيقة؛ فأنا لم أستطع النوم جيداً في الليلة السابقة وأمضيت النهار كله في الخارج. كنت متعباً وقلماً نتيجة للجهد الذي بذلته لإنجاح ما كنت قد قررت عمله، وفوق ذلك كان ذلك الجو المرعد والقاسي، وربما ساعد في ذلك الجهد الذي بذلته في التركيز على ما كنت أفعل.

على أي حال فما حدث قد حدث. لقد غفوت في مقعدي، وعندما استيقظت كانت العصافير ترفرف في الخارج وقد أشرقت الشمس، وها أنا وقد تشنجت مفاصلي ولا أشعر بالارتياح، فقد نمت في المقعد بملابس المساء، وكنت أحس بطعم شنيع في فمي ورأس يكد يشظرا شعرت بالسخافة وأنا مذهول ومشمتر، وأخيراً شعرت بارتياح عميق.

من قال إن الأيام السوداء سوف تزول إذا عشت إلى الغد؟ كم كان قوله صحيحاً! أنا أرى الآن بوضوح وتعقل. كم كنت مجهداً ومخطئاً! لقد فقدت الإحساس الصحيح حين قررت فعلاً أن أقتل إنساناً آخر. وفي تلك اللحظة وقعت عيناى على كأس الشراب أمامي، وبرجفة خفيفة وقفت وفتحت الستائر ثم قذفت بمحتويات الكأس خارج النافذة. لا بد أنني كنت مجنوناً في الليلة الماضية!

حلقت لحيثي واستحممت وارتديت ملابس، ثم ذهبت إلى يوارو وأنا أشعر بأنني أحسن حالاً. وأنا أعلم أنه يستيقظ مبكراً، فجلست واعترفت بالأمر كله، ويمكنني القول إن عبثاً ثقيلاً قد انزاح عن صدري.

هز يوارو رأسه برفق وقال: يا إلهي، أي فكرة حمقاء تلك التي فكرت بها! أنا سعيد لأنك أتيت واعترفت لي بخطئك، ولكن لماذا لم تأتي إلي مساء أمس لتخبرني بما كنت تفكر به يا صديقي العزيز؟

قلت بخجل: أظن أنني كنت أخشى أن تحاول منعي.

- بالطبع كنت سأمنعك، هذا مؤكد؛ هل تظن أنني أريد رؤيتك مشنوقاً بسبب وغد ستين اسمه ألبرتون؟

- لم يكن من الممكن اكتشافني والقبض عليّ، فقد اتخذت كافة الاحتياطات.

- هذا ما يظنه المجرمون كلهم. أنت تمتلك العقلية المناسبة، ولكن دعني أخبرك بأنك لم تكن ذكياً كما تظن نفسك يا صديقي.

- لقد اتخذت كل الاحتياطات، وقد مسحت بصماتي من فوق الزجاجية.

- بالضبط، ومسحت بصمات ألبرتون أيضاً! وعندما يتم العثور عليه ميثاً فمماذا سيحدث؟ سوف يجرون تشريحاً ليقرروا أنه مات نتيجة جرعة مضاعفة من الحبوب المنومة، فهل أخذها عامداً أم مصادفة؟ حسناً، بصماته ليست على الزجاجية، ولكن لماذا؟ نساء كان حادثاً أو انتحاراً فلا يوجد ما يدعو إلى مسح بصماته. ثم عندما يحللون حبات الدواء الباقية سيجدون أن نصفها تقريباً قد تم استبداله بالأسبرين.

همست بضعف: حسناً، كل شخص تقريباً لديه حبوب أسبرين.

- نعم، ولكن ليس للجميع ابنة يلاحقها ألبرتون بنوايا غير شريفة! كما أنك قد تشاجرت مع ابنتك بسبب هذا الموضوع في اليوم السابق، وسيقسم شخصان هما بويد كارنغتون ونورتون على مشاعرك العدوانية نحو هذا الشخص. لا يا هيسنتغز، لم يكن الأمر ليبدو حسناً، كانت الشكوك ستحوم حولك، ومع مرور الوقت ستكون في حالة من الخوف أو الندم بحيث يمكن لأحد محققي الشرطة الأذكياء أن يقرّر أنك أنت المذنب، كما أن من المحتمل أيضاً أن يكون أحدهم قد رآك وأنت تعبت بالحبوب.

- لا، لا يمكن؛ لم يكن في المكان أحد.

- توجد شرفة خارج النافذة، وربما كان أحدهم يسترق النظر، أو من يعلم؟ ربما كان أحدهم ينظر من ثقب الباب.

- أنت تمتلك ثقباً في عقلك يا بوارو! لا يُمضي الناس وقتهم
ينظرون من ثقب الباب كما تحب أن تظن.

أغلق بوارو عينيه نصف إغلاقاً وقال: لقد كنت شديد الثقة
بالناس دائماً، ولكن دعني أخبرك أن كثيراً من الأمور الغريبة تحدث
بسبب المفاتيح في هذا المنزل. أحب أن أشعر بأن بابي مغلق من
الداخل حتى لو كان كيرتس الطيب في الغرفة الملاصقة، فبعد وصولي
بفترة قصيرة اختفى مفاتيحي فاضطرت إلى صنع مفتاح آخر.

قلت يارتياح ولا يزال عقلي مثقلاً بالمتاعب: على أية حال لم
ينجح الأمر والحمد لله. من الفظيح أن يغضب المرء هكذا.

وخفضت صوتي وأكملت: بوارو، أنت لا تظن أن في العجو
نوعاً من العدوى بسبب تلك الجريمة التي وقعت في الماضي،
أليس كذلك؟

- أنتعني فيروس قتل؟ إنه اقتراح مثير.

قلت بتفكير عميق: لكل منزل جوّه، ولهذا المنزل تاريخ
سئ.

أوماً بوارو قائلاً: أجل، عاش هنا أناس تمتنى معظمهم أن
يموت أحداً ما، هذا صحيح.

- أظن أن ذلك يؤثر عليك بطريقة ما، ولكن أخبرني الآن
يا بوارو: ماذا سأفعل بكل هذا؟ أعني جوديث وأليرون... يجب
إيقافهما بطريقة ما، فماذا تظن أنه يجب عليّ عمله؟

- لا تفعل شيئاً.

- ماذا؟ ولكن...

- صدقتي، لن يزيد الأمر سوءاً إذا لم تتدخل.

- إذن يجب عليّ أن أتحدث مع أليرون بصراحة.

- ما الذي يمكنك قوله أو عمله؟ جوديث تبلغ الحادية
والعشرين من العمر وهي سيدة نفسها.

- ولكن أشعر بأنه يجب عليّ أن أفعل شيئاً.

لكن بوارو قاطعني قائلاً: لا يا هيستنغز، لا تخيل أنك ذكي
جداً أو عتيف جداً أو حتى مخادع جداً لكي تتمكن من فرض
شخصيتك على أي من هذين الشخصين. أليرون معتاد على التعامل
مع الآباء الغاضبين والضعفاء، بل لعله يستمتع بالأمر على أنه نكتة
جيدة، وجوديث ليست بالمخلوق الذي يمكن إرهابه بالصراخ.
أنصحك - إذا كان لي أن أنصحك - بأن تفعل أمراً مختلفاً. لو كنت
مكانك لوثقْتُ بها.

حدقتُ إليه مذهوشاً فأكمل: جوديث رفيقة جداً وقد وُثِّت
تربية حسنة، أنا معجب بها جداً.

قلت بصوت متهدج: أنا معجبٌ بها أيضاً، ولكنني أخاف
عليها.

هزّ بوارو رأسه بقوة مفاجئة وقال: أنا أيضاً خائفٌ عليها،
ولكن ليس مثلك. أنا شديد الخوف وأنا بلا قوة أو تقريباً بلا قوة،
والأيام تمرّ الخطر قريب يا هيستنغز، قريب جداً.

فقال إن ذلك أفضل مما حصل عليه هو، حيث تلقى مكالمة مملّة من المهندس المعماري بشأن بعض المشكلات في البناء، والمتاح المحلي غاضب جداً، كما أنه كان خائفاً من أنه قد أوهق السيدة فرانكلين في اليوم السابق.

أما السيدة فرانكلين فقد كانت تعوّض عن نوبة الصحة الجيدة والمعنويات المرتفعة التي أصابها حديثاً. لقد كانت - كما أخبرتني الممرضة كارفن - تنصرف بطريقة غير معقولة، وقد اضطرت الممرضة أن تتخلّى عن يوم إجازتها الذي كانت قد وُعدت به للذهاب وملاقة بعض الأصدقاء. كانت غاضبة بسبب ذلك بلا شك، فمئذ الصباح الباكر كانت السيدة فرانكلين تطلب كريونات النشادر وزجاجات الماء الساخن وعدة أنواع من الخضار والفواكه، وكانت غير راغبة في أن تغادر الممرضة الغرفة، كما أنها كانت تعاني من آلام عصبية: ألم في القلب وتشجج في قدميها وارتجاف في جسدها... ولا أعلم ماذا أيضاً!

أستطيع القول إنه لا أنا ولا أيّ واحد آخر منا كان ميثالاً إلى الحذر في تلك اللحظة، وقد اعتبرنا جميعاً أن ذلك جزء من توهّم السيدة فرانكلين للمرض، والأمر نفسه ينطبق على الممرضة كارفن والدكتور فرانكلين الذي جيء به من المختبر واستمع إلى شكاوى زوجته، وسألها إن كانت تريد أن يستدعي الطبيب المحلي الذي رفضته السيدة فرانكلين بعنف. وعندها أعطاهما بعض المسكنات وطمأنها بقدر استطاعته، ثم عاد إلى عمله مرة أخرى.

قالت لي الممرضة كارفن: بالطبع هو يعلم أنها تتظاهر.

كنت أعلم مثلما يعلم بوارو بأن المخطر قريب، وكان لديّ سبب أكبر لأعرف ذلك أكثر منه، وذلك بسبب ما سمعته في الليلة السابقة. وعلى الرغم من ذلك فقد أخذت أفكر وأنا في طريقي لتناول الفطور بعبارة بوارو: «لو كنتُ مكانك لوثقتُ بها». ترى ماذا سيحدث الآن؟

وجاء الجواب بطريقة غير متوقّعة، لكنه زوّدي بشعور غريب بالارتياح. فقد بدا أن جوديث قد غيّرت رأيها بشأن الذهاب إلى لندن هذا اليوم، وبدلاً من ذلك فقد خرجت مع فرانكلين إلى المختبر كالمعتاد بعد الفطور مباشرة، وبدا من الواضح أنهما سيواجهان هناك يوماً شاقاً مليئاً بالعمل.

غمزني شعور بالراحة العميقة. كم كنت غيباً ويائساً ليلة أمس! لقد افترضت أن جوديث قد استجابت بالتأكيد لمقترحات أليرتون المخادعة، ولكنني لم أسمعها توافق في الحقيقة، وقد فكّرتُ في ذلك الآن. نعم، لقد كانت أحسن وأصدق بكثير من أن تستسلم، لقد رفضت اللقاء.

وعلمت أن أليرتون تناول فطوره مبكراً ثم ذهبت إلى إيسويش. لقد حافظ على خطته إذن، ولا بد أنه يظن أن جوديث ستذهب إلى لندن حسب الاتفاق. قلت بتجهّم: حسناً، سوف يخيب أمه!

ثم جاء بويد كارنغتون وعلّق بتذمّر بأنني أبودو مرحباً هذا الصباح، فقلت له: نعم، لقد سمعت بعض الأخبار الجيدة.

- أتظنين أنها تعاني من أمر ما؟

- حرارتها طبيعية ونبضها ممتاز. إنها مجرد رغبة في إحداث ضجة إذا سألتني عن رأيي.

كانت كارفن غاضبة وتحدث بصورة حمقاء أكثر من المعتاد، وأكملت: هذه المرأة تتدخل في حياة أي شخص آخر يستمتع بحياته، وتريد أن تغضب زوجها وأن ألقي أنا جميع حاجاتها، وحتى السير ويليام يجب أن يشعر أنه إنسان متوحش لأنه أتعبها بالأمس! إنها من هذه النوعية من الناس.

بدا من الواضح أن الممرضة كارفن اعتبرت مريضتها غير محتملة في ذلك اليوم، وفهمت أن السيدة فرانكلين كانت وقحة في تصرفها معها. لقد كانت من ذلك النوع من النساء الذي لا تحبه الممرضات والخدم، ليس فقط بسبب المتاعب التي تسببها بل بسبب سلوكها أيضاً. وكما قلت لم يأخذ أي منّا نوعها على محمل الجد باستثناء بويد كارنتون الذي بدا بصورة مثيرة للشفقة كالطفل الصغير الذي لقي توبيخاً.

لقد حاولت أكثر من مرة منذ ذلك الوقت أن أعيد فحص أحداث ذلك اليوم محاولاً أن أتذكر أمراً لم أنتبه إليه أو حادثة صغيرة نسبتها، لكي أتذكر بالضبط سلوك كل الأشخاص إن كانوا طبيعيين أم لا. دعوني أسجل بدقة ما أذكره عن كل شخص مرة أخرى: بويد كارنتون بدا قلقاً، بل لعله كان يشعر بالذنب. كان يظن أنه كان ممثلئاً بالحوية والنشاط في اليوم السابق وأنه كان أنانياً عندما لم يفكر في صحة رفيفته الضعيفة، وقد صعد مرة أو مرتين للاطمئنان

على صحة باربرا فرانكلين، واستقبلته الممرضة كارفن التي لم تكن هي نفسها في مزاج حسن قلم تحسن استقباله، ثم ذهب إلى القرية فاشترى للسيدة فرانكلين علبة من الشكلاتة، لكن الممرضة أعادتها إليه لأن السيدة فرانكلين لا تستطيع احتمال الحلوى. وبِحزن فتح الصندوق في غرفة التدخين وأخذنا أنا ونورتون وهو كذلك نأكل بلا تردد.

أظن أن أمراً ما كان يشغل بال نورتون في ذلك الصباح، فقد بدا شارد الذهن وقطب حاجبيه أكثر من مرة كما لو كان متحيراً بشأن أمر ما. وكان مغزماً بتلك الحلوى فنناول كمية كبيرة منها دون أن يشعر.

تغير الجو في الخارج وبدأ المطر يهطل منذ الساعة العاشرة، لكن الجو لم يصبح كثيباً كما هو شأنه في الأيام الممطرة، وقد كان ذلك مدعاة لارتياحنا جميعاً في الواقع. وعند منتصف النهار أحضر كيرتس بورو وأجلسه في غرفة الجلوس، وهنا انضمّت إليه إليزابيث كول وقامت بالعزف له على البيانو. كانت لمسانها لطيفة وعزفت معزوقات لياخ وموزارت اللذين كانا مفضلين لدى صديقي.

وفي نحو الواحدة إلا الربع عاد فرانكلين وجوديث من الحديقة، وبدت جوديث شاحبة وقلقة. كانت صامتة ونظرت حولها بغموض كأنها كانت مستغرقة في حلم ثم استيقظت منه فجأة. وجلس فرانكلين معنا وبدأ هو الآخر منهمكاً متعباً، وبدأ من مظهره أنه كان على حافة الانهيار أيضاً. وقلت - كما أتذكر - إن المطر يثير الارتياح، فقال بسرعة: نعم، توجد أوقات تنكسر فيها الأشياء.

ويطريقة ما بدا لي أنه لم يكن يتحدث عن الجوّ، وكعادته في
حركاته الغريبة ارتطم بالطاولة فوقع نصف الحلوى؛ فجفل واعتذر،
ومن الواضح أنه اعتذر للعبة حين قال: آه، أنا أسف.

كان يجب أن يكون ذلك مضحكاً لكنه لم يكن كذلك،
فانحنى مسرعاً والتقط قطع الحلوى المتناثرة. وسأله نورتون إن كان
قد مر بيوم شاق، فابتسم عندها بحماسة وطفولية وحيوية وقال: لا،
لقد أدركت فجأة بأنني كنت أسير في الاتجاه الخاطئ، فما نحتاج
إليه هو عملية أكثر سهولة. يمكنني سلوك طريق مختصر.

ثم وقف يتأرجح على قدميه قليلاً إلى الأمام وإلى الخلف،
وكانت عيناه حالمتين ولكنّ فيهما تصميماً وهو يقول: نعم، الطريق
المختصر هو أفضل الطرق.

-٣-

إذا كنّا جميعاً عصبيين نسير بلا هدف في ذلك الصباح فقد
جاء وقت العصر لطيفاً على غير توقّع؛ سطعت الشمس وكانت
الحرارة منخفضة ومنعشة، ونزلت السيدة لاتريل وجلست في
الشرقة وهي في حالة ممتازة تمارس سحرها، وكان تصرفها أقل
شراسة من المعتاد بلا نكد أو تسلّط لسان، وقد مازحت زوجها
برفق ومحبة فابتسم في وجهها، وكان من الممتع مشاهدتهما وهما
في علاقة حسنة.

سمح بوارو لكيرتس بأن يأخذه إلى الخارج، وقد كان في

حالة نفسية جيدة. أظن أنه كان يحب أن يرى الزوجين لاتريل وقد
تحسّنت علاقتهما. وقد بدا الكولونيل أصغر عمراً وكان تصرفه أقل
تردداً كما قلّ عبثه بشاربه، بل أشار إلى أنه ستكون هناك لعبة ورق
في ذلك المساء قائلاً: إن دبزي مشافة إلى البريدج.

فقالت السيدة لاتريل: بالتأكيد، أنا كذلك فعلاً.

وأشار نورتون إلى أن ذلك يمكن أن يكون متعباً بالنسبة
لها فقالت: "سألعب جولة واحدة". ثم أضافت وهي تغمز بعينها:
سأنتصرف جيداً ولن أزعج جورج المسكين.

فاحتج زوجها قائلاً: عزيزتي، أنا أعلم أنني لاعب سيئ.

قالت السيدة لاتريل: وماذا في ذلك؟ ألا يعطيني هذا فرصة
لمضايقتك؟

وضحكنا جميعاً فتابعت السيدة لاتريل: آه، أنا أعرف أخطائي
ولكنني كبرت فلم يعد سهلاً عليّ إصلاح نفسي، يجب على جورج
أن يتحملني.

نظر إليها الكولونيل ببلاهة، وأظن أن رؤيتهما وهما في
هذه الحالة الحسنة هو الذي أدى إلى حدوث مناقشة بشأن الزواج
والطلاق في وقت متأخر من ذلك اليوم: هل الرجال والنساء أكثر
سعادة بسبب توفر تسهيلات أكبر للطلاق، أم أن فترة الخصام والبعد
المؤقتة تعود بعد فترة لتتحول إلى العاطفة والصدقة؟

من الغريب أن ترى في بعض الأحيان كيف تخالف آراء

الأشخاص تجاربهم الشخصية. كان زواجي سعيداً ناجحاً فوق التصور، وأنا في جوهرى إنسان تقليدي، ولكن على الرغم من ذلك فقد كنت مع الطلاق لتخفيف الخسائر والبده من جديد إذا ما تأكد فشل الزواج. أما بويد كارنغتون وعلى الرغم من أن زواجه لم يكن سعيداً فقد كان يؤكد بشكل مطلق على روابط الزواج، وكما قال فقد كان يكن كل الاحترام لمؤسسة الزواج لأنها أساس تعمير الأرض.

نورتون غير المرتبط والذي لا يملك أي اهتمام شخصي بهذا الموضوع وافقني في تفكيري، أما فرانكلين المفكر العلمي العصري فقد عارض الطلاق بشدة، وبدا هذا منه غريباً. قال إن على المرء تحمّل مسؤولياته وأكد أن العقد هو العقد، فالمرء يوقع العقد باختياره ويجب عليه الالتزام به، وأي مخالفة لذلك تسبب في حالة من الفوضى. ثم اتكأ على كرسيه وقدماء الطويلتان تضربان بغموض على الطاولة قائلاً وهو يقول: الرجل يختار زوجته، وهي مسؤوليته حتى تموت أو يموت.

عندها قال نورتون بسخرية: وأحياناً يكون الموت رحمة.

ضحكتنا من تعليقه ثم قال بويد كارنغتون: لا يمكنك التحدث أيها الفتى؛ أنت لم تتزوج من قبل.

هزّ نورتون رأسه قائلاً: والآن فات الأوان.

فقال بويد متسائلاً: حقاً؟ هل أنت متأكد من ذلك؟

في تلك اللحظة انضمت إلينا إليزابيث كول التي كانت تجلس مع السيدة فرانكلين. وأتساءل هل تخيلت ذلك أم أن بويد

كارنغتون تنقل بنظرة مأكرة بينها وبين نورتون، وهل كان صحيحاً أن نورتون قد أحمرّ وجهه خجلاً؟ وفكرت في فكرة جديدة فظفرت إلى إليزابيث كول باحثاً. صحيح أنها لا تزال شابة كما أنها لا تزال امرأة جميلة، بل هي في الحقيقة فائنة جداً وباستطاعتها إسعاد أي رجل، وكانت مؤخراً تقضي مع نورتون وقتاً طويلاً في بحثهما عن الأزهار البرية والطيور وقد أصبحتا صديقتين. لا أزال أذكر طريقتها في الحديث عن نورتون وقولها إنه شخص عطوف.

إذا كان ذلك صحيحاً فأنا سعيد من أجلها؛ فمعاناتها وحرمانها في صباها لن يقفأ عقبه في طريق سعادتها، والمأساة التي بعثرت حياتها لم تكن لتحدث من فراغ. وفكرت وأنا أنظر إليها بأنها تبدو أكثر سعادة بالتأكيد. نعم، وأكثر مرحاً مما كانت عليه عندما قدمت إلى «ستايلز». إليزابيث كول ونورتون... نعم، يبدو هذا محتملاً.

وفجأة ودون إنذار راودني شعور مبهم بعدم الارتياح وشعرت بالقلق، ثم يكنّ أمنأ أو مناسباً أن يخطط المرء للسعادة هنا. كان في هواء «ستايلز» شيء ضار خبيث، وقد شعرت به الآن في تلك اللحظة، شعرت فجأة بالعجز والتعب... نعم، والخوف أيضاً!

بعد دقيقة اختفى ذلك الشعور ولم يلحظه أحد على ما أظن، باستثناء بويد كارنغتون الذي قال لي بعد مرور بضعة دقائق: هل أصابك شيء يا هيستنز؟

- لا، لماذا؟

- حسناً، لقد بدا كأنك... لا أستطيع تفسير ذلك.

- إنه مجرد شعور بالخوف.

- هل هو إحساس بالشر؟

- نعم... إن أردت صياغته بهذه الطريقة، شعور بأن أمراً ما سوف يحدث.

قال وهو يراقبني: غريب! لقد شعرت بذلك مرة أو مرتين، هل لديك فكرة عن ماهيته؟

هززت رأسي نفيًا لأنني بالفعل لم يكن لدي خوف من شيء محدد، كانت مجرد موجة من الاكتئاب العميق والخوف.

ثم خرجت جوديث من المنزل وتقدمت نحونا ببطء وقد سقت شفتيها ورفعت رأسها. كان وجهها جميلاً ومظهرها وقوراً، وفكرت كم بدت مختلفة عني وعن أمها.

قال نورتون: إن مظهرك بذكريني بسميتك (تلك التي كان اسمها جوديث في الأسطورة اليونانية) قبل أن تقطع رأس هولوفيرنس!

ابتسمت جوديث وقد رفعت حاجبيها قليلاً وهي تقول: لا أستطيع أن أتذكر الآن، لماذا أرادت فعل ذلك؟

قال نورتون: آه، لقد كان دافعها أخلاقياً محضاً؛ من أجل تحقيق الخير للمجتمع.

كان في لهجته شيء من السخرية أو الاستخفاف أزعج جوديث حتى لقد احمرّ وجهها من الانفعال، وتجاوزته مسرعة لتجلس بجانب فرانكلين وهي تقول: السيدة فرانكلين تشعر بتحسن، وهي تريدنا أن نذهب كلنا ونتناول القهوة معها هذا المساء.

حالة نفسية جيدة. أظن أنه كان يحب أن يرى الزوجين لাত্রيل وقد تحسنت علاقتهما. وقد بدا الكولونيل أصغر عمراً وكان تصرفه أقل تردداً كما قلّ عبثه بشاربه، بل أشار إلى أنه ستكون هناك لعبة ورق في ذلك المساء قائلًا: إن ديزي مشتاقة إلى البريدج.

فقالت السيدة لাত্রيل: بالتأكيد، أنا كذلك فعلاً.

وأشار نورتون إلى أن ذلك يمكن أن يكون متعباً بالنسبة لها فقالت: "سألعب جولة واحدة". ثم أضافت وهي تغمز بعينها: سأتصرف جيداً ولن أزعج جورج المسكين.

فاتحّح زوجها قائلًا: عزيزتي، أنا أعلم أنني لآعب ستي.

قالت السيدة لাত্রيل: وماذا في ذلك؟ ألا يعطيني هذا فرصة لمضايقتك؟

وضحكنا جميعاً فتابعت السيدة لাত্রيل: آه، أنا أعرف أخطائي ولكنني كبرت فلم يعد سهلاً عليّ إصلاح نفسي، يجب على جورج أن يتحملني.

نظر إليها الكولونيل ببلاهة، وأظن أن رؤيتهما وهما في هذه الحالة الحسنة هو الذي أدى إلى حدوث مناقشة بشأن الزواج والطلاق في وقت متأخر من ذلك اليوم: هل الرجال والنساء أكثر سعادة بسبب توفر تسهيلات أكبر للطلاق، أم أن فترة الخصام والبعد المؤقتة تعود بعد فترة لتتحول إلى العاطفة والصدقة؟

من الغريب أن ترى في بعض الأحيان كيف تخالف آراء

حينما كنت أصعد الدرج بعد العشاء في طريقي لزيارة السيدة فرانكلين فكثرت كم هي إنسانة منقلبة المزاج؛ فقد جعلت حياة كل واحد منا غير محتملة طول اليوم، ثم ها هي ذي في قمة اللباقة الآن!

كانت ترندي ثوباً مسائياً أزرق فاتح اللون وقد جلست على كرسيها الطويل وبجانبيها خزانة كتب دوارة صغيرة الحجم ووضعت فوقها أدوات صنع القهوة، وكانت أصابعها الرشيقة البيضاء تقوم بإعداد القهوة بمساعدة بسيطة من الممرضة كارفن. كنا جميعاً هناك باستثناء بوارو الذي اعتاد أن يأوي إلى فراشه قبل العشاء والبرتون الذي لم يعد يعد من إسويش والكولونيل والسيدة لانريل اللذين بقيا في الطابق السفلي.

وعبقت أنوفنا برائحة القهوة، رائحة لذيذة زكية! القهوة في «ستايلز» مجرد سائل داكن اللون يفتقر إلى الطعم، لذلك فقد تطلعنا إلى قهوة السيدة فرانكلين بنشوق. وجلس الدكتور فرانكلين على الجهة الأخرى من المائدة يناول الأكواب التي تملؤها السيدة فرانكلين، ووقف بويد كارنغتون عند زاوية المقعد في حين كانت إليزابيث كول ونورتون قرب النافذة، وتراجعت الممرضة كارفن إلى الخلف عند رأس السرير.

أما أنا فقد جلست على المقعد أتناول مع الكلمات المتقاطعة في جريدة «التايمز»، ومضيت أقرأ وصف اللغز بصوت مرتفع والباقون يحاولون مساعدتي باقتراح الكلمات المناسبة، ثم سمعت

صوت شهيق حاد خلفي فنظرت، كانت تلك هي جوديث، وقد تجاوزتنا إلى النافذة ومنها إلى الشرفة.

بعد ذلك سمعت صوت حركة الملعقة في فنجان باربرا فرانكلين، وانتقلت إلى كلمة جديدة من الكلمات المتقاطعة فقلت: من القائل: «الغيرة وحش أخضر العينين»؟

قال بويد كارنغتون: إنها جملة من إحدى مسرحيات شكسبير.

قالت السيدة فرانكلين: لعلها من أفوال عطيل أو إميليا.

قلت: لا، اللغز مكوّن من خمسة حروف وينتهي بالواو.

وتتالت الاقتراحات:

- إياغو.

- أنا واثق من أنه عطيل.

- لم يكن في مسرحية عطيل أصلاً، لا بد أنها عبارة قالها روميو لجولييت.

الكل كانوا يقترحون، وفجأة صرخت جوديث من الشرفة قائلة: انظروا، هذا شهاب! آه، وهناك آخر!

قال بويد كارنغتون: أين؟ يجب أن نتمنى شيئاً.

وخرج إلى الشرفة وانضم إلى إليزابيث كول ونورتون وجوديث، وخرجت الممثلة كارفن أيضاً ونهض فرانكلين وانضم إليهم. وقفوا هناك بهتفون ويحدقون إلى السماء، وبقيت أنا ورأسى

منحنٍ أحاول حلّ الكلمات المتقاطعة. لماذا أسعى لرؤية شهاب؟ ليس لديّ أمر أتمناه.

وفجأة رجع بويد كارنغتون إلى الغرفة وقال: باربرا، يجب أن تخرجي!

قالت السيدة فرانكلين بحدة: لا أستطيع، أنا متعبة جداً.

قال: 'هراء يا بابس، يجب أن تخرجي وتمنّي'. ثم أكمل ضاحكاً: لا أريد أيّ اعتراض، سوف أسحبك.

وفجأة قفز وسحبها بكلتا ذراعيه، فضحكت واحتجّت قائلة: اتركني يا بيل، لا تكن سخيفاً.

- يجب أن تخرج الفتيات الصغيرات للتمني.

خرجنا كلاهما إلى الشرفة، وانحنيت على الجريدة أكثر؛ فقد تذكرت ليلة استوائية صافية فيها تقيق صفادح وشهب في السماء، وكنت أفق هناك بجانب النافذة ثم استدرت وحملت ستندريلابين ذراعيّ لترى النجم وتمنّي!

وتراقصت أمام عيني خطوط الكلمات المتقاطعة فلم أعد أستطيع رؤيتها بوضوح. ثم انتزع شخص نفسه من الشرفة وقدم إلى الغرفة، كانت جوديث. يجب أن لا تراني جوديث والدموع في عيني، لا أحب ذلك! وبسرعة أدت خزانة الكنب وتظاهرت بأنني أبحث عن كتاب، وتذكرت بأنني رأيت نسخة قديمة من أعمال شكسبير هناك. نعم، ها هي ذي، ثم أخذت أنظر إلى صفحات مسرحية عطيل دون أن أدرك منها أي كلمة.

سألتني جوديث: ماذا تفعل يا أبي؟

تمتعت بشيء حول اللغز، ومضت أصابعي تقلّب الصفحات ثم قلت بصوت مسموع: نعم، كان إياغو: أحذر يا سيدي من الغيرة، فهي وحش أخضر العينين.

ثم عاد الآخرون وهم يضحكون ويثرثرون، وعادت السيدة فرانكلين إلى مكانها القديم على الكرسي الطويل، وجلس الدكتور فرانكلين على مقعده مقابلها وأخذ يقلّب قهوته، وانتهى نورتون وإليزابيث من شرب قهوتهما واستأذنا بالمغادرة لأنهما وعدا بلعب البريدج مع الزوجين لاتريل. وشربت السيدة فرانكلين قهوتها ثم طلبت دواءها، فأحضرتها جوديث لها من الحمام لأن الممرضة كارفن كانت قد خرجت لتوها.

كان الدكتور فرانكلين يتجول حول الغرفة بلا هدف، وتعثر بطاولة صغيرة فقالت زوجته بحدة: لا تكن أحمق يا جون!

- آسف يا باربرا، كنت أفكر في أمر ما.

قالت السيدة فرانكلين بتكلف: أنت دب كبير، أليس كذلك يا عزيزي؟

نظر إليها بشرود ثم قال: هذه ليلة جميلة، وأظن أنني سأخرج لأتمشى قليلاً.

ثم خرج من الغرفة فقالت السيدة فرانكلين: إنه عبقري كما تعلمون، ويمكن الحكم عليه من خلال تصرفاته. أنا معجبة به جداً فهو معزم بعمله تماماً.

وقال بويد كارنغتون بيروود: نعم، إنه شخص ذكي.

ثم غادرت جوديث الغرفة فجأة، وقد كادت تصطدم بالممرضة كارفن عند عتبة الباب. وقال بويد كارنغتون: ما رأيك أن نلعب بوكيه يا بابس؟

- هذا رائع. هل تستطيعين إحضار بعض أوراق اللعب أيتها الممرضة؟

ذهبت الممرضة كارفن لإحضار أوراق اللعب، وتمنيت أنها للسيدة فرانكلين ليلة سعيدة وشكرتها على القهوة. وفي الخارج تجاوزت فرانكلين وجوديث اللذين كانا واقفين ينظران عبر النافذة. لم يكونا يتحدثان بل كانا فقط واقفين متجاورين، وحين اقتربت نظر فرانكلين إلى الوراء فتقدمت خطوتين وترددت ثم قلت: هل تأتين للنتزه يا جوديث؟

هزت ابنتي رأسها نفيًا وقالت: ليس الليلة، سأذهب إلى الفراش. تصبح على خير.

ونزلت الدرج مع فرانكلين الذي كان يصفر لنفسه ويشم بلطف، وكنت أشعر بالاكئاب فقلت معلقاً بعصية: تبدو مسروراً من نفسك الليلة؟

فقال: نعم، لقد فعلت شيئاً أردت فعله منذ وقت طويل، وقد فعلته بشكل مرضٍ جداً.

اقتربت عنه عند نهاية الدرج، وتفقدت لبعض الوقت أولئك الذين يلعبون الورق فغمز لي نورتون عندما كانت السيدة لاتريل

تنظر بعيداً. كانت تلك الجولة تسير بانسجام غير معتاد.

لم يعد أيرتون حتى ذلك الوقت، وبدأ لي أن المنزل أكثر سعادة وأقل انقباضاً في غيابه. وصعدتُ إلى غرفة بوارو فوجدتُ جوديث جالسة عنده، فابتسمتُ لي عندما دخلتُ ولم نتحدث. قال لي بوارو: لقد سامختك يا صديقي!

قلت: حقاً؟ لا أظن ذلك.

نهضت جوديث ولقّت ذراعها حول عنقي وقبلتني، ثم قالت: أي المسكين! لن يجرح العم بوارو كرامتك. أنا التي يجب أن تسامحتني، لذلك سامحتني وتمنّ لي ليلة سعيدة.

ولا أدري لماذا قلت ما قلت، ولكنني قلت: أنا أسف يا جوديث، أنا في غاية الأسف؛ لم أقصد أن...

ولكنها قاطعتني قائلة: لا بأس، نتسّر الأمر. الأمور على ما يرام الآن.

وابتسمت ابتسامة حاملة ثم قالت مرة أخرى: كل شيء على ما يرام الآن.

ثم غادرت الغرفة بهدوء فنظر (أي بوارو وقال لي: حسناً، ما الذي جرى هذا المساء؟

قلت: لم يحدث شيء، وليس من المحتمل أن يحدث شيء.

في الواقع كنتُ بهذه الملاحظة قد تجاوزت الحقيقة لأن أمراً ما وقع في تلك الليلة؛ لقد عانت السيدة فرانكلين بشدة من الألم،

وأرسل في طلب طبيين آخرين ولكن بلا فائدة، فقد ماتت في صباح اليوم التالي.

ولم نعلم إلا بعد مرور أربع وعشرين ساعة أن الوفاة كان سببها التسمم بمادة الفايزوستغمين!

* * *

بعد يومين من وفاة السيدة فرانكلين جرت التحقيقات...
عند الوفاة وقد كانت السيدة فرانكلين في الخامسة والثمانين من العمر...
في حين الحزن من الألم...
كان المحقق رجلاً متوسط العمر...
جاءت نظر إلى الكلب الذي أولاً وقد نظرت إلى حبيب الوفاة...
التسمم بمادة الفايزوستغمين...
ولا بد أنها تناولت السم في الليلة السابقة بين الساعة مساءً...
الليل... وقد رفضت السيدة الشرطة...
كان الدكتور فرانكلين موهباً... وقد أعطى تأشيراً...
حسباً كانت أخته والسيدة وسيمكة...
ومعاقلة في المستشفى... وقد وجد أن إحدى الزخافات التي كانت...
تحتوي على مسحوق... من شبه الفطريات...
كالإبر التي كان يجري عليها تجاربه... لقد كانت المادة العنقودي التي...

الفصل الرابع عشر

- ١ -

بعد يومين من وفاة السيدة فرانكلين جرى التحقيق لتحديد سبب الوفاة، وقد كانت هذه هي المرة الثانية التي أحضر فيها تحقيقاً في هذا الجزء من العالم!

كان المحقق رجلاً متوسط العمر قديراً ذا نظرة ذكية وكلام جاف. نظر إلى الدليل الطبي أولاً، وقد تقرّر أن سبب الوفاة هو التسمم بمادة الفايروستغمين، كما لوحظ وجود شبه قلوبات أخرى. ولا بدّ أنها تناولت السم في الليلة السابقة بين الساعة مساءً ومتصفّفة الليل، وقد رفض رقيب الشرطة وزملاؤه إعطاء وقت أكثر دقة.

كان الدكتور فرانكلين هو الشاهد التالي، وقد أعطى تأثيراً حسناً. كانت أدلته واضحة وبسيطة، فبعد وفاة زوجته قام بفحص محاليله في المختبر، وقد وجد أن إحدى الزجاجات التي كانت تحتوي على محلول مرّكّز من شبه القلوبات المستخلّصة من لوبياء كالابار (التي كان يُجري عليها تجاربه) قد مُلّثت بالماء العادي الذي

احتوى على بعض الآثار من المحتويات الأصلية فقط. ولم يستطع تحديد الوقت الذي حدث فيه هذا لأنه لم يستخدم تلك الزجاجاة منذ بضعة أيام.

ثم نوقشت مسألة الدخول إلى المختبر، ووافق الدكتور فرانكلين على أنه يجري إغلاق المختبر في العادة وأن المفتاح يبقى في حوزته، وأن لدى مساعده الأنة هيستغز مفتاحاً أيضاً، وأي شخص يريد الدخول إلى المختبر لا بد أن يطلب المفتاح منها أو منه. وقد استعارت زوجته المفتاح عدة مرات عندما نسيت بعض أشياءها في المختبر، ولم يجلب هو نفسه أي شيء من محلول الفايوزمستغمين إلى المنزل أو إلى غرفة زوجته، كما أنه يعتقد أن من المستحيل أن تكون قد شربته بطريق الخطأ. وعندما استجوبه المحقق قال إن زوجته كانت عصبية لفترة من الزمن وإن صحتها كانت سيئة، وقال إنها لم تكن مصابة بمرض عضوي لكنها كانت تعاني من الكآبة وتقلب المزاج. وقد بدت مؤخراً مرحة كما قال، واعتبر ذلك تحسناً في صحتها ونفسيتها. لم ينشأجرا وكانا طبيين معاً، وفي الأمسية الأخيرة بدت زوجته بنفسية جيدة وغير مكتئبة. وقال إن زوجته تكلمت عدة مرات عن إنهاء حياتها ولكنه لم يحمل كلامها على محمل الجد. وعندما سئل بالتحديد أجاب بأنه وحسب اعتقاده فإن زوجته لم تكن من النوع الذي يمكن أن يتحرر. كان ذلك رأيه الطبي والشخصي أيضاً.

تبعته في الشهادة الممرضة كارفن، وقد بدت أنيقة بزئها وكانت أجوبتها دقيقة. لقد اعتنت بالسيدة فرانكلين أكثر من شهرين، السيدة فرانكلين التي كانت تعاني من الاكتئاب، وقد سمعتها الشاهدة ثلاث

مرات على الأقل تقول إنها تريد إنهاء كل شيء وتردد أن حياتها عديمة الفائدة وأنها تشعر بأنها كالحجر الذي يتقل عتق زوجها.

سألها المحقق: لماذا قالت ذلك؟ هل كان بينها وبين زوجها خصام؟

- لا، ولكنها كانت تعرف أن زوجها قد مُنح عقداً للعمل في الخارج، وقد رفض ذلك العقد حتى لا يتركها.
- وهل شعرت بالانقباض بسبب ذلك في بعض الأحيان؟
- نعم، كانت تلوم صحتها العليله وكان ذلك يغضبها جداً.
- هل كان الدكتور فرانكلين يعلم ذلك؟
- لا أظنها قالت ذلك أمامه كثيراً.
- لكنها كانت عرضة لنوبات من الكآبة، اليس كذلك؟
- بلى، بالتأكيد.
- هل ذكرت بالتحديد نيتها في الانتحار؟
- أظنها قالت فقط: أريد إنهاء كل شيء.
- ألم تقترح أي وسيلة معينة لإنهاء حياتها؟
- لم تفعل؛ كانت غامضة بعض الشيء.
- هل أدى أي شيء إلى كآبتها مؤخراً؟
- لا، كانت روحها المعنوية عالية نوعاً ما.

- هل توافقين الدكتور فرانكلين على أن روحها المعنوية كانت عالية ليلة موتها؟

ترددت الممرضة كارفن ثم قالت: حسناً، لقد كانت في حالة إثارة. أصابها ألم شديد خلال النهار واشتكت من صداع ودوار، ثم بدت بشكل أفضل في المساء. لكن روحها المعنوية العالية كانت مصطلعة، لقد بدت وكأنها مصابة بالحمى.

- هل رأيت زجاجة أو أي شيء يمكن أن يُستخدم لتخزين السم؟

- لا.

- ماذا أكلت أو شربت؟

- تناولت حساء وقطعة لحم وبازلاء وبطاطا مهروسة وكعكة الكرز، وشربت كأساً من العصير.

- من أين جاء ذلك العصير؟

- من زجاجة كانت في حجرتها، وقد بقي فيها بعض الشراب، وأظن أنها فُحصت ووُجدت خالية من السم.

- هل يُحتمل أن تكون قد وضعت السم في شرابها دون أن تشاهدها؟

- نعم، بكل بساطة. لقد كنت داخلة خارجة من الغرفة أنظف وأرتب الأشياء، ولم أكن أراقبها. كانت بجانبها حقيبة ملفات وحقيبة يدها، ويمكن لها أن ترضع أي شيء في الشراب أو في القهوة لاحقاً

أو في الحليب الساخن الذي كان آخر ما تناولته.

- هل لديك فكرة عمّا يمكن أن تكون قد فعلته بالزجاجة أو الحاوية إذا كان ذلك صحيحاً؟

فكرت الممرضة كارفن لحظة ثم قالت: حسناً، ربما رمتها لاحقاً خارج النافذة أو وضعتها في سلة المهملات أو حتى غسلتها في الحمام وأعادتها إلى خزانة الأدوية. في الخزانة عدد من الزجاجات الفارغة لا أتخلص منها لأنها مفيدة في بعض الأحيان.

- متى كانت آخر مرة رأيت فيها السيدة فرانكلين؟

- في نحو العاشرة والنصف عندما وضعتها في الفراش، وكانت قد تناولت الحليب الساخن وطلبت حبة أسبرين.

- كيف كانت عندئذ؟

فكرت الشاهدة لحظة ثم أجابت: حسناً، كما دنتها... لا، يمكنني القول إنها كانت مثارة قليلاً.

- ألم تكن مكتئبة؟

- بل كانت عصبية، ويمكن أن تؤدي بها حالتها تلك إلى الانتحار إن كانت تفكر في ذلك. يمكن أن يعطيها ذلك شعوراً بالسعادة.

- هل تعتبرها قادرة على الانتحار؟

ران صمت شديداً، وظهرت الممرضة كارفن كأنها تجد

صعوبة في تكوين رأيها، وأخيراً قالت: حسناً، أنا... نعم، بشكل عام. لقد فقدت توازنها.

جاء دور السير بويد كارنغتون للشهادة، وقد ظهر أنه كان حزيناً ولكنه تقدم بشهادته بكل وضوح. لقد لعب البوكيه مع المتوقفة تلك الليلة ولم يلاحظ أي علامة على اكتئابها عندئذ، ولكن خلال محادثة سابقة ذكرت السيدة فرانكلين موضوع الانتحار. لم تكن امرأة أنانية قط، وقد ساء لها جداً أن تكون عقبة في طريق زوجها، وكانت مخلصه جداً لزوجها وطموحاته، وكانت مكتسبة في بعض الأحيان بخصوص صحتها.

ثم استدعيت جوديث، ولكن لم يكن لديها الكثير لتقوله. لا تعرف شيئاً عن سرقة السم من المختبر، وفي ليلة المأساة بدت السيدة فرانكلين طبيعية ولكن ربما كانت عصبية قليلاً. لم تسمع السيدة فرانكلين تحدث عن الانتحار قط.

كان هيركيول بوارو آخر الشهود. أدلى بشهادته بطريقة واثقة وبشكل أثار الإعجاب، ووصف محادثته مع السيدة فرانكلين في اليوم السابق لوفاتها. كانت مكتسبة جداً، وقد ذكرت أكثر من مرة رغبتها في إنهاء كل شيء. كانت قلقة بشأن صحتها واعترفت له بأنها تصيبها نوبات من الحزن الشديد عندما لا تبدو الحياة جذيرة بالعيش، وفي بعض الأحيان قالت إنه سيكون عظيماً لو استطاعت الذهاب إلى النوم ولم تصح بعد ذلك أبداً.

وقد أدى ردّه التالي إلى إثارة أعظم حين ستل: هل كنت تجلس في العاشر من حزيران (يونيو) خارج باب المختبر؟

- نعم.

- هل رأيت السيدة فرانكلين خارجة من المختبر؟

- نعم.

- هل كانت تحمل شيئاً في يدها؟

- كانت يدها تقبض على زجاجة صغيرة.

- هل أنت متأكد من ذلك؟

- نعم.

- هل ظهر عليها الارتباك عندما رأته؟

- بدا أنها فوجئت، هذا كل شيء.

تابع المحقق تلخيصه. يجب أن يقرر المحلفون كيف ماتت الضحية، ولن يكون صعباً تحديد سبب الوفاة فقد أخبرهم الدليل الطبي بذلك، وكل ما عليهم هو أن يقرروا إن كانت قد أخذت السم عمداً أم بطريق الخطأ. لقد سمعوا أن المتوقفة كانت تُصاب بنوبات من الحزن الشديد نتيجة لاعتنال صحتها، وفي حين لم يكن لمرضها سبب عضوي فقد كانت في حالة صحية سيئة، وقد أكد السيد بوارو، الشاهد الذي يحمل اسمه وزناً كبيراً، أنه رأى السيدة فرانكلين خارجة من المختبر ويدها زجاجة صغيرة، وقد فوجئت برؤيته.

يمكنهم أن يستنتجوا أنها أخذت السم من المختبر بيتة الانتحار. لقد كانت تعاني من اعتقادٍ راسخ بأنها حجر عثرة في طريق زوجها وأنها تتعوق تقدمه، ومن العدل للدكتور فرانكلين

القول بأنه كان زوجاً عطوفاً محبباً وأنه لم يشك يوماً من ضعف صحتها أو من كونها عقية في طريق تقدمه، ويبدو أن هذه كانت فكرتها وحدها. النساء في ظروف معينة من الانهيار العصبي تصيبن مثل هذه الأفكار.

لم يُقَم دليل على كيفية أخذ السم، ومن غير الطبيعي أن لا يُعثر على الزجاجة التي احتوت السم، ولكن من المحتمل -كما قالت الممرضة كارفن- أن تكون السيدة فرانكلين قد غسلت الزجاجة ووضعتها في خزانة الحثام من حيث أخذتها أصلاً. وعلى المحلفين أن يقرروا.

تم التوصل إلى الحكم بعد فترة مداولة قصيرة، فقد وجد المحلفون أن السيدة فرانكلين قتلت نفسها في لحظة جنون.

-٢-

بعد نصف ساعة كنت في غرفة بوارو، وقد بدا مرهقاً جداً. وضعه كيرتس في فراشه وكان يحاول مساعدته، وكنت متحرّقة للكلام لكنني انتظرت حتى غادر الخادم الغرفة، ومن ثم اندفعت قائلاً: هل كان ما قلته صحيحاً يا بوارو؟ هل حقاً رأيت زجاجة في يد السيدة فرانكلين عندما خرجت من المعمل؟

لاحظت ابتسامة خفيفة على شفتي بوارو المُزرقّتين وغمغم: هل رأيتها أنت يا صديقي؟

- لا، لم أرها.

- ولكن ربما لم تلاحظ، أليس كذلك؟
- بلى، ربما لم لاحظ. لا أستطيع القطع شخصياً بأنها لم تكن معها.

ونظرتُ إليه بشك وسألته: السؤال الآن هو: هل أخبرتكم بالحقيقة؟

- وهل تعتقد أنني سأكذب يا صديقي؟
- هذا ليس بعيداً عنك.

- هيستنز، أنت تثير دهشتي! أين ثقتك البسيطة؟
اعترفت له بما في نفسي وقلت: حسناً، لا أعتقد أنك ستكذب أمام المحكمة.

فقال بوارو بخيث: لن تُحسب كذبة لأنها لم تكن تحت القسم.

- إذن فقد كذبت؟

لوح بوارو بيده وقال: ما قلته قلته وقضي الأمر يا عزيزي، وليس من الضروري الخوض فيه.

صرخت بحدة: أنا لا أفهمك!

- ما الذي لا تفهمه؟

- دليلك... كل ذلك الكلام عن انتحار السيدة فرانكلين واكتئابها. لقد سمعتها بنفسك تقول ذلك، نعم، ولكن كان ذلك

واحداً من حالاتها النفسية، غير أنك لم توضح ذلك.

- ربما لم أُرِدْ ذلك.

حدقت إليه وقلت: هل أردت أن يكون الحكم موتاً بالانتحار؟

سكت بوراو قليلاً قبل أن يجيب: أعتقد أنك لا تقدّر خطورة الموقف يا هيستنغز. نعم، إذا كنت تريد ذلك: أردت أن يكون الحكم موتاً بالانتحار.

- ولكنك لا تعتقد أنها انتحرت، أليس كذلك؟

هزّ بوراو رأسه نفيّاً ببطء. قلت: أعتقد أنها قُتلت؟

- نعم يا هيستنغز، لقد قُتلت!

- لماذا تحاول تغطية الموضوع إذن؟ لماذا تحاول جعله يبدو وكأنها انتحرت؟ سيوقف ذلك جميع التحريات.

- بالضبط.

- أتريد ذلك؟

- نعم.

- ولكن لماذا؟!!

- أيعقل أنك لا تدرك؟! حسناً، لتتوقف عن الخوض في هذا الأمر على أي حال. يجب أن تثق بقولي إنها كانت جريمة قتل وإن جريمة أخرى ستُتَرَفَّعُ هنا، ولم يكن من الممكن إيقافها لأن المجرم عديم الرحمة ومصمّم على القتل.

ارتعشتُ وقلت: وماذا سيحدث الآن؟

ابتسم بوراو وقال: لقد انتهت القضية؛ أُعْلِيَتِ رقماً ووُضِعَتِ جانباً على أنها قضية انتحار، ولكننا، أنت وأنا، سنستمر بالعمل في الخفاء يا هيستنغز، وعاجلاً أو آجلاً ستقبض على هذا القاتل.

قلت: افترض أن شخصاً آخر قُتِلَ في هذه الأثناء، فماذا ستفعل؟

هزّ بوراو رأسه نفيّاً وقال: لا أعتقد ذلك، إلا إذا كان أحدٌ قد رأى شيئاً أو سمع شيئاً، وهذا غير وارد لأنه لو كان أحد قد رأى شيئاً لذكر ذلك في شهادته.

* * *

الفصل الخامس عشر

-1-

ذاكرتي مشوّشة قليلاً بخصوص أحداث اليوم التالي مباشرة لوفاة السيدة فرانكلين. جرت مراسم الجنازة بالطبع وحضرها جمع غفير من أهالي ستايلز سينت ميري الفضوليين، وفي هذه المناسبة خاطبتني سيدة ذات عينيّن دامتني وأسلوب لا لباقة فيه، وقد بادرتني بالكلام عندما كنتُ نخرج من المقبرة فقالت: أنا أتذكرك يا سيدي، نعم.

- حسناً، من المحتمل أن...

لكنها تابعت دون أن تُصغي لما قلت: مضى أكثر من عشرين عاماً منذ ماتت السيدة العجوز. كانت تلك أول جريمة تحدث في ستايلز، ولن تكون الأخيرة! أعني السيدة العجوز إنغليشورب، وقد قلنا جميعاً إن زوجها هو الذي قتلها.

ونظرت إليّ بخبث وتابعت: من المحتمل أن يكون الزوج أيضاً قد فعلها في هذه المرة أيضاً.

قلت بحذوة: ماذا تعنين؟ ألم تسمعي الحكم الذي أرجع سبب الموت إلى الانتحار.

وخزنتي في جانبي قائلة: كان هذا ما قاله المحقق، لكن من الممكن أن يكون مخطئاً. الأطباء ماهرون بالتخلص من زوجاتهم، ولم تكن مناسبة له على ما يبدو.

التفت إليها بغضب ولكنها تركتني ومشت بعيداً تتمتم لنفسها بأنها لم تقصد شيئاً، قائلة إن ما يشير الاستغراب أن تحدث للمرة الثانية! وللحظة مدهشة فكرت بأنها تهمني بارتكاب الجريمتين! لقد كان ذلك مزعجاً جداً ولكنه جعلني أدرك كم هي غريبة شكوك الناس المحللين! مع ذلك فلم تكن بعيدة عن الحقيقة لأن أحدهم قتل السيدة فرانكلين، وكما قلتُ فانا أتذكر القليل عن تلك الأيام.

كانت صحة بوارو تقلقني جداً، وقد جاء كيرتس إليّ بوجهه الجامد مزعجاً ليخبرني بأن بوارو أصيب بنوبة قلبية خفيفة، ثم قال: يبدو لي أنه بحاجة إلى طبيب يا سيدي.

ذهبتُ بسرعة إلى بوارو الذي رفض الفكرة بشكل قاطع. ولم يكن ذلك من صفاته بل كان دائماً يهتم بصحته فيما أعلم؛ فهو يتحاشى التيارات الهوائية ويلف رقبته بالصوف، وكان يزعج جداً إذا ابتلت قدماه ويقبس درجة حرارته ثم يأوي إلى الفراش عند أول ظاهرة برد محتمل، وكانت فكرتي عنه أنه يستشير الطبيب فوراً في كل حالة مَرَضِيَّة مهما كانت بسيطة.

والآن وهو مريض حقاً يعكس الوضع! فهل يكون مرضه الحقيقي هو السبب في ذلك؟ الأمراض الأخرى كانت عديمة

الأهمية، أما الآن وهو رجل مريض فربما خشي أن يعترف بحقيقة مرضه واستخفَّ به لأنه كان خائفاً منه.

أجاب بوارو على احتجاجاتي بحيوية ومرارة قائلاً: لكنني استشرت الأطباء، ليس واحداً بل عدة، وقد ذهبت إلى طبيين اختصاصيين من كبار الأطباء، وماذا عملاً؟ أرسلاني إلى مصر لتسوء صحتي. وقد ذهبت إلى أخصائي قلب أيضاً.

سألكه بسرعة: وماذا قال؟

رمقني بوارو بنظرة جانبية جعلت قلبي يقفز بعنف، ثم قال بهدوء: لقد عمل ما يستطيعه من أجلي. لديّ علاجي وأدويتي قريبة مني، ولا شيء أكثر من هذا؛ لذلك فإن استدعاء المزيد من الأطباء لن ينفع. الآلة تهزم يا صديقي، ولا يستطيع المرء تركيب آلة جديدة كالسيارة ليبدأ من جديد.

- لكن اسمع يا بوارو، لا بد أن في الأمر شيئاً. إن كيرتس...

قال بوارو بحده: كيرتس!؟

- نعم، لقد جاء إليّ قلقاً وقال إنك أصبت بنوبة قلبية.

أوما بوارو برأسه بلطف وقال: نعم، نعم؛ تحدث بعض الاضطرابات أحياناً، وهي مؤلمة لمن يشاهدها. إن كيرتس غير معتاد على رؤية نوبات القلب.

- أنن تذهب إلى الطبيب؟

- لا فائدة يا صديقي.

في اليوم التالي قال لي بوارو: لقد اقترحت أن أذهب لرؤية الطبيب يا هيستنغز.

قلت بحرارة: نعم، سأشعر بسرور بالغ إن فعلت.

- حسناً، سأوافق، سأرى فرانكلين.

نظرت إليه بشك وقلت: فرانكلين؟!

- اليس طبيياً جيداً؟

- بلى، ولكنه مختص في الأبحاث، ليس كذلك؟

- بلى، بلا شك، ولن ينجح طبيياً عاماً على ما أعتقد؛ فليس لديه ما يسمى «آداب السرير»، لكنه مؤهل. في الحقيقة يجب أن أقول كما يقولون في الأفلام: «إنه يعرف موضوعه أكثر من الآخرين».

لم أقتنع بما قاله، ومع أنني لم أشك في مقدرة فرانكلين إلا أنني اعتقدت دائماً أنه رجل عديم الصبر وغير مهتم بالأمراض البشرية. من الممكن أن يكون هذا موضع إعجاب في مجال الأبحاث ولكنه ليس جيداً لأي مريض يعاينه. على أية حال كان ذلك تنازلاً من جانب بوارو حيث لم يكن له طبيب خاص.

وافق فرانكلين على فحص بوارو ولكنه أوضح أنه إذا كانت هناك حاجة لعناية طبية روتينية فمن الواجب استدعاء الطبيب المحلي، حيث إنه لن يكون قادراً على الاعتناء به شخصياً. وقد

كان يتكلم بهدوء ولكن بطريقة حاسمة، وقد جعلني ذلك أشعر بضيق شديد في صدري مرة أخرى. ابتسم لي بوارو وقال: ستكون هذه آخر قضية لي يا هيستنغز، وستكون الأكثر إثارة أيضاً، وسيكون المجرم الأكثر إثارة لأن السيد «س» يمتلك أسلوباً مميزاً ورائعاً، وهذا يدعو إلى الإعجاب على الرغم من كل شيء. لقد استطاع أن يهزمني حتى الآن بأساليبه التي عمل بها يا عزيزي، أنا هيركيول بوارو! لقد طوّز هجومه بشكل لا أستطيع مناظرته.

قلت مخففاً عنه: لو كانت صحتك جيدة...

وعلى ما بدا فلم يكن ذلك مناسباً قوله؛ فقد ثار غضب هيركيول بوارو وقال: ألم أقل لك سنأ وثلاثين مرة وستأ وثلاثين مرة أخرى إنه ليست بي حاجة إلى العمل الجسدي؟ يحتاج الشخص إلى التفكير فقط.

- حسناً، بالتأكيد، نعم، تستطيع ذلك بشكل مناسب.

- مناسب؟! بل أستطيع ذلك باقتدار. أطرافي مشلولة وقلبي عليل، لكن عقلي يعمل بلا علة من أي نوع يا هيستنغز؛ عقلي ما زال من الصف الممتاز.

قلت محاولاً تهدئته: هذا عظيم.

لكنني فكرت حينما كنت متجهاً إلى الطابق السفلي بأن عقل بوارو لم يكن يستوعب الأشياء بنفس سرعته المعهودة؛ فأولاً نجاة السيدة لاتريل والآن وفاة السيدة فرانكلين، وماذا كنا نعمل حيالهما؟ لا شيء..

أمضى فرانكلين وقتاً طويلاً في فحصه، وكنث في انتظاره عندما خرج في النهاية فسحبته إلى غرفتي وأغلقت الباب ثم سأله بقلق: حسناً، ما الأمر؟

قال فرانكلين بعد تفكير: إن بوارو رجل مميّز.

تجاهلت هذه الحقيقة الواضحة وقلت: آه، نعم، ولكن كيف صحته؟

قال فرانكلين وقد بدا مدهوشاً وكأنني لم أذكر أي شيء مهم: آه، صحته؟ صحته سيئة طبعاً.

لم تكن تلك هي الطريقة المهنية الصحيحة لوصف الحالة حسب اعتقادي، لكنني سمعت من جوديث أن فرانكلين كان من ألمع الطلاب في وقته فنساءلت بقلق: سيئة إلى أي درجة؟

رمانتي بنظرة ثم قال: أتريد أن تعرف؟

- طبعاً.

وماذا كان يظن هذا الغني؟ ثم أخبرني في الحال فقال: معظم الناس لا يريدون أن يعرفوا، يريدون جرعة مخففة، يريدون أملاً، يريدون تأكيدات بأن الأدوية ستشفيهم، وبالطبع قد تحدث معجزة ويشفون ولكن هذا لن يحدث في حالة بوارو.

- هل تعني...؟

ومرة أخرى شعرت بضيق في صدري، وأومأ فرانكلين وقال: بوارو على وشك الموت بالتأكيد، وقريباً جداً كما أظن. لم

يُكن بإمكانني إخبارك لو لم يسمح لي بوارو بذلك.

- إذن فهو يعرف هذا؟

- إنه يعرف تماماً أنّ قلبه يمكن أن يتوقف في أية لحظة. بالطبع لا يستطيع المرء أن يختم الوقت بالتحديد.

توقف لحظة ثم قال ببطء: لقد استتجت مما قاله أنه قلق بخصوص أمر ما، شيء مشغول به كما قال. هل تعرف شيئاً عن ذلك؟

قلت: نعم، أعرف.

رمتني فرانكلين بنظرة اهتمام وقال: إنه يريد إنهاء المهمة.

- حسناً، أنا أدرك ما تعني.

تساءلت في نفسي إن كان جون فرانكلين يعرف المهمة! ثم قال ببطء: أتمنى أن ينال مراده، فهذا يعني الكثير له كما قال.

وتوقف لحظة ثم تابع: إن لديه عقلاً منطقياً.

سألت بقلق: ألا يمكن عمل شيء لعلاجيه؟

هز رأسه نقياً وقال: "لا شيء". لديه الكثير من الكبسولات التي يمكن أن يستخدمها إذا شعر بتوبة قادمة. ثم قال ببطء: بوارو يقدر الحياة البشرية، أليس كذلك؟

كان سؤاله مثيراً للفضول فقلت: بلى، أعتقد ذلك.

لقد سمعت بوارو مرات عديدة يقول إنه لا يوافق على

الجريمة. هذه الجملة البسيطة التي قبلت بعناية لعبت بعواطفى بشدة، في حين تابع فرانكلين: هذا هو الفرق بيننا، فأنا لا أقدّر الحياة البشرية.

نظرت إليه بفضول وقد أمال رأسه باهتمام باهتة ثم قال: صحيح تماماً. إذا كان الموت لا بد أن يأتي فما الفرق بين مجيئه أجلاً أو عاجلاً؟ فرق ضئيل جداً.

سألت بغضب: إذن ما الذي جعلك تدرس الطب إذا كان شعورك هكذا؟!

- عزيزي هبستغز، ليس الطب لإطالة الحياة فقط بل لتحسين نوعيتها أيضاً. إذا مات رجل وهو في صحة جيدة فهذا لا يهم كثيراً، أما إذا مات رجل مُقعد أو عليل فهذا أمر حسن، وإذا كان إعطاء الدواء المناسب سيحوّل مُقعدك إلى فرد معافى بتحسين غدده مثلاً فهذا مهم جداً.

نظرت إليه باهتمام أكثر وما زلت أشعر بأنني لن أستدعي الدكتور فرانكلين إذا أصابني البرد، ولكنني قدّرت كثيراً جديته العميقة وقوته الداخلية. لقد لاحظت تغيراً فيه منذ وفاة زوجته، حيث لم يُبد أي مظاهر حزن مألوفة، بل كان -على العكس من ذلك- مليئاً بالحياة والحيوية، ولم يكن غائب الذهن كالمعتاد.

قال فجأة قاطعاً أفكارى: لا تشابه بينك وبين جوديث، أليس كذلك؟

- بلى، لا أعتقد أننا متشابهان.

- أتشبه أمها؟

فكرت ملياً ثم هزرت رأسي ببطء نفيّاً وقلت: ليس بالضبط؛ فقد كانت زوجتي بشوشة ضاحكة ولم تُكُن تحمل أي شيء على محمل الجدّ، وقد حاولت أن نجعلني مثلها لكنها لم تنجح في ذلك للأسف.

ابتسم بفتور وقال: نعم، أنت أب صارم كما تقول جوديث، اليس كذلك؟ جوديث فتاة جادة لا تضحك كثيراً بسبب كثرة العمل كما أعتقد، وهذا ذنبي.

وبدأ يتكلم عن عمله فقلت بطريقة تقليدية: لا بد أن عملك مثير جداً.

- ماذا؟

- قلت إن عملك لا بد وأن يكون مثيراً.

- فقط لحفنة من الناس، ومملّ جداً للبقية العظمى، وربما كانوا على حق. على أية حال...

ودفع برأسه إلى الوراء وبدأ رجلاً عظيم الهيبة مليئاً بالحيوية وهو يقول: لقد سنحت فرصتي الآن، يا إلهي! أستطيع الصراخ الآن. لقد أخبرني معهد المنستر اليوم بأن الوظيفة لا تزال موجودة، وسأبدأ العمل خلال عشرة أيام.

- هل ستسافر إلى أفريقيا؟

- نعم، يا لها من فرصة عظيمة!

وشعرت بالصدمة قليلاً فقلت: بهذه السرعة؟

حدّق إليّ دهشاً وقال: ماذا تعني بسؤالك؟ آه، لقد فهمتُ.

وانفشت نكشيرته وقال: أنعني بعد موت باربرا؟ لِمَ لا؟ ليس من الملائم التظاهر بأن موتها لم يكن أعظم خلاص لي.

بدا مدهوشاً للتعبير الذي ظهر على وجهي وقال: ليس لديّ الوقت للاعتبارات التقليدية. لقد أحببت باربرا وكانت فتاة جميلة جداً، وتزوجتها ثم لم أجد أحبها بعد سنة من الزواج. لا أعتقد أن حبي لها امتدّ حتى هذه الفترة. لقد كنتُ خيبة أمل لها طبعاً، وقد فكّرتُ بأنها تستطيع التأثير فيّ ولكنها لم تستطع لأنني أناني قاسٍ أعمل ما أريد.

ذكّرتُه قائلاً: ولكنك رفضت هذه الوظيفة في أفريقيا مراعاة لها؟

نعم، لقد كان ذلك من ناحية مادية فقط، فقد تعهدت لباربرا بأن أوفر لها حياة مريحة كالتي اعتادتها، ولو ذهبتُ إلى أفريقيا لما استطعتُ توفير ذلك لها.

ثم ابتسم ابتسامة طفولية صريحة وهو يتابع: لقد تحول الحظ إلى جانبي.

أثار ذلك شعوري بالغبثان. أعتقد أنه يصح القول إن كثيرين من الرجال الذين تموت زوجاتهم لا يشعرون بالحزن فعلاً (والككل تقريباً يعرف هذه الحقيقة)، لكن فرانكلين بالغ في الصراحة.

ورأى التعبير على وجهي ولكن ذلك لم يثبته فقلت بحدة: ألا يقلقك أن زوجتك قتلت نفسها؟

فكر لحظة ثم قال: لا أصدّق أنها قتلت نفسها حقاً، هذا بعيد عن الحقيقة.

- ماذا تظنه قد حدث إذن؟

- لا أدري، ولا أعتقد أنني أريد أن أعرف. أتفهمني؟

حدقتُ إليه فوجدت عينيه قاسيتين باردتين، وقال مرة أخرى: لا أريد أن أعرف، لست مهتماً بأن أعرف. ألا ترى؟

لقد فهمت ما يقصده ولكنه لم يعجبني، لم يعجبني مطلقاً.

- ٣ -

لا أدري بالضبط متى لاحظت أن شيئاً ما يشغل تفكير ستيفن نورتون. كان صامتاً بعد انتهاء جلسة التحقيق وبعد الجنازة حيث كان يسير بجبين مقطب وعينين منكستين، وكان من عادته أن يمرر أصابعه في شعره حتى يتتصبب. لقد كان ذلك مضحكاً ويوحى بنوع من الارتباك.

عندما كلمته أجاب إجابات تنم عن شروده، وقد خطر ببالي أن شيئاً ما لا بد أن يكون قد أفلقه في الفترة الأخيرة. سألته بلطف إن كان قد سمع أخباراً سيئة من أي نوع لكنه أجاب بالنفي، وقد أنهت إجابته هذا الموضوع. ولكن بدا بعد وقت قصير وكأنه يحاول استشارتي في موضوع معيّن مستخدماً اللفّ والدوران بطريقة

سخيفة، وكما كان يتلثم دائماً عندما يريد الكلام في موضوع
جاذٍ فقد بدأ يحكي لي قصة تتركز في نقطة أخلاقية فقال: أتعلم
يا هيستنغز؟ من المفروض أن يكون الكلام عن الصواب والخطأ
سهلاً، ولكنه ليس كذلك في الحقيقة عندما توضع في تجربة عملية.
أعني أن المرء قد يرى -مصادفة- شيئاً معيئاً ليس من المفترض فيه
أن يراه، وهو الشيء نفسه الذي لا تستطيع استخدامه لصالحك،
ومع ذلك فقد يكون مهماً جداً. هل تفهم ما أعني؟

فاعترفت قائلاً: ليس تماماً في الحقيقة.

فقلب نورتون حاجبيه ومرّ بأصابعه في شعره بطريقة جعلت
شعره يقف بطريقة مضحكة وقال: من الصعب جداً تفسير الأمر. ما
أعنيه هو... حسناً، لفترض أنك رأيت شيئاً في رسالة خاصة فُتحت
بطريق الخطأ، الرسالة موجهة لشخص آخر، ولكنك فتحتها بطريق
الخطأ وبدأت تقرؤها لأنك كنت تظن الرسالة موجهة لك قبل أن
تلاحظ أنها ليست لك، هذا يمكن أن يحدث كما تعلم.

- بالطبع يمكن أن يحدث.

- حسناً، ماذا يمكن للشخص أن يفعل؟

فكرت بالمشكلة ثم قلت: حسناً، أظن أن من الواجب أن
تذهب إلى ذلك الشخص وتعذر له لأنك فتحت رسالته بطريق
الخطأ.

تنهد نورتون وقال: ليس الأمر بهذه السهولة؛ من الممكن أن
تكون قد قرأت شيئاً محرراً يا هيستنغز.

- تعني أن ذلك سيحرج الشخص الآخر؟ أظن أنك ستنتظر
بانك لم تقرأ أي شيء. وأنت اكتشفت خطأك قبل فوات الأوان.

قال نورتون بعد دقيقة صمت وقد بدا أنه لم يشعر أنه وصل
إلى حلٍ مقبول: "نعم". ثم قال بلا مبالاة: أتمنى أن أعرف ما يجب
عمله.

قلت: أنا لا أرى أي حل آخر.

قال نورتون وما زال الارتباك بادياً عليه: أترى يا هيستنغز؟
هناك أكثر مما هو ظاهر. افترض أن ما قرأته كان مهماً جداً لشخص
آخر، أعني...

فقدت صبري فقلت بحدة: يا إلهي يا نورتون! لا أفهم ما
تقصده. إنك لا تستطيع الاستمرار في قراءة رسائل الآخرين، أليس
كذلك؟

- بلى، بلى، بالطبع لم أقصد ذلك، ولم تكن رسالة على
أية حال. قلت ذلك فقط لأحاول تفسير شيء آخر مشابه. بالطبع أي
شيء رأيت أو سمعته أو قرأته ستحتفظ به لنفسك، إلا...

- إلا ماذا؟

قال نورتون ببطء: إلا إذا كان شيئاً يجب عليك الكلام بشأنه.
نظرت إليه باهتمام فتابع: اسمعني، افترض أنك رأيت شيئاً
خلال ثقب المفتاح.

الكلام عن ثقب المفتاح جعلني أفكر في بوارو. بدأ نورتون

بالتلثم قائلاً: ما أعنيه أنه إذا كان عندك سبب جيد للنظر من خلال ثقب الباب، مثلاً إذا انحسر المفتاح ونظرت لترى سبب انحساره ولم نظن أبداً أنك ستري ما رأيته.

ولللحظة أو اثنتين فقدتُ خيط جملة المتعثرة لأنني تذكرت فجأةً يوم كنا نتمشى معاً حينما كان نورتون يراقب نقار الخشب بمنظاره، وقد تذكرت مدى انزعاجه وارتبائه ومحاولته منعي من النظر بالمنظار. في تلك اللحظة اعتقدتُ أن ما رآه كان شيئاً يخصني، وأنه في الحقيقة رأى جوديث وأليرتون. لكن لتفرض أنه لم يَرهما بل رأى شيئاً مختلفاً، وأني ظننت أنه أمرٌ يخص جوديث وأليرتون لأنني كنت منشغلاً بالتفكير فيهما في ذلك الوقت ولم أستطع التفكير في أي شيءٍ آخر.

قلت فجأةً: هل كان شيئاً رأيته بمنظارك؟

بدا نورتون وكأن حملاً ثقيلاً قد أزيل عن كاهله وقال: كيف خمنت ذلك يا هيسنغز؟

- كان هذا في ذلك اليوم عندما كنا أنت وأنا وإليزابيث كول نتمشى عند تلك الهضبة، أليس كذلك؟

- بلى، هذا صحيح.

- ولم تكن تريدني أن أرى؟

- نعم، لم تكن... أعني أنه لم يكن من المفترض لأحد أن يرى.

- ماذا رأيت؟

قطب نورتون حاجبیه مجدداً وقال: هذه هي معضلتني. هل
استطيع القول؟ أعني أنه كان... حسناً، لقد كان تجسّساً. رأيت شيئاً
لم يكن من المفترض أن أراه، لقد كان هناك حقاً تقار خشب، ثم
رأيت شيئاً آخر.

وتوقف عن الكلام وقد أثار فضولي بشدة، ومع ذلك احترمت
حيرته وسألته: هل كان شيئاً مهماً؟

حملق ببطء وقال: من الممكن أن يكون مهماً، وتلك هي
المعضلة! لا أدري.

فسألته: هل لهذا الشيء علاقة بموت السيدة فرانكلين؟

فحملق بي وقال: غريب أن تقول ذلك!

- إذن فالأمر كذلك؟

فقال ببطء: لا، لا، ليس بشكل مباشر، ولكن من الممكن
أن يكون كذلك، يمكن لما رأيت أن يلقي ضوءاً مختلفاً على أشياء
محددة، يمكنه أن يعني... يا إلهي! لا أدري ما ينبغي أن أفعل.

كنت في حيرة من أمري والفضول يلتهمني، ومع ذلك شعرت
بأن نورتون متردد جداً في إخباري بما رأى، وقد قدّرت ذلك وكنت
سأشعر بشعوره نفسه لو كنت مكانه. من المكروه أن تكون لديك
معلومات اكتسبتها - حسب اعتقاد الناس - بطرق ملتوية.

خطرت بيالي فكرة فعرضتها على نورتون قائلاً: لماذا لا
تستشير بوارو؟

بدا نورتون متشككاً وهو يقول: بوارو؟
- نعم، أسأله نصيحتة.

قال نورتون ببطء: حسناً، إنها فكرة جيدة. لكنه أجنبي!

وتوقف محرّجاً وقد فهمتُ ما قال. كنت أعرف تماماً تعليق
بوارو الحاذق على مسألة الانغماس في اللعبة، وقد تعجبتُ لماذا لم
بفكر بوارو في استعمال المنظار لمراقبة الطيور! كان سيفعل ذلك
بالتأكيد لو فكر به. شجعت نورتون قائلاً: سيحترم خصوصيتك
واتمناك له، ولا حاجة بك للأخذ بنصيحتة إن لم تُرد.

قال نورتون بعد أن زالت تقطية وجهه: هذا صحيح. أتعلم
يا هيستنغز؟ سأفعل ذلك بالتأكيد.

-٤-

أدهشني رد فعل بوارو على المعلومات التي أخبرته بها حيث
هتف قائلاً: ما هذا الذي تقوله يا هيستنغز؟!

وأسقط قطعة الخبز من يده ودفع برأسه إلى الأمام وأكمل
قائلاً: أخبرني، أخبرني بسرعة.

أعدت عليه القصة فردّ بوارو بعد تفكير: رأى شيئاً ما في ذلك
اليوم بمنظاره، شيئاً لن يخبرك به؟

واندفعت يد بوارو ممسكة بذراعي وقال: ألم يخبر أحداً
بذلك؟

- لا أظنه أخبر أحداً، أنا متأكد من أنه لم يفعل.

- كن حذراً يا هيستنغز؛ من الضروري أن لا يخبر أحداً بذلك.
يجب أن لا يلتمح لأحد بذلك لأن هذا قد يضعه في موقف خطير.

- موقف خطير؟!؟

- نعم، خطير جداً.

كان وجه بوارو وقوراً وهو يتابع قائلاً: رتب معه يا صديقي
لمقابلتي هذا المساء. مجرد زيارة عادية لصديق، ولا تدع أحداً
يشك بأن لهذه الزيارة سبباً آخر. وكن حذراً جداً يا هيستنغز، كن
حذراً جداً. من كان معكم في ذلك الوقت؟

- إليزابيث كول.

- هل لاحظت شيئاً غريباً بخصوص تصرفها؟

حاولت أن أتذكر ثم قلت: لا أدري، ربما لاحظت. هل
أسألها إذا...؟

- لن تقول شيئاً يا هيستنغز، لا شيء مطلقاً.

* * *

الفصل السادس عشر

- ١ -

أخبرت نورتون برسالة بوارو فقال: سأذهب لرؤيته بالتأكيد، لكن أتدري يا هيسنتغر؟ أنا آسف لأنني ذكرتُ الأمر لك.

- أنت بالطبع لم تذكر الأمر لأحد سواي؟

- بالطبع لم أذكره لأحد.

- هل أنت متأكد؟

- طبعاً، لم أذكر أي شيء.

- حسناً، إيتاك أن تفعل، ليس قبل أن ترى بوارو.

لاحظت التردد في نبرة صوته عندما أجاب أول مرة، ولكن كانت نبرة التصميم واضحة في تأكيده الثاني، ولقد تذكرت رده هذا فيما بعد.

- ٢ -

ذهبت مرة أخرى إلى المرتفع العشي حيث كنا ذلك اليوم،

وكان شخص آخر قد سبني إلى المكان، إليزابيث كول. وقد أدارت رأسها حين صعدت العمر وقالت: تبدو منفعلًا يا كابتن هيستنغز، هل من مشكلة؟

حاولت تهدئة نفسي وقلت: "لا، أبدأ، أنا ألهمت لأنني كنت أشفي مسرعًا. ثم أضفت بصوت طبيعي: ستمطر اليوم.

فنظرت إلى السماء وقالت: نعم، أعتقد ذلك.

ووقفنا صامتين لمدة دقيقة أو اثنتين. في هذه المرأة شيء يجعلك تشعر بالشفقة نحوها، ومنذ أبلغتني بهويتها وحدثني عن المصيبة التي حطمت حياتها وأنا أشعر بالشفقة عليها؛ فإن رابطة قوية تربط -عادة- أي شخصين يمران بالظروف العسة نفسها، ولكن أظن أنه كان هناك جانب آخر بالنسبة لها. قلت باندفاع: أنا لست متفعلًا، ولكنني سمعت أخباراً سيئة بخصوص صديقي.

- السيد بوارو؟

جعلني اهتمامها العطف أنخلص من أثنال نفسي وأوضح لها الأمر كله، وعندما انتهيت قالت بنعومة: أنا أقدّر الموقف، ولكنك تعلم أن النهاية ستأتي في وقت ما.

أومأت برأسي عاجزاً عن الكلام، وبعد دقيقة أو اثنتين قلت: وعندما يموت ساكون وحيداً في هذا العالم.

- لا؛ فعندك جوديث وأولادك الآخرون.

- أبنائي مششون حول العالم، أما جوديث فلها عملها ولن نحتاج إلي.

- أوافقك على ذلك؛ لا يحتاج الأبناء أباءهم إلا إذا وقعوا في المتاعب. هذه قاعدة أساسية. أنا وحيدة أكثر منك فأختاي بعيدتان عني، إحداهما في أمريكا والأخرى في إيطاليا.

قلت: يا ابنتي، ما زالت حياتك في بدايتها.

- وأنا في الخامسة والثلاثين؟

قلت: وما الخامسة والثلاثون؟ ليتني كنت في الخامسة والثلاثين!

ثم أضفت بمكر: وأنا لست أعمى كما تعلمين.

رمتني بنظرة متسائلة لحظة، ثم احمّرت وجهها وقالت: لا تذهب بظنونك بعيداً؛ أنا وستيفن نورتون مجرد صديقين، ونحن متشابهان في كثير من الأمور.

- هذا أفضل.

- نورتون شخص طيب جداً.

- عزيزتي، لا تصدقي بأن كل ذلك طيبة، فليس هذا من طبيعتنا نحن الرجال.

شحب وجه إليزابيث كول فجأة وقالت بصوت منخفض قلنق: أنت فاس؛ كيف يمكن أن أفكر أبدأ بالزواج بتاريخي الحافل وأختي مجرمة أو مختلة عقلياً، ولا ادري ما الأضرار التي...؟

قلت بقوة: لا تدعي ذلك ينهش عقلك، وتذكري بأنه قد لا يكون صحيحاً.

فتنهذ ثم قال: أعتقد ذلك، وعلى أي حال فليس لدي مانع من إخبارك بأنني سأكون مسروراً بالرحيل من هنا.

- نعم، فالطعام رديء والخدمة سيئة.

- لم أقصد ذلك، وعلى أي حال فالمكان هنا رخيص ولا يمكن أن تتوقع الكثير من بيوت الضيافة هذه. لا يا هيستنغز، أنا أعني أكثر من الراحة، أنا لا أحب هذا المنزل لأن له تأثيراً ضاراً، فهنا تحدثت أشياء سيئة.

- بالتأكيد تحدثت أشياء هنا.

- لا أدري ما هي. لعل بيتاً ارتكبت فيه جريمة في السابق لن يكون البيت ذاته بعد ذلك أبداً. ولكنني لا أحبه، فأولاً حادثة السيدة لاتريل (ومن سوء الحظ أن يحدث هذا)، وبعد ذلك المسكينة باربرا.

وتوقف قليلاً ثم تابع: يمكنني القول إنها آخر شخص في العالم يمكن أن يفكر بالانتحار.

ترددت قبل أن أقول: لا أعلم إن كنت أوافقك الرأي في هذا، ولكن...

فقاطعتني قائلاً: حسناً، يمكنني قول ذلك. لنستعرض الأحداث معاً: لقد كنتُ معها طوال اليوم السابق، وكانت مرحة واستمتعت بترهنتنا معاً، والشيء الوحيد الذي كان يقلقها هو انغماس زوجها في تجاربه التي قد تنهكه أو احتمال أن يحاول إجراء بعض التجارب على نفسه. أتعلم ما أفكر به يا هيستنغز؟

- ماذا تعني؟! بل هو صحيح.

- ألا تذكرين أنك قلت لي يوماً إنها ليست طبيعة ماغي.

حبست أنفاسها وقالت: من يعرفها يحس بذلك.

- إحساس المرء هو الصحيح عادة.

حملت إلي ثم قالت: ماذا تعني؟

- أعني أن أختك لم تقتل أباه.

ارتفعت يدها إلى فمها تلقائياً واتسعت حدقتها وقد لاح فيها الخوف، ونظرت إلى عيني مباشرة وقالت: أنت مجنون، لا بد أن تكون مجنوناً! من أخبرك بذلك؟

فقلت: لا يهم من أخبرني، ولكنه صحيح، وسأثبت لك ذلك يوماً ما.

-٣-

لقيت بويد كارنغتون قرب المنزل مصادفة فقال لي: هذه ليلتي الأخيرة هنا، وسأغادر غداً.

- إلى «تاتون»؟

- نعم.

- لا بد أن هذا مثيّر لك.

- إن زوجها مسؤول عن وفاتها، فقد كان يضايقها على ما أظن. لقد جعلها تعتقد أنها حجر عثرة في طريق مستقبله فدمرها ذلك. هذا الملعون القاسي لم تهتز له شعرة، وقد أخبرني بكل برود أنه ذاهب إلى أفريقيا. أتعلم يا هيلستنز؟ في الحقيقة لن يدهشني أن يكون هو الذي قتلها.

قلت بحدة: أنت لا تعني ذلك بالتأكيد.

- بالطبع لا أعنيه في الحقيقة، فأنا أعتقد أنه كان سيستخدم طريقة أخرى لو كان هو القاتل. لقد كان معروفاً أنه يجري تجاربه على تلك المادة المستمّاة الفايزوستغمين، ولذلك فمن الواضح أنه لو أراد قتلها لاستعمل طريقة أخرى ولما استخدم هذه المادة، ولكن وبالرغم من كل شيء يا هيلستنز فلست الوحيد الذي يعتقد بأن فرانكلين موضع الشبهات، لقد أخبرني شخص يعرف...

سألته بحدة: من كان ذلك الشخص؟

خفض بويد كارنغتون صوته وأجاب: الممرضة كارفن.

وقد دهشت جداً من جوابه فهتفت: من؟!؟

- اسكت، لا تصرخ. الممرضة كارفن أوحى لي بالفكرة. كارفن فتاة ذكية جداً كما تعلم وقوية الملاحظة، وهي لم تُعجب بفرانكلين، لم تُعجب به قط.

تعجبتُ لما قاله، وكان من المفروض أن أقول إن الشخص

الذي كرهته الممرضة كارفن هو مريضتها. وأدركتُ فجأة أن الممرضة كارفن لا بد أن تعرف الكثير من أسرار عائلة فرانكلين.

قال بويد كارنغتون: ستمكث الليلة هنا.

قلتُ بدهشة: ماذا؟

كنت أعرف أن كارفن قد غادرت بعد الجنازة مباشرة، وقد فسر بويد كارنغتون قوله قائلًا: مجرد ليلة واحدة حتى تنتقل إلى مريضها الجديد.

- آه، نعم.

واكتفتني شعور غامض بعدم السرور لم أدرِ كنهه لعودة الممرضة كارفن، وقد تساءلت إن كان لعودتها سبب، فهي لم تكن معجبة بفرانكلين كما قال بويد كارنغتون. وقلت له محاولاً طمأننة نفسي: ليس من حقها القدر في فرانكلين؛ فبعد كل شيء فإن أدلتها هي التي أدت إلى تقرير أن الوفاة كانت نتيجة للانتحار. هذا بالإضافة إلى شهادة بوارو عن رؤيته السيدة فرانكلين خارجة من المختبر وفي يدها زجاجة صغيرة.

فردّ بويد كارنغتون بحدة: وماذا في حملها زجاجة؟ النساء يحملن زجاجات دائماً، زجاجات عطر وصبغة شعر ودهان أظافر... تلك المرأة المسكينة كانت تتجول حاملّة زجاجة في يدها تلك الليلة، وهذا لا يعني أنها كانت تفكر بالانتحار، أليس كذلك؟ هذا كلام فارغ.

لذتُ بالصمت عندما انضمّ إلينا ألبرتون، وقد رافق صمتي

وبشكل سينمائي قعقة رعد في البعد، واعتقدت (كما فعلت قبلاً) أن دور الشرير يناسب أليوتون جداً. لكنه كان بعيداً عن المنزل ليلة وفاة باربرا فرانكلين، وبالإضافة إلى ذلك لم أر له دافعاً لقتلها، ولكنني فكرت مرة أخرى بأن السيد «س» لا دافع لديه أيضاً. كان ذلك موضع قوته، في حين كان هو، وهو فقط، موضع ضعفنا. ومع ذلك فقد تأتينا ومضة إلهام في أية لحظة تُلقِي الضوء على الأحداث.

-٤-

أعتقد الآن (وأحب أن أسجل هذه الحقيقة هنا) أنني لم أفكر للحظة بأن بوارو يمكن أن يفشل، وفي الصراع بين بوارو والسيد «س» لم يخطر ببالي قط أن «س» سيكون المنتصر. وبالرغم من ضعف صحة بوارو وشبهوخته إلا أنني كنتُ مؤمناً بأنه الأقوى، ولقد اعتدت على نجاحه الدائم.

كان بوارو أول من زرع الشك في عقلي، وكنتُ قد ذهبت لرؤيته في طريقي إلى وجبة العشاء. لا أدري بالضبط ما الذي أدى إلى ذلك، لكنه استعمل فجأة عبارة «إن حدث لي شيء»، فاحتججت حياءً بصوت مرتفع وقلت: لن يحدث شيء، لا يمكن لأي شيء أن يحدث.

- حسناً، إذن فأنت لم تستمع باهتمام لما قاله لك الدكتور فرانكلين؟

- فرانكلين لا يعرف شيئاً، ما زالت أمامك بضع سنين يا بوارو.

- محتتمل يا صديقي، ولكنه غير مؤكد. أنا الآن أتكلم عن الأكثر احتمالاً، فقد أموت قريباً لكن هذا الاحتمال لن يكون كافياً للسيد «س».

- ماذا؟

قلتها وقد لاحت الدهشة على وجهي نتيجة للصدمة، فأوماً بوارو قائلاً: إن «س» ذكي بالرغم من كل شيء يا هيسنغز، ذكي جداً في الحقيقة، ولن يفوته أن التخلص مني حتى قبل موتي الطبيعي بيضعة أيام فقط سيكون ذا فائدة لا تقدر بثمن.

أدهشني كلام بوارو فقلت: لكن ماذا سيحدث بعد ذلك؟

- عندما يسقط القائد فإن نائبه يأخذ مكانه يا عزيزي. ستأخذ أنت مكاني.

- كيف يمكنني ذلك؟! أنا ما زلت لا أعرف شيئاً!

- لقد حسبتُ حساب ذلك. إذا حدث لي أي شيء - يا صديقي - فستجد هنا جميع الأدلة التي نحتاج إليها.

قالها وهو يرتب على حقيبه التي وضعها بجانبه، ثم عاد يكمل: لقد احتطتُ لجميع الاحتمالات كما ترى. ليست بك حاجة لأن تكون ذكياً.

- حسناً، أخبرني الآن بكل شيء تجب معرفته.

- لا يا صديقي، عدم معرفتك بما أعرفه هو مصدر قوة في الحقيقة.

- هل تركت لي وثيقة مفصلة؟

- بالتأكيد لم أفعل، فمن المحتمل أن تقع في يد «س».

- إذن ما الذي تركته؟

- أدلة لن تعني شيئاً للقاتل، ولكنها ستفودك إلى اكتشاف الحقيقة.

- لست متأكداً من ذلك. لماذا يجب أن يكون عقلك ملتويًا بهذا الشكل يا بوارو؟! أنت تحب تعقيد الأمور دائماً! لقد كنت كذلك طول عمرك.

- وأنا شغوف بذلك الآن، أليس هذا ما توذ قوله؟ لكن تأكد أن أدلتي ستفودك إلى الحقيقة.

وتوقف لحظة ثم تابع: وقد تمتنى لو لم تُقدك إلى هذا الحد، وربما تمنيت أن تقول: «أسدِل الستارة».

كان في صوته شيء ما أيقظ داخلي ذلك الشعور بالفزع، الشعور الذي أحسسته عدة مرات من قبل، وبدا كما لو كان شيء ما بعيداً عن مرمى البصر. حقيقة لم أكن أريد معرفتها ولا أستطيع الاعتراف بها، شيء ما أعرفه جيداً في داخل نفسي.

وتخلصت من ذلك الشعور تدريجياً ثم نزلت لتناول طعام العشاء.

* * *

الفصل السابع عشر

- ١ -

كانت وجبة العشاء مرحة إلى حد معقول، وقد كانت السيدة لاتريل في غرفة الجلوس مرة أخرى حيث كانت في قمة مرحها الأيرلندي المصطنع، وكان فرانكلين أكثر حيوية وبشاشة من المعتاد، أما الممرضة كارفن فقد كانت المرة الأولى التي أراها فيها تلبس ثياباً عادية بدلاً من زي الممرضات، وقد بدت امرأة جميلة بحق بعدما طرحت تحفظها المهني جانباً.

اقتُرحت السيدة لاتريل لعبة ورق بعد العشاء. وقد ابتدأ اللعب في النهاية، وفي نحو التاسعة والنصف أعلن نورتون عن نيته زيارة بوارو. قال بويد كارتنتون: فكرة جيدة؛ أشعر بالأسف لأنه لم يكن بصحة جيدة مؤخراً. سأتي معك للاطمئنان عليه.

كان يجب عليّ التصرف بحكمة فقلت: انتظر، أرجو أن لا تمنع ولكن بوارو يتعبه حقاً التحدث لأكثر من شخص في نفس الوقت.

وفهم نورتون مقصدي فقال: لقد وعدته أن أعيره كتاباً عن الطيور.

قال بويد كارنغتون: حسناً، هل ستعود يا هيستنغز؟

- نعم.

وصعدت مع نورتون حيث كان بوارو ينتظرنا، وبعد أن تبادلنا بضع كلمات عدت إلى غرفة الجلوس حيث بدأنا لعب الورق. وأعتقد أن بويد كارنغتون كان ممتعاً من جو المرح الذي ساد «ستابلز» تلك الليلة، فربما فكّر أنه من المبكر أن ينسى الجميع ما حدث. لقد لعب بذهن غائب ونسي في بعض الأوقات ما كان يفعله، وأخيراً اعتذر عن اللعب وذهب إلى النافذة وفتحها. كان يمكن سماع صوت الرعد الآتي من بعيد، وكان من الواضح أن عاصفة في طريقها إلينا ولكنها لم تصل بعد. ثم أعاد إغلاق النافذة ورجع إلينا ووقف يراقب اللعب لدقيقة أو اثنتين، ثم غادر الغرفة.

ذهبت إلى الفراش في نحو الحادية عشرة إلا الربع. ولم أذهب لرؤية بوارو؛ فلعله يكون نائماً. وبالإضافة إلى ذلك فقد شعرت برغبة في عدم التفكير بستايلز ومشكلاته. أردت أن أنام، وأنسى.

كنت على وشك النوم عندما تبهني صوتٌ ظننت أنه طريقة خفيفة على بابي، فناديت: "ادخل". لكنني لم أسمع رداً، فأشعلت الضوء ونظرت إلى الممر فرأيت نورتون يخرج من الحمام متجهاً إلى غرفته. كان يلبس رداء نوم مخططاً ذا ألوان بشعة وكان شعره متصبباً كما هو حاله دائماً. ذهب إلى غرفته وأغلق الباب، وبعد

ذلك مباشرة سمعته يدير المفتاح في قفل الباب.

كانت العاصفة تقترب وكان يمكن سماع صوت رعد خفيف. وعدت إلى الفراش يساورني شعور بالقلق نتج عن سماعي صوت المفتاح يدور في القفل؛ لقد أوحى ذلك - ولو بشكل بسيط - باحتمالات شريرة. لماذا يقلل نورتون باب غرفته في أثناء الليل؟ هل حدّره بوارو وطلب منه أن يفعل ذلك؟ وتذكرت - ببعض القلق - كيف اختفى مفتاح غرفة بوارو بطريقة غامضة.

استلقيت في فراشي وقلقي يزداد، وكان هدير العاصفة يزيد من شعوري بعدم الارتياح. وأخيراً نهضت وأقفلت باب حجرتي وعدت إلى فراشي ونمت.

-٢-

ذهبت لرؤية بوارو قبل نزولي لتناول طعام الفطور فوجدته ما يزال في فراشه، وقد فاجأني منظره العليل مرة أخرى. كانت تجاعيد عميقة بادية على وجهه نتيجة للتعب وكبر السن. قلت: كيف حالك أيها العجوز؟

لاح على وجهه تعبير باسم وقال: ما زلت حياً يا صديقتي، ما زلت حياً.

- دون أي ألم؟

قال: "أنا نَعِبٌ فقط"، ثم تنهد وتابع: تعِبٌ جداً.

أومات قائلاً: حسناً، ماذا حدث في الليلة الماضية؟ هل أخبرك نورتون بما رأى ذلك اليوم؟

- نعم، لقد أخبرني.

- وما الذي رآه؟

نظر إليّ بوارو وقد فكّر طويلاً قبل أن يرد: لست متأكد إن كان من الواجب أن أخبرك، فمن الممكن أن تسيء الفهم.

- ماذا تقول؟!؟

قال بوارو: أخبرني نورتون أنه رأى شخصين.

فصرختُ قائلاً: جوديث وألبرتون؟ لقد ظننتُ ذلك في حينه.

- حسناً، ليس جوديث وألبرتون. ألم أخبرك أنك ستسيء الفهم؟ أنت رجل ذو تفكير محدود.

فقلت: حسناً، أنا أسف، ولكن أخبرني إذن.

- سأخبرك غداً؛ فلدي الكثير للتفكير به.

- هل سيساعد هذا في القضية؟

أوما بوارو برأسه ثم أغلق عينيه واسترخى على مسنده وهو يقول: لقد انتهت القضية، نعم، لقد انتهت. فقط يجب إنهاء بعض الأمور البسيطة. اذهب لتناول فطورك يا صديقي وابعث لي كيرتس.

فعلت ما طلبه مني حين ذهبت إلى الطابق السفلي لتناول طعام

الفطور، وقد أردت رؤية نورتون لأنني شعرت بالفضول لمعرفة ما أخبر به بوارو. كنت أحس بعدم السعادة لاشعورياً، فخلو صوت بوارو من البهجة أزعجني. لماذا كل هذا التكتّم؟ لماذا هذا الشعور بالحزن الذي لا يمكن تفسيره؟ ما حقيقة كل هذا؟

* * *

لم يكن نورتون موجوداً على مائدة الإفطار، وبعد الفطور تمشيت في الحديقة حيث كان الجو منعشاً وبارداً بعد العاصفة، وقد لاحظت أنها أمطرت بغزارة. كان بويد كارنغتون يتمشى على العشب فعدتُ لرؤيته كثيراً وتمنيت لو استطعت أن أضع فيه ثقتي. تمنيت ذلك دائماً، وقد ازداد الإغراء في تلك اللحظة حيث لم يكن بوارو قادراً على الاستمرار.

قال بويد كارنغتون: هل تأخرت في النهوض هذا الصباح؟

أومات إيجاباً ثم قلت: نعمت متأخراً.

- هل سمعت الرعد في الليلة الماضية؟

وتذكرت حينها أنني كنت واعياً في نومي، وقال بويد كارنغتون: لقد أحسستُ بتوعل في الليلة الماضية، أما اليوم فأحس بتحسن.

وتساءل ماذا ذراعيه جانباً فسألته: أين نورتون؟

- لا أظن أن الشيطان الكسول قد استيقظ بعد.

وبشكل تلقائي رفعنا بصرنا إلى الأعلى، وكانت نوافذ غرفة نورتون فوقنا تماماً حيث وقفنا، وحملت بدهشة لأن نوافذ غرفة نورتون كانت الوحيدة المغلقة من بين جميع نوافذ الطابق. قلت بقلق: شيء غريب! أتظن أنهم نسوا إيقافه؟

- غريب فعلاً! أرجو أن لا يكون مريضاً. دعنا نصعد للاطمئنان عليه.

صعدنا إلى الطابق العلوي معاً، وقد كانت منظفة البيت (وهي فناء غيبية المظهر) في الممر، وأجابت على سؤالي قائلة إن السيد نورتون لم يرد عليها عندما قرعت الباب.

طرقتُ الباب مرة أو اثنتين، ولكن لا يبدو أنه قد سمع طرقي، وقد كان بابي مقللاً. سرت في جسدي وعشة لا أعرف سببها، وطرقت الباب بعنف وأنا أنادي قائلاً: نورتون، استيقظ يا نورتون. وأعدتُ النداء مرة أخرى شاعراً بالقلق قائلاً: أفق يا نورتون.

- ٣ -

عندما صار واضحاً أننا لن نحصل على إجابة ذهبنا فوجدنا الكولونيل لاتريل الذي استمع لنا وعلامات القلق بادية في عينيه الزرقاوين اللذابتين، ثم فتل شاربه كعلامة تردد. أما السيدة لاتريل فقد كانت سيدة حازمة تتخذ القرارات دون ضجة حيث قالت: عليكم فتح الباب بأي طريقة، فليس لدينا حل آخر.

وللمرة الثانية في حياتي رأيت باباً يُكسر في ستابلز، وقد

كان خلف هذا الباب المقفل ما كان خلف الباب المقفل في المرة الأولى: موت عنيف!

كان نورتون مُلقى على سريره بردائه المسائي، وقد كان مفتاح الباب في جيبه، وكان في يده مدس صغير يشبه لعبة صغيرة لكننا قادرة على إحداث الضرر، ورأينا ثقباً في منتصف جيبه بالضبط.

لدقيقة أو اثنتين لم أستطع التفكير بما ذكرني به هذا المشهد... شيء قديم جداً، وقد كنت تبعاً لا أستطيع تذكره. وعندما دخلت غرفة بورو ورأى تعبير وجهي قال بسرعة: ما الذي حدث؟ أهو نورتون؟

- لقد مات.

- كيف؟ ومتى؟

أخبرته بإيجاز بما حدث، واختتمتُ كلامي قائلاً: يقولون إنه انتحر. ماذا يمكنهم أن يقولوا غير ذلك؟ لقد كان بابي موصداً والنوافذ مقللة ومفتاح الغرفة في جيبه، كما أنني فعلاً رأيت يدخل الغرفة وسمعتة يقفل الباب.

- هل رأيت حقاً يا هيسنغز؟

- نعم، لقد رأيت في الليلة الماضية.

شرحت له ما رأيت فقال: هل أنت متأكد من أنه كان نورتون؟

- بالطبع، فأنا أستطيع التعرف على ذلك الرداء القبيح أينما

كان.

وللمحظة عاد يوارو إلى طبيعته القديمة فقال: لكي أكون جاداً
فمن المفروض أن تعرف على الرجل وليس على رداثة؛ إذ يمكن
لأي شخص أن يلبس لباساً مشابهاً.

قلت ببطء: هذا صحيح، فانا لم أر وجهه، ولكن كان ذلك
شعره بالتأكيد، وكذلك عرجه.

- أتى شخص يستطيع أن يعرج.

نظرت إليه دهشاً وقلت: أتريد أن تقول -يا يوارو- إن من رأته
لم يكن نورتون؟

- أنا لا أقول أتى شيء من هذا القبيل، ولكنني منزعج من
الأسباب غير العلمية التي تعطيلها لتثبت أنه كان نورتون. لا، لا أقول
إنه لم يكن نورتون، فمن الصعب أن يكون أحداً غيره؛ فجميع
الرجال هنا طوال القامة، أطول منه بكثير، ولا نستطيع أبداً إخفاء
الطول. لقد كان نورتون بطول خمسة أقدام وخمس بوصات تقريباً.
يبدو الأمر وكأنه خدعة سحرية، أليس كذلك؟ يذهب إلى غرفته
ويوصد الباب ثم يضع المفتاح في جيبه، وبعد ذلك يُعثر عليه
مقتولاً بالرصاص والمسدس في يده وما زال المفتاح في جيبه.

فقلت: أنت لا تصدق أنه قد قتل نفسه؟

هز يوارو رأسه ببطء وقال: نعم، لم يطلق نورتون النار على
نفسه. لقد قُتل عمداً!

ذهبت إلى الطابق السفلي وأنا لا أصدق، وأرجو مسامحتي
إذا كنت قد فشلت في رواية ما سيتبع لأنني كنت منبهراً، وكان ما
حدث شيئاً يصعب تفسيره. ومع ذلك فقد كانت الأحداث منطقية
جداً. لقد قُتل نورتون، ولكن لماذا؟ لمنعه -كما اعتقدت- من
إخبار أحد بما رأى. لكنه أخبر شخصاً آخر بذلك الأمر، وذلك
الشخص في خطر أيضاً، ولم يكن في خطر فحسب بل لا يمكنه
الدفاع عن نفسه أيضاً.

كان من الواجب أن أعرف ذلك، كان من الواجب أن أتنبأ
به.

قال يوارو بينما كنت أغادر الغرفة: صديقي العزيز!

كانت هذه آخر كلمات سمعته يقولها، فعندما جاء كيرتس
ليعتني بسيدة وجد ذلك السيد ميتاً.



الفصل الثامن عشر

-١-

لا أريد أن أكتب عن الموضوع لأنني أريد أن أنسى. لقد مات هيركيول بوارو، ويمونه مات جزء كبير من آرثر هيستنغز.

سأعطيكم جميع الحقائق المجردة دون رتوش، حيث إن هذا هو كل ما أستطيع تحمّل عمله. لقد مات بوارو - كما زعموا - بأسباب طبيعية نتيجة لنوبة قلبية كما توقع الدكتور فرانكلين. ولا شك أن موت نورتون قد أدى لحدوث إحدى هذه النوبات، ونتيجة للإهمال فلم يكن دواؤه (كبسولات الإميلتريت) بجانب سريره. هل كان ذلك إهمالاً؟ هل أزالها أحدهم عمداً؟ الأمر أعمق من ذلك؛ لا يستطيع السيد «اس» أن يتظر حدوث أزمة قلبية لبوارو. أنا أرفض أن أصدق أن موت بوارو كان طبيعياً وأعتقد أنه قد قُتل كما قُتل نورتون وبازيرا فرانكلين، ولا أعرف لماذا قُتلوا كما لا أعرف القاتل.

كالعادة جرى تحقيق لتحديد سبب وفاة نورتون، وكان الحكم أنه قد انتحر، ونقطة الشك الوحيدة أثارها الجراح بقوله إنه

من غير المعتاد لرجل أن يطلق النار على نفسه في منتصف جبهته تماماً، وقد كانت تلك هي نقطة الشك الوحيدة حيث كان كل شيء واضحاً: الباب المقفل من الداخل والمفتاح في جيب القتيل والنوافذ المقفلة والمسدس في يده.

وعلى ما يبدو كان نورتون قد اشتكى من صداع، وكانت بعض استثماراته المالية قد فشلت. من غير المعقول أن تكون هذه أسباباً تدعو إلى الانتحار ولكن كان عليهم أن يذكروا شيئاً. كان المسدس ملكه، فقد رأته المنظفة في درج الطاولة عدة مرات خلال مكوثه في ستايلز. وهكذا فقد انتهى الأمر؛ جريمة أخرى نُفذت بحذق ومهارة، وكالعادة دون احتمالات أخرى للشك.

في الصراع بين بوارو والسيد «س» كسب «س» الجولة، وقد بقي الأمر لي الآن لحل اللغز. وبصفتي متفكراً لوصية بوارو فقد ذهبتُ إلى غرفته وأخذت حقيبة الوثائق ثم فتحتها في غرفتي، وفي الحال أصيبتُ بصدمة عنيفة؛ فقد اختفى منها ملف قضايا «س». لقد رأيت الملف في الحقيقة قبل يوم أو اثنين عندما فتحتها بوارو أمامي، وهذا دليل (إن احتججتُ إلى دليل) على أن هذا القاتل المجهول كان يعمل في الخفاء؛ فلما أن بوارو قد أثلف هذه الأوراق أو أن «س» هو من فعل ذلك.

ذلك الملعون الحقيق، «س»! لكن الحقيقة لم تكن خالية تماماً، فقد تذكرت وعد بوارو بأنني سأجد دلائل أخرى لن يعرف عنها قاتلنا شيئاً، فهل هذه هي الدلائل؟ كان في الحقيقة نسخة من رواية شكسبير «عظيل»، طبعة صغيرة رخيصة، كما كانت فيها نسخة

من مسرحية «جون فيرغوسون» للكاتب سينت جون إرفن، وكانت فيها علامة عند الفصل الثالث.

حدقتُ إلى الكتائين ببلاهة، ففي الكتائين تكمن الدلائل التي تركها لي بوارو، ولم يُعِنْ هذا أي شيء لي على الإطلاق! ماذا يمكن أن يعني هذا؟! الشيء الوحيد الذي فكرت به هو وجود شفرة ما، شفرة مبنية على الكتائين، ولكن إذا كان الأمر كذلك فكيف يمكنني حل هذه الشفرة السرية؟! لم أجد أي خطوط تحت أي كلمات أو حروف، وقد حاولت نسخين الصفحات بلطف ولكن دون نتيجة.

قرأت الفصل الثالث من مسرحية «جون فيرغوسون» بنأى وحرص. كان مشهداً جميلاً ومثيراً حيث يجلس كلوتي جون ويتكلم، وينتهي بخروج الشاب فيرغوسون باحثاً عن ذلك الشخص الذي أخطأ بحق أخته. شخصيات موصوفة بشكل مدهش، ولكنني لم أظن أن بوارو ترك لي الروايتين لتحسين ذوقي في الأدب!

وحينما كنت أقلب صفحات الكتاب سقطت منه قصاصة ورق صغيرة كان عليها بخط بوارو نفسه هذه الكلمات: «كلم خادمي جورج».

حسناً، هنا شيء ما، لعله مفتاح اللغز... إن كان بوارو قد ترك لغزاً مع جورج. يجب أن أجد عنوانه وأذهب لرؤيته، لكن يجب علي أن أنتهي أولاً من عملية دفن صديقي المحزنة. هذه هي البقعة التي عاش فيها حين قدم إلى هذا البلد لأول مرة، وسيُدفن هنا في النهاية!

* * *

كانت جوديث لطيفة معي في تلك الأيام، فقد قضت معظم الوقت معي وساعدت في الترتيبات النهائية. كانت جوديث رقيقة وعطوفة، وكذلك كان بويد كارنغتون وإليزابيث كول.

ولم تتأثر إليزابيث كول كثيراً لموت نورتون كما توقعت، وإذا كانت قد حزنت كثيراً لموته فقد كنمت مشاعرها بمهارة.

وهكذا انتهى كل شيء.

-٢-

نعم، يجب أن أقولها؛ انتهت طقوس الجنازة. وقد كنت اجلس مع جوديث محاولاً وضع خطط للمستقبل حين قالت: لكنني لن أكون هنا يا أبي العزيز.

- لن تكوني هنا؟

- لن أكون في إنكلترا.

وحملت إليها فقالت: لم أود إخبارك من قبل يا أبي؛ أردت أن لا أزيد الأمر سوءاً، ولكن يجب أن تعرف الآن وأرجو أن لا تمنع. سأذهب إلى أفريقيا مع الدكتور فرانكلين.

وتملكتني غضب شديد، فقد كان ذلك لا يُطاق! لا يمكنها أن تفعل شيئاً كهذا أبداً، فالكل سيلوك سمعتها بالتأكيد. أن تكون مساعده هنا في إنكلترا وزوجته على قيد الحياة شيء، وأن تذهب معه إلى أفريقيا بعد وفاة زوجته شيء آخر. كان التفكير في هذا الأمر

غير محتمل، ونسوف أحاول منعها بأي وسيلة، يجب أن لا تفعل جوديث شيئاً كهذا.

لم تقاطعني وتركتني أنهي كلامي، ثم ابتسمت ابتسامة باهتة وقالت: لكنني - يا أبي العزيز - لن أذهب مساعده له، بل سأذهب معه زوجة.

صعقت لما قالت وقلت بتلعثم: وماذا عن أليوتون؟

نظرت إليّ ببعض الدهشة ثم قالت: لم يكن بيننا شيء قط، وقد كنت سأخبرك بذلك لو لم تغضبني. وبصراحة كنت أريدك أن تفكر بأن بيننا شيئاً ولم أحب أن تعرف أنه جون.

- ولكنني رأيتك يضمك في إحدى الليالي على الشرفة!

قالت بنفاد صبر: كنت تعسة تلك الليلة، وكما تعلم فهذه الأشياء يمكن أن تحدث.

قلت: لا تستطيعين الزواج بفرانكلين بعد، ليس بهذه السرعة.

- بل أستطيع، وأريد الذهاب معه. وكما قلت، فذلك أسهل. لا يوجد ما تنتظره الآن.

جوديث وفرانكلين... فرانكلين وجوديث! هل تستطيع فهم الأفكار التي راودتني؟ الأفكار التي اختبأت تحت السطح لفترة؟ جوديث نحمل زجاجة في يدها، جوديث تعلن بصوتها الفتي المتحمس بأن الناس عديمو الفائدة يجب التخلص منهم لإفساح

المجال أمام الناس المفيدين. جوديث التي أحببتها وأحبها بوارو... هل كان الشخصان اللذان رأهما نورتون جوديث وفرانكلين؟ لكن إذا كانا هما... لا، هذا مستحيل؛ لا، ليست جوديث فائتة. ولكن من المحتمل أن يكون فرانكلين، فهو شخص غريب عديم الشفقة وإذا صمم على القتل فسيفتل مرة وأخرى.

كان بوارو راغباً في استشارة فرانكلين، فلماذا؟ وماذا قال له ذلك الصباح؟ لكن ليست جوديث، ليست ابنتي الجميلة الصغيرة جوديث. ومع ذلك فكم بدا بوارو غريباً وكم صعقتني كلماته حين قال: 'وربما تعين أن تقول: «أشيدل الستارة»!

فجأة خطرت ببالي فكرة جديدة: كل هذا غريب لا يصدق. هل كانت قصة «س» كلها ملفقة؟ هل جاء بوارو إلى ستايلز لأنه خاف من مأساة في منزل عائلة فرانكلين؟ هل جاء للاعتناء بجوديث؟ هل كان هذا هو السبب في عدم إخباري بشيء لأن القصة كلها مفتعلة من أساسها وغطاء لقدومه هنا؟ هل كانت ابنتي جوديث هي قلب المأساة؟

عُطِّل! كانت رواية «عطيل» تلك هي التي أخذتها من خزانة الكتب في الليلة التي ماتت فيها السيدة فرانكلين. فهل كان ذلك هو الأدليل؟

جوديث التي بدت في تلك الليلة (كما قال أحدهم) مثل سميتها قبل أن تقطع رأس هولوفيرنيس... جوديث ذات القلب المملوء بالموت!

الفصل التاسع عشر

أكتب هذه الكلمات وأنا في إستبورن حيث قدمت لرؤية جورج خدام بوارو السابق. عمل جورج لدى بوارو لعدة سنوات، وقد كان كفتاً مستقيماً وكان صريحاً صادقاً يذكر الحقائق كما هي دون لفّ أو دوران. حسناً، لقد ذهبت لرؤيته وأخبرته بموت بوارو، وكان ردّ فعل جورج كما هو متوقّع تماماً، فقد أصابه الحزن والاكتئاب لكنه كابد لإخفاء هذه المشاعر.

قلت له: لقد ترك بوارو رسالة لي معك، أليس كذلك؟

فقال جورج مباشرة: لك يا سيدي؟ لا أتذكر أنه فعل.

دهشت لرده، ودرغم إصراري فقد كان متيقناً من جوابه. وقلت في النهاية: "إنها غلطتي على ما أظن. حسناً، لقد انتهى الأمر". ثم قلت: كم أتمنى لو كنتُ معه عندما مات!

فقال جورج: كنت أتمنى ذلك أنا أيضاً يا سيدي.

- لكن إذا كان والدك مريضاً فلا بد أن تذهب للاعتناء به، أليس كذلك؟

نظر إليّ جورج نظرة فضولية وقال: أرجو معذرتك يا سيدي،
لكنني لا أفهم ما تقصده.

- لقد تركت خدمة بوارو للاعتناء بوالدك المريض، أليس
هذا صحيحاً؟

- أنا لم أرغب في تركه يا سيدي، ولكنه أصر على ذهابي.

فحدّثت إليه وقلت: استغنى عن خدماتك؟

- لا أعني أنه صرفني من خدمته يا سيدي، بل كان الاتفاق
على أن أعود إلى خدمته لاحقاً، لكنني تركته حسب رغبته وقد دفع
كل أتعالي حينما كنت هنا مع والدي.

- لكن لماذا يا جورج؟ لماذا فعل ذلك؟

- لا أعرف يا سيدي.

- ألم تسأله؟

- لم أفعل يا سيدي؛ لم أفكر أن هذا من اختصاصي. لقد كان
للسيد بوارو دائماً أفكاره الخاصة، فهو رجل ذكي، وقد كنت أفهمه
وأحترمه دائماً يا سيدي.

قلت بصوت خافت: نعم، نعم.

- لقد كان دقيقاً في اختيار ملابسه التي كان يفضل أن تكون
أجنبية فاخرة... إن فهمت ما أعني يا سيدي، ويمكن فهم ذلك إذا
كان أجنبياً، كما أنه كان مهتماً جداً بشعره وشاربه.

وشعرت بوخزة ألم حين تذكرت كم كان معتزاً بشاربه فقلت:
نعم، هذا الشارب المشهور.

تابع جورج: لقد كان دقيقاً جداً بشأن شاربه، ومع أنه
كان يهذبه بطريقة تقليدية إلا أنه كان يناسبه، إن فهمت ما أعني
يا سيدي.

قلت: "أعلم ذلك". ثم غمغمت بلطف: أظن أنه كان يصبغه
كما صبغ شعره؟

- كان يفعل ذلك في بعض الأحيان، ولكنه لم يصبغ شعره
خلال السنوات الأخيرة.

قلت: كلام فارغ، لقد كان شعره أسود كالغراب بحيث بدا
غير طبيعي كالشعر المستعار.

فتنحج جورج باعتذار وقال: عفواً سيدي، ولكنه كان شعراً
مستعاراً بالفعل؛ فقد كان السيد بوارو يفقد شعره بغزارة مؤخراً
ولذلك استخدم الشعر المستعار.

وفكرت أنه من الغريب حقاً أن يعلم الخادم أسرار سيده أكثر
بكثير من أعز أصدقائه! وعدت مرة أخرى إلى اللغز الذي حيرني
فقلت: ولكن ألا تعلم حقيقةً لماذا استغنى عنك السيد بوارو كما
فعل؟ فكر يا رجل، فكر جيداً.

حاول جورج أن يحكّ ذهنه، ولكن ذلك كان خارج نطاق
قدرته، فقال في النهاية: أستطيع فقط أن أقترح يا سيدي أنه تخلص
منّي لأنه أراد أن يوظف كيرنس لديه.

- كيرتس؟ لماذا أراد أن يعمل كيرتس لديه؟

فكر جورج مرة أخرى ثم قال: حسناً يا سيدي، لا أستطيع حقاً القول. لم يبذل لي عندما رأيته (وأرجو معذرتك يا سيدي) شخصاً ذكياً. إنه قوي طبعاً، ولكنني لا أعتقد أنه من النوع الذي يفضلُه السيد بوارو. لقد كان مساعداً في بيت للمعاقين عقلياً في وقت من الأوقات على ما أظن.

حدّثت إلى جورج وقلت: كيرتس!

أهذا هو السبب الذي دفع بوارو إلى عدم إخباري بالكثير عن القضية؟ كيرتس؟ الرجل الوحيد الذي لم يُثر شكوكي؟ نعم، وقد كان بوارو راضياً أن يبقى الأمر كذلك، كان راضياً أن أتفحص جميع ضيوف ستابلز باحثاً عن «س» الغامض، ولكن «س» لم يكن ضيفاً... كان كيرتس!

عمل كيرتس في بعض الأوقات مساعداً في بيت للمعاقين عقلياً. لقد قرأت مرة أن نزلاء الملاجئ وبيوت المجانين يبقون هناك في بعض الأحيان، أو يعودون إليها كمساعدين؟ رجل غريب بليد يقتل لأسباب غريبة! وإذا كان الأمر كذلك، إذا كان صحيحاً، فسوف يتزاح حمل ثقيل عن كاهلي. يا إلهي! كيرتس!

* * *

ملحق

ملاحظة بقلم الكابتن آرثر هيستغز: وصلني هذه المخطوطة بعد أربعة أشهر من وفاة صديقي هيركيول بوارو، فقد استلمتُ رسالة من إحدى المؤسسات القانونية تطلب مني زيارة مكتبها، وفي المكتب وبناء على تعليمات عميلها السيد هيركيول بوارو سلّمتُ طرداً مغلقاً، وسأعيد نسخ محتوياته هنا.

مخطوطة بقلم هيركيول بوارو

صديقي العزيز، سيكون قد مضى على موتي أربعة أشهر عندما تقرأ هذه الكلمات، ولقد فكرت كثيراً قبل أن أكتب هذه الكلمات الموجودة هنا، ثم قررت أنه من الضروري أن يعرف أحدهم حقيقة الجريمة الثانية في «ستابلز». وقد راودني أيضاً حدس بأنه حتى يحين الوقت الذي ستقرأ فيه هذه الرسالة ستكون قد استنبطت نظريات مستحيلة.

قد تولمك هذه النظريات، لكن دعني أخبرك أنه كان يجب أن تتوصل إلى الحقيقة بسهولة يا صديقي. لقد تأكدت من وصول كافة الأدلة إليك، فإن كنت لم تصل إلى الحقيقة فذلك لأنك -كالعادة-

سليم النية وتتق كثيراً بالآخرين. كان ينبغي أن تعرف من قتل نورتون على الأقل، أما باربرا فرانكلين فلا أحسبك ستعرف المسؤول عن موتها، وحينما تعرف ستجد الأمر صدمة بالغة لك.

كما تعلم، في البداية أرسلت في طلبك وأخبرتني أنني بحاجة إليك، وقد كان هذا صحيحاً؛ لقد أخبرتني بأنني أريدك أن تكون أذني وعيني، وهذا أيضاً كان صحيحاً، صحيحاً جداً، وإن لم يكن بالمفهوم الذي فهمته. لقد أردت أن ترى ما أريدك أن تراه وتسمع ما أريدك أن تسمعه.

لقد تدمرت - يا عزيزي - لأنني لم أكن عادلاً في عرض هذه القضية، فقد أخفيت عنك معلومات كنت أعرفها، أي أنني رفضت أن أخبرك بهوية «س» المجهول، وهذا صحيح. لقد اضطرت إلى عمل ذلك، ولكن ليس للأسباب التي قدمتها لك بل لأسباب أخرى ستعلمها الآن.

دعنا نتفحص أمر السيد «س». لقد أطلعتك على ملخص القضايا المختلفة وأخبرتني أن الشخص المتهم أو المشتبه به قد بدا في كل قضية من هذه القضايا وكأنه قد ارتكب الجريمة المعينة فعلاً، وأنه لا يتوفر بديل آخر. ثم انتقلت إلى الحقيقة الثانية المهمة، وهي أنه في كل قضية كان «س» إما موجوداً أو ذا علاقة وثيقة بالقضية، وقد توصلت أنت حينها إلى استنتاج هو صحيح وخاص؛ بشكل متناقض، حيث قلت إن «س» هو من ارتكب الجرائم كلها.

لكن الظروف أشارت في كل حالة تقريباً إلى أن المتهم فقط كان يمكنه ارتكاب الجريمة. فكيف يمكننا تفسير شخصية «س»

إذا كان هذا صحيحاً؟ سوف نخرج بنتيجة غريبة، وهي أن المسألة ليست سوى نوع من التدخل؛ أي مثل تفاعل بين مادتين يحصل فقط بوجود مادة ثالثة، ومن الواضح أن هذه المادة لا تشارك في التفاعل وتبقى كما هي من غير أن تتأثر. هذا هو الموقف، وهذا يعني أن الجرائم تحدث حيث يكون «س» موجوداً ولكنه لا يشارك فيها بنفسه.

إنه موقف غريب وغير معتاد، وقد أدركت أنني صادفت - أخيراً وفي نهاية سيرتي المهنية - الجريمة الكاملة والمجرم الذي اخترع أسلوباً فريداً بحيث لا يمكن تجريمه أبداً.

كان مذهشاً، ولكنه ليس بالجديد حيث وجدت قبله أمثلة مشابهة. وهنا يأتي دور الدليل الأول الذي تركته لك، مسرحية «عطيل». في هذه المسرحية ويتصور رافع نري «س» الأصلي، إياغو، في هيئة مجرم مثالي. فموت ديزدمونة وكاسيو، وبالتأكيد عطيل نفسه... هذه الجرائم كلها كانت من فعل إياغو الذي خطط لها ونفذها، غير أنه ظل بعيداً عن الشبهات لا يطوله الشك تقريباً. نعم، هذا هو الكمال بعينه في فن الجريمة، فهو لم يفترف الجريمة مباشرة بل هو يحول بين الآخرين والعنف مشيراً الشكوك حول أمور لم يكن ليفكر بها أحد لو لم يذكرها هو نفسه. ثم نشاهد الأسلوب نفسه في الفصل الثالث الرابع من مسرحية «جون فيرغوسون»، حيث أفتع كلوتي جون الآخرين بقتل الرجل الذي كان هو بكرهه... إنه مثال رائع على للإيحاء النفسي.

بحب عليك أن تدرك هذا يا هيستنغز: إن كل شخص مجرم

محتمل، فأحياناً نستيقظ في الإنسان الرغبة للقتل، ولكن ليس إرادة القتل. كم من مرة سمعت الآخرين يقولون: "لقد أثارت غضبي بحيث شعرتُ بأني أودُّ قتلها"، أو: "كنت سأقتله لأنه قال كذا وكذا"، أو: "كنت غاضباً فكذت أفتله"؟

هذه العبارات كلها صحيحة بشكل مطلق. إن ذهن المرء يكون صافياً جداً في مثل تلك الحالات، فهو يودُّ قتل فلان وفلان، ولكنه لا يفعل ذلك لأن إرادته لا توافق رغبته. أما بالنسبة للأطفال فهذا الكابح لا يعمل بصورة جيدة. عرفت طفلاً كان منزعجاً من قطنه فقال لها: "بقي ساكنة وإلا ضربتك على رأسك وقتلتك"، وقد فعل ذلك فعلاً يشعر بالدهشة والرعب بعد لحظات عندما اكتشف أن القطعة لن تعود إلى الحياة، فذلك الطفل كان يحب قطنه كثيراً.

إذن فنحن جميعاً مجرمون محتملون، وكان هذا هو فن السيد «س»؛ فهو لا يقترح هذه الرغبة ولكنه يكسر جانب الاستقامة الذي يعارض القتل. كان فناً تم الوصول به إلى حد الكمال عن طريق الممارسة. عرف «س» الكلمات المناسبة والعبارات المناسبة واستطاع أن يتحكم في نبرات صوته وأن يركّز على نقط الضعف. يمكن عمل ذلك بسهولة، وقد نفَّذ ذلك فعلاً دون إثارة شك الضحية، فلم يكن ذلك تنويماً مغنطيسياً لأن التنويم المغنطيسي ما كان لينجح. بل كان أسلوبه أكثر مكرماً وفاعلية، كان جمع قوى الإنسان كافة لتوسيع الشغرة بدلاً من رتقها، كان يستهدف الخير في الإنسان ويقوم بتحويله ليتحد مع الشر. أنت تعرف ذلك يا هيستنغز، فقد تعرضت له.

والآن، ربما بدأت ترى ماذا كانت تعني بعض ملاحظاتي التي أزعجتك وحيرتكَ عندما كنتُ أحدثك عن جريمة سترنكيب، ولم أعين الجريمة ذاتها دائماً. أخبرتك أنني كنت في «ستايلز» لهدف، كنت هناك لأن جريمة سيتم ارتكابها. ودُهشت أنت بسبب تأكدي من هذه النقطة، ولكنني كنت واثقاً لأنني أنا الذي سيرتكب هذه الجريمة!

نعم يا صديقي، إنه لأمر مضحك وغريب ومخيف! أنا الذي أرفض القتل، أنا الذي أقدس الحياة البشرية، أنهيت سيرتي المهنية بارتكاب جريمة! لعليّ صنعت ذلك لأنني اعتقدت أنني أحسن أخلاقاً من الآخرين. لقد كنت واثقاً من استقامتي بحيث تعرضتُ إلى هذه المعضلة، لأن للقضية جانبين كما ترى: أحدهما أن عملي في هذه الحياة هو إنقاذ الأبرياء ومنع الجريمة، وهذه هي الطريقة الوحيدة لعمل ذلك. الأمر واضح، فلم يكن باستطاعة القانون القبض على «س»، لقد كان آمناً، ومهما بلغت براعتي فلم أكن لأستطيع غلبته إلا بهذه الطريقة.

وعلى الرغم من ذلك كنت متردداً يا صديقي. لقد عرفت ما يجب عليّ عمله ولكنني لم أستطع إجبار نفسي على تنفيذه. كنت مثل هاملت، أحاول دائماً تأجيل ذلك اليوم المشؤوم. ثم حصلت المحاولة التالية، محاولة قتل السيدة لانريل.

لقد كنتُ فضولياً -يا هيستنغز- لأعرف: هل سينجح حثك المعروف في تمييز الأمور الواضحة؟ وقد نجح. كان رد فعلك الأول هو الشك في نورتون، وقد كنتُ مصيباً؛ كان نورتون هو الرجل. ولم يكن لاعتقادك هذا سبب ما عدا اقتراحك الصحيح

(وإن كان فاتراً) بأنه كان شخصية نافهة! وهنا أظنك افتربت جداً من الحقيقة. فقد درست تاريخ حياته بعناية فوجدت أنه كان الابن الوحيد لامرأة قوية مسيطرة، ويبدو أنه لم تُنح له الفرصة للثقة بنفسه أو التأثير بشخصيته على الآخرين، بل كان يعرج دائماً وكان عاجزاً عن المشاركة بالألعاب المدرسية.

وكانت واحدة من أهم الملاحظات التي أخبرتني بها تلك الملاحظة عن ضحك الآخرين منه في المدرسة حين أعطي عليه لأنه رأى أرنباً ميتاً. كانت تلك الحادثة قد أثرت فيه تأثيراً عميقاً على ما أظن. كان يكره الدم والعنف، وقد كان يعاني نتيجة لذلك، وبالتأكيد فقد قرر (وبغير وعي منه) أن يُصلح الوضع بأن يصبح جريئاً قاسياً.

أظن أنه اكتشف مبكراً قدرته على التأثير في الناس؛ فقد كان مستمعاً جيداً وكانت لديه شخصية متعاطفة. كان الناس يحبونه ولكنهم -في الوقت ذاته- لم يُعبروه الكثير من الاهتمام، وقد ساءه هذا كثيراً. ثم استفاد من هذه الصفة واكتشف كم كان الأمر سهلاً، وذلك باستعمال الكلمات المناسبة وتوفير الحافز الملائم للتأثير في الآخرين. كان الشيء الوحيد المطلوب منه هو فهم الناس والتغلغل في أفكارهم ودوافعهم الخفية وأمبتاتهم.

أندري يا هيستنغز؟ إن مثل هذا الاكتشاف يغذي الإحساس بالقوة. ها هو ذا ستيفن نورتون الذي أحبه الآخرون واحتفروه، ها هو ذا يستطيع دفع الناس إلى عمل أمور لا يريدون عملها أو (وانتبه لهذا) يظنون أنهم لا يريدون عملها.

أستطيع تصوّره وهو ينمي قدرته هذه، وشيئاً فشيئاً يطوّر نزعة السوء للعنف، وبطريقة غير مباشرة. هي نزعة مرّضية للعنف، العنف الذي يحتاج إلى قوة بدنية كانت تنقصه وكان يتعرض إلى السخرية بسببها. نعم، وتنمو الهواية عنده إلى أن تصبح شغفاً، تصبح ضرورة... كانت مخدراً يا هيستنغز، مخدراً يسبب الإدمان مثلما يفعل الأفيون والكوكايين.

نورتون، ذلك الرجل الرقيق المحب، كان سادياً في الحقيقة! كان مدمناً على الألم والتعذيب العقلي، وقد انتشر هذا الوباء في العالم في السنين الأخيرة. لقد أشبعت فيه شهواتنا: السادية والقوة؛ فهو يكاد يتحكم في مصائر الناس! ومثله (كأي أسير للمخدرات) كان يجب أن يتزود بالمخدرات، فعثر على الضحية نلو الأخرى!

أنا متأكد من وجود قضايا أخرى سوى القضايا الخمس التي تتبعها، ولكنه لعب الدور نفسه في كل واحدة من هذه القضايا. لقد عرف إترنغتون لأنه أمضى صيفاً في القرية حيث كان يعيش ريفز، وكان يذهب مع ريفز لتناول الشراب في الحانة المحلية. وفي إحدى رحلاته البحرية تعرّف إلى فريدا كلاي فشجعها واستغل أفكارها الباطنية القاضية بأن موت خالتها سيكون أمراً جيداً وسوف يحقق الراحة لخالتها، كما أنه سيوفر نوعاً من الراحة المادية والمنفعة لها. وكان صديقاً لعائلة لبتسفيلد، وبعد أن تحدّثت مرغريت إليه تصورت نفسها في دور البطلة التي ستخلص أخواتها من سجنهنّ الأبدى، ولا أعتقد -يا هيستنغز- أن أيّاً من هؤلاء الناس كان سيرتكب جريمة لولا تأثير نورتون.

والآن ننتقل إلى الأحداث التي جرت في ستابلز. كنت قد

بدأت بتعقب نورتون منذ بعض الوقت، وعندما تعرّف على عائلة فرانكلين شممت رائحة الخطر. لا بد أنك تدرك أنه حتى نورتون كان بحاجة إلى نواة يبدأ منها عمله، فأنت تحتاج إلى بذرة لتطوير شيء ما؛ في «عُطِل» مثلاً اعتقدت دائماً بأن عطيلاً كان يؤمن داخلياً بالاعتقاد القائل (وقد يكون صحيحاً) بأن حب ديزدمونة له كان حباً غير متوازن، وربما كان مجرّد اختتان فتاة صغيرة بذلك الفارس الشجاع وليس حب امرأة لعطيل الرجل، وربما أدرك بأن كاسيو كان حبها الحقيقي وأنها ستدرك هذه الحقيقة بمرور الوقت.

وقد قدّمت عائلة فرانكلين أرضية خصبة لنورتون. لا بد أنك قد أدركت الآن -يا هيستنغز- الشيء الذي كان يمكن لأي شخص ذي مقدرة سليمة في الحكم على الأشخاص أن يراه بوضوح، وهو أن فرانكلين كان يحبّ جوديث وأن جوديث كانت تحبه، وأن فظاظته وعادته في عدم النظر إليها وعدم لباقتها... كان يجب أن يخبرك كل هذا بأن الرجل غارق في حبها حتى أذنيه، ولكن فرانكلين رجل ذو شخصية قوية مستقيمة، كلامه قاسٍ ولكنه رجل ذو مبادئ واضحة، وفي دستورهِ أن على الرجل أن يتمسك بالزوجة التي اختارها.

وكانت جوديث (وكنتم أظن أنك رأيت ذلك) تحبه، لكنها كانت يائسة نعسة. وقد ظننت أنك اكتشفت هذه الحقيقة عندما وجدتها في حديقة الأزهار، ولهذا انفجرت غضباً؛ فأصحاب الشخصيات أمثالها لا يحتملون الشفقة والتعاطف لأنهما مثل ملامسة جرح مؤلم. ثم اكتشفت أنك تظن أنها تحب أثيرتون، وقد تركتكَ تظن ذلك لتحمي نفسها من عطفك الذي كان أضر شيء

تحتاجه وخوفاً من إعادة فتح الجرح مرة أخرى. كانت تُظهر اهتماماً بأثيرتون كنوع من العزاء لنفسها، وكانت تعرف جيداً أي نوع من الأشخاص هو ولم تكن تشعر نحوه بأي عاطفة.

وبالطبع عرف نورتون كيف تسيّر الأمور ورأى احتمالاً في ثلاثية فرانكلين. يمكنني القول إنه بدأ بفراانكلين أولاً ولكنه لم ينجح؛ فهو (أي فرانكلين) من ذلك النوع من الرجال المحصنين ضد إيحاء نورتون الماكر لأنه يملك عقلاً محدّداً وواضحاً، ويملك معرفة دقيقة بمشاعره ولا يُعير انتباهاً للضغط الخارجي، وبالإضافة إلى ذلك فحبه الكبير في هذه الحياة هو عمله، وانهماكه فيه يجعله أقلّ تعرضاً للأذى.

ولكن نورتون أحرز نجاحاً أكبر مع جوديث، فقد لعب بدكاء في موضوع الحياة التي لا فائدة منها. كانت مسألة اعتقاد عند جوديث، وقد تجاهلت بحدة حقيقة أن رغباتها السرية توافقت مع هذا الاعتقاد في حين كان نورتون يعلم أنها كذلك. وقد كان في غاية الذكاء، يأخذ لنفسه وجهة النظر المعاكسة ويسخر من الفكرة قائلاً إنها لن تملك الجرأة أبداً لارتكاب مثل هذا العمل الحازم لأن الشباب يقولون دائماً لكنهم لا يفعلون... إنه أسلوب قديم رخيص ولكنه ينجح غالباً يا هيستنغز؛ فهؤلاء الشباب سريعو التأثر وهم مستعدّون لقبول التحدي (رغم أنهم لا يرون الأمر على حقيقته). ويعد إزاحة باربرا عديمة الفائدة كان الطريق سيصبح خالياً لفرانكلين وجوديث، لكن ذلك لم يُذكر قط أو يُكشّف عنه. كان التأكيد على أن العامل الشخصي لا دور له بناتاً، فلو أدركت جوديث أن العامل الشخصي يلعب دوراً لكان ردّها عتيفاً.

لكن نشاطاً واحداً لا يكفي بالنسبة لقاتل مدمن مثل نورتون؛ بل هو يبحث عن فرص المتعة في كل مكان، ووجد فرصته في عائلة لاتريل.

فكر فيما حدث يا هيستنغز. هل تذكر أول ليلة لعبتم فيها البريدج؟ هل تذكر ملاحظة نورتون التي قالها لك لاحقاً بصوت مرتفع والتي كنت تخشى أن يسمعها الكولونيل لاتريل؟ بالطبع كان نورتون يقصد أن يسمعها الكولونيل، وهو لم يفوت فرصة للتأكيد عليها وكان يذكرها دائماً، وأخيراً توجت جهوده بالنجاح. لقد حدث ذلك تحت أنفك يا هيستنغز ولم تر كيف نُفذاً

لقد وُضع حجر الأساس؛ تزايد الشعور بالعبء، الخجل من مظهره أمام الرجال الآخرين، ويزداد شعوره بالاسياء من زوجته... أنت تذكر ما حدث بالضبط. يقول نورتون إنه عطش، هل كان يعلم أن السيدة لاتريل في المنزل وأنها ستظهر على مسرح الأحداث؟ ويتصرف الكولونيل كأني مضيف كريم، وتلك هي طبيعته، فيعرض عليكم الشراب ويذهب لإحضاره. ولا تزالون أنتم جالسين قرب النافذة، ثم تصل زوجته ويحدث المشهد المحتوم الذي يعلم أنكم سمعتموه، ثم يخرج. وكان بالإمكان تناسي كل ذلك بالنظائر. كان بإمكان بويد كارنغتون القيام بذلك جيداً، فهو يمتلك درجة من الحكمة واللباقة (وما عدا ذلك فهو من أكثر الناس الذين عرفتهم غروراً وإثارة للفضجر). أنت نفسك كان بإمكانك أن تبلي بلاءً حسناً أيضاً، لكن نورتون سارع إلى الكلام بخبث وحماسة شديدة لا داعي لها، وهو تصرف زاد الأمر سوءاً. أخذ يثرثر عن البريدج ويتحدث عمداً عن حوادث إطلاق النار.

وكما أراد نورتون تماماً فقد تبعه ذلك الغيبي بويد كارنغتون فروى قصة الجندي الأيرلندي الذي أطلق النار على أخيه، وهي قصة كان نورتون قد رواها لبويد كارنغتون وهو يعلم جيداً أن هذا الغيبي سيرواها على أنها حصلت معه عندما يجد المناسبة. أنت ترى -إذن- أن الإيحاء الكبير الواضح لن يأتي من نورتون نفسه!

لقد تم الإعداد للامر جيداً؛ يبدأ بالأثر المتراكم حتى يصل إلى نقطة الحسم. لقد أهنت مكانة الكولونيل لاتريل كمضيف وأخرج أمام أصدقائه، وكان يتألم من معرفته بأنهم مقتنعون تماماً بأنه لا يملك الجرأة لعمل شيء إلا الخضوع لسيطرة زوجته، ثم سمع الكلمات المناسبة: «بنديقة الصيد، حوادث، رجل أطلق النار على أخيه...»، ويظهر فجأة رأس زوجته فتدور في رأسه كلمات: «أنت آمن، سيكون مجرد حادث، سأريهم، سأريها، عليها اللعنة! أنمتي أن تموت، سوف تموت...»!

هو لم يقتلها يا هيستنغز، أنا نفسي أظن أنه عندما أطلق النار أخطأها متعمداً لأنه كان يريد أن يخطئ. وبعد فترة زال السحر الأسود. لقد كانت زوجته، المرأة التي أحبها على الرغم من كل شيء. هذه كانت إحدى جرائم نورتون التي لم تتجح.

آه، ثم كانت محاولته التالية! ألا تدرك يا هيستنغز أنك كنت التالي؟ عد بذكريتك إلى الوراء وتذكر كل شيء. أنت، صديقي الصادق العطوف هيستنغز! لقد كشف نقاط ضعفك كلها، كما اكتشف أيضاً نقاط استقامتك وضميرك الحي. البرتون هو ذلك النوع من الرجال الذي تكرمه وتخافه غريزياً؛ فهو من النوع الذي تظن أنه

يجب القضاء عليه، وكل ما سمعته عنه وكل ما كنت تفكر فيه عنه كان صحيحاً. أخبرك نورتون عنه بقصة ما، وهي قصة صحيحة من حيث الواقع، مع أن الفتاة المعنيتة كانت -في الحقيقة- مصابة بمرض عصبي ومن عائلة فقيرة. هذه القصة وافقت معتقداتك المحافظة القديمة نوعاً ما: "هذا الرجل شرير يُغوي النساء ثم يحطمهن ويدفعهن إلى الانتحار". ثم يقوم نورتون بإقناع بويد كارنغتون بالتحدث إليك أيضاً، وتُضطر أن تتحدث إلى جوديث، ويكون جواب جوديث الفوري أنها ستفعل بحياتها ما تشاء، وهذا الرد يجعلك تصدق الأسوأ.

أرأيت الآن النقاط التي استغلها نورتون؟ حبك لابتك، شعورك المتحفظ والعميق بالمسؤولية التي يشعر بها كل رجل مثلك نحو أبنائه، اعتزازك بنفسك... وهنا يخطر ببالك أنك يجب أن تفعل شيئاً ما، فالأمر كله يعتمد على شعورك بالضعف، ويرجع ذلك إلى افتقارك إلى رأي زوجتك الحكيم وإلى إخلاصك في تربية أبنائك، فتقول في نفسك: "لن أخذلها!" والنقطة الأهم كانت غرورك، فمن خلال مراقبتك لي تعلمت سر المهنة! وأخيراً ذلك الشعور الداخلي الذي يلازم جميع الآباء بشأن بناتهم، الشعور (الذي لا يُعرف سببه) بالغيرة أو بالكراهية نحو ذلك الرجل الذي سوف يأخذهن منه.

استغل نورتون ذلك كفنان محترف، وقد استجبت أنت له. أنت تتقبل الأمور بسهولة، وقد كنت تفعل ذلك دائماً؛ صدقت بسهولة أن أليرتون كان يتحدث إلى جوديث في المنزل الصيفي، ولكنك لم ترها بل لم تسمعها تتكلم، والأمر الذي لا يصدق هو أنك كنت لا تزال تظن -في صباح اليوم التالي- أنها كانت جوديث، وقد فرحت جداً لأنها غيرت رأيها!

ولكن لو كلفت نفسك مشقة فحص الحقائق لكنت أدركت على الفور أنه لم يكن أي احتمال واردة لذهاب جوديث إلى لندن في ذلك اليوم، ولكنك فشلت أيضاً في الوصول إلى الاستنتاج الواضح. كان أحد الأشخاص في إجازة في ذلك اليوم، وقد كان ذلك الشخص غاضباً لأنه لم يستطع الذهاب. ذلك الشخص هو الممرضة كارفن! فليس أليرتون بالشخص الذي يكفي بملاحقة امرأة واحدة، وعلاقته مع الممرضة كارفن كانت تتقدم بشكل أكثر من مجرد الغزل الذي كان يمارسه مع جوديث.

كل ذلك كان من تدبير نورتون. لقد رأيت أليرتون وجوديث يتعانقان، وبعدها مباشرة دفعك نورتون خلف زاوية المنزل لأنه كان يعلم -بلا شك- أن أليرتون كان سيقابل الممرضة كارفن في المنزل الصيفي، وبعد قليل من المناقشة تركك تذهب إلى هناك ولكنه ظل في رفقتك، والجملة التي سمعت أليرتون يتلفظ بها كانت مناسبة لغرضه، وقد سحبك نورتون بسرعة قبل أن تسبح لك الفرصة لتكتشف أن المرأة لم تكن جوديث. وكان رد فعلك على هذه الأمور فوراً وتاماً، فقد استجبت وقررت أن ترتكب جريمة!

لكن -لحسن حظك يا هيسنغز- لديك صديق لا يزال محتفظاً بعقله. لقد قلت لك في بداية الأمر إنك إن لم تتوصل إلى الحقيقة فذلك لأنك شديد الثقة في الناس. أنت تصدق كل ما يقال لك، وصدقت ما قلته أنا لك، ومع ذلك فقد كان من السهل عليك أن تكتشف الحقيقة.

لماذا نظمتي أرسلت جورج بعيداً؟ صنعت ذلك لاستبدله

يرجل أقل خيرة، ومن الواضح أنه أقل ذكاءً أيضاً. لماذا لم يعثر بي الطبيب؟ أنا الذي كنت حريصاً على صحي لم أكن لأسمع باستدعاء طبيب، لماذا؟ هل رأيت الآن لماذا كان وجودك ضرورياً في «ستايلز»؟ كنت بحاجة لأحد يتقبل ما أقوله بلا مناقشة. لقد صدقت روايتي بأنني عدت من مصر وأنا في حال أسوأ مما كنت عليه قبل أن أذهب، ولكن هذا لم يكن صحيحاً؛ فقد عدت وأنا أحسن حالاً، ولو كلفت نفسك العناء لكنت اكتشفت ذلك، ولكنك لم تفعل بل صدقتني فقط.

لقد استغيت عن جورج لأنني لم أكن لأنجح في إقناعه بأنني فقدت القوة في جميع أعضائي فجأة. جورج في منتهى الذكاء فيما يتعلق بما يراه، وهو كان سيدرك أنني كنت أنظاها. هل تفهم يا هيستنغز؟ طوال الوقت الذي كنت أنظاها فيه بالعجز (وكنت بذلك أخدع كيرتس) لم أكن عاجزاً على الإطلاق، بل كنت أستطيع المشي، ولكنني كنت أعرج.

لقد سمعتك تصعد في ذلك المساء وسمعتك تتردد ثم تدخل إلى غرفة أليرتون، وعلى الفور تبهت. كنت قلقاً جداً بسبب حالتك العقلية والنفسية، ولم أتردد. وكنت وحدي حيث كان كيرتس قد نزل لتناول العشاء، فتسللت خارج غرفتي عبر الممر وسمعتك في حتمام أليرتون، وبسرعة - يا صديقي - وبأسلوب تكرهه كثيراً نزلت على ركبتي ونظرت من خلال ثقب مفتاح الحمام (حيث يمكن للمرء أن يرى لحسن الحظ، فقد كان للباب سقطة لا مفتاح من الداخل). وأدركت جيداً معنى تلاعبك بالحبوب المنومة، وأدرت خطتك.

وبناءً على ذلك تصرفت يا صديقي. رجعت إلى غرفتي وأعددت خطتي، وعندما صعد كيرتس أرسلته لإحضارك، وقد جئت وأنت تتشاءم متعذراً بالصداع وأحدثت جلبة كبيرة. وجعلت تناول الدواء؛ فقد وافقت - حتى تغادر سريعاً - على شرب كوب من الشكولاتة الحلوة الساخنة، شربته لكي تستطيع الذهاب سريعاً. ولكن لديّ أنا أيضاً بعض الحبوب المنومة يا صديقي!

وهكذا فقد نمت حتى الصباح إلى أن عدت إلى طبيعتك وعقلك، وكنت مرعوباً مما كنت قد أوشكت على ارتكابه. كنت قد أصبحت آمناً في ذلك الوقت، فالمرء لا يرتكب مثل هذه الأمور مرتين، ليس عندما يسترجع المرء عقله. لكن هذا جعلني أقدر يا هيستنغز، لأن ما لا أعرفه عن الآخرين لا ينطبق عليك. أنك لست مجرمًا، أنت صديقي الصادق الطيب الشريف هيستنغز أنت في غاية الطيبة والأمانة والبراءة، ولكنك كنت سئسئق لارتكابك جريمة، جريمة ارتكبتها شخص آخر لن يُعتبر مذنباً في نظر القانون.

كان يجب أن أتصرف. كنت أعلم أن وقتي قصير وكنت سعيداً لذلك؛ فإن أسوأ جزء من الجريمة - يا هيستنغز - هو تأثيرها اللاحق على المجرم. كان الخوف أن أتخيل نفسي، أنا هيركيول بوارو، وقد سخرتني العناية الإلهية لأقتل المجرمين جميعاً ولكن الوقت ليس كافياً لذلك (وللحمد لله) لأن نهايتي قريبة.

لقد خشيت أن ينجح نورتون في محاولته مع شخص عزيز جداً على كليتنا، أعني ابتك جوديث. وهنا تأتي إلى الحديث عن مقتل باريرا فرانكلين. ومهما كانت شكوكك بشأن الموضوع - يا هيستنغز -

فلا أظن أنك قد توقعت الحقيقة قط. لقد كنت أنت الذي قتل باربرا فرانكلين! نعم، لقد فعلت ذلك! كان للمثلث بعد آخر، بعد لم آخذه بعين الاعتبار، فقد كانت أساليب نورتون فيه غير مرئية أو مسموعة من قبل أي منا، ولكنني لا أشك أنه قد استعملها.

هل حاولت التفكير في سبب رغبة السيدة فرانكلين بالقدوم إلى «ستايلز»؟ عندما تفكر بالأمر ستجد أنه ليس موقعها المفضل؛ فهي تحب الراحة والطعام الجيد وتحب العلاقات الاجتماعية. وليس «ستايلز» مكاناً مرحاً، وهو لا يُدار جيداً، وهو أيضاً في منطقة ريفية مملة. ولكن كانت السيدة فرانكلين هي التي أصرت على تمضية الصيف هنا!

نعم، كان هناك بعدُ ثالث هو بويد كارنغتون. كانت السيدة فرانكلين امرأة قد خابت آمالها، وكان ذلك هو أساس مرضها العصبي. كانت طموحة اجتماعياً ومادياً، وقد تزوجت فرانكلين لأنها توقعت له مستقبلاً براقاً. كان زوجها ذكياً ولكن ليس وفقاً لما كانت تمني، فلم يكن ذكاؤه ليجلب له شهرة ولا سمعة كسمعة أطباء شارع هارلي المرموقين. كان معروفاً من قبل مجموعة من الرجال الذين يتمون إلى مهنته نفسها، وكان ينشر المقالات في المجلات العلمية ولكن العالم الخارجي لم يسمع به، وبالتأكيد لم يجن الأموال الكثيرة.

وها هو ذا بويد كارنغتون وقد عاد من الشرق، وكان قد حصل على لقب بارون وجنى المال، وقد كان يشعر بميل عاطفي نحو الفتاة الجميلة ذات السبعة عشر ربيعاً التي كان قد أوشك على

طلب يدها ذات مرة. كان ذاهباً إلى «ستايلز» واقترح على عائلة فرانكلين القدوم أيضاً، وهكذا أتت باربرا. وكم كان ذلك مثيراً لغضبها! من الواضح أنها لم تفقد سحرها القديم بالنسبة لهذا الرجل الغني الجذاب، لكنه كان محافظاً ولم يكن ليشير عليها بالطلاق، وكذلك لن يوافق جون فرانكلين على الطلاق أيضاً. أما إذا مات جون فرانكلين فستصبح هي الليدي بويد كارنغتون وستكون الحياة رائعة... أظن أن نورتون وجد أداة طيعة في يده.

عندما تفكر بالأمر ستجد أن المسألة كانت في غاية الوضوح يا هيستنغز. تلك المحاولات الأولى المترددة لإظهار مدى محبتها لزوجها (وقد بالغت في ذلك قليلاً، مثل ترديدها عبارة «أريد إنهاء الأمر» بحجة أنها كانت عبئاً عليه). وبعد ذلك اتبعت أسلوباً جديداً، وهو خوفها من أن يُجري فرانكلين تجاربه على نفسه.

كان ينبغي أن يكون هذا واضحاً لكليتا يا هيستنغز، لقد كانت تُعدنا لتقبل موت فرانكلين نتيجة تسممه بمادة الفايروستغمين حيث لن نشك في أن أحداً قد سممه بل سنظن أن الأمر مجرد بحث علمي محض: ظن أنه يتناول مادة شبه قلووية غير سامة ثم تبين لاحقاً أنها ضارة!

المشكلة كانت أن الأمر كله جرى سريعاً. أنت أخبرتني أنها لم تكن مسرورة عندما قامت الممرضة كارفن بقراءة كف بويد كارنغتون. وكانت الممرضة كارفن امرأة جذابة تحاول اجتذاب الرجال، حاولت مع الدكتور فرانكلين لكنها لم تنجح، ولهذا كرهت جوديث، وها هي ذي تحاول الآن مع أليوتون، ولكنها تعلم

أنه ليس جاداً في علاقتهما أبداً، ولذا فمن المحتم أن تضع عينها على ذلك الرجل الغني الذي لا يزال جذاباً، السير ويليام الذي كان قد بدأ يتبه للممرضة كارفن على أنها فتاة جميلة.

خافت باربرا فرانكلين وقررت العمل بسرعة، فكلما أسرع لتصبح الأرملة الحزينة الجذابة التي لا يمكن تعزيتها كان ذلك أفضل؛ ولذلك باشرت العمل بعد ذلك الصباح الذي بدت فيه مهتاجة. أتدري يا صديقي؟ أنا أحترم «لوبياء كالا بار»؛ لقد نجحت هذه المرة، فقد أبقت على البريء وتخلصت من المذنب!

دعتكم السيدة فرانكلين جميعاً للمصعود إلى غرفتها وأخذت تُعدّ القهوة مثيرة الضجة ومحاولة إظهار الأمر بصورة واضحة. وكما قلت لي فقد كان فنجانها بجانبها وفنجان زوجها في الجهة الأخرى من سطح خزانة الكتب الدوّارة. ثم رأيت الشهاب وخرج الجميع وبقيت أنت فقط يا صديقي، أنت وكلماتك المتقاطعة وذكراتك، ولكي تخفي مشاعرك فقد دوّرت خزانة الكتب باحثاً عن اقتباس من شكسبير.

وهكذا فعندما عادوا جميعاً كان كوبا القهوة قد نبادلا موقعيهما، فشربت السيدة فرانكلين القهوة المخلوطة بلوبياء كالا بار التي كان مخطّطاً أن يشربها الزوج العزيز، أما الدكتور فرانكلين فقد شرب كوب القهوة الخالي من السم الذي كان مخصّصاً للسيدة فرانكلين الذكية!

لكنك لو فكرت قليلاً يا هيبستنز لوجدت أنني لم أملك سوى طريقة واحدة للتصرف رغم أنني أدركت ما حدث. ثم أكن

قادراً على إثبات الحقيقة، وإذا ما شكّ أحدهم في أن وفاة السيدة فرانكلين لم تكن انتحاراً فسوف يُثار الشك بالتأكيد في فرانكلين أو جوديث، وهما شخصان كانا برّيين بالتأكيد؛ ولذلك فقد فعلت ما أظن أن من حفي فعله، فاستغللت ملاحظات السيدة فرانكلين غير المقنعة بشأن إنهاء حياتها.

كنت أستطيع القيام بذلك، وربما كنت الوحيد الذي كان باستطاعته عمل ذلك؛ فلشهادتي وزنها كما تعلم، وأنا خبير في الجرائم، فإذا ما اقتنعت أنا بأن الأمر كان انتحاراً فسوف يُقبل على أنه انتحار. وقد لاحظت أن هذا حيزك وأنت لم تكن مسروراً، ولكنك لم تشكّ في الخطر الحقيقي لحسن الحظ.

ولكن هل ستفكر بالأمر بعد وفاتي؟ هل ستفكر وتردّد بين الحين والآخر قائلاً: "افرض أن جوديث...؟" قد نفع، ولذلك كتبت لك هذا؛ يجب أن تعلم الحقيقة.

شخص واحد لم يعجبه الحكم بأن الأمر كان انتحاراً، وهذا الشخص هو نورتون. لقد حُرّم من رطل اللحم الذي توقعه! حُرّم من متعته وأخفقت الجريمة التي أعدها، لكنه لم يلبث أن رأى وسيلة لتعويض الأمر، وسرعان ما بدأ بإلقاء التلميحات، فظاهر -في البداية- بأنه رأى شيئاً بمنظاره، كان يريد أن يوصل الانطباع بأنه رأى ألبرتون وجوديث في وضع مشبوه. لكنه لم يُقل شيئاً محدّداً، فقد كان بإمكانه استغلال هذه الحادثة بطريقة أخرى.

فلنفترض -على سبيل المثال- أنه قال إنه رأى فرانكلين وجوديث؟ إن هذا سيثير جانباً جديداً في قضية الانتحار. وهكذا

قررت أنه يجب عمل ما يلزم بسرعة، فرتبت أن تحضره إلى غرفتي في تلك الليلة.

سوف أخبرك بما جرى بالضبط: كان نورتون سعيداً - بلا شك - وهو يخبرني بقصته المملقة، ولكنني لم أنتظر بل أخبرته بوضوح ودقة بكل ما أعرفه عنه. ولم ينكر ذلك؛ نعم يا صديقي، لقد جلس في مقعده وابتسم ابتسامة راضية! أجل، لا توجد كلمة تستطيع التعبير عن ذلك إلا أنه ابتسم برضا، ثم سألتني عما أنوي أن أفعله بشأن فكرتي المسلية هذه، فقلت له إنني أنوي إعدامه، فقال: حقاً؟ بالخنجر أم بالسهم؟

كنا قد أوشكنا على تناول كوب من الشكلاتة معاً، فقد كان محبباً للجلوى. قلت له: أسهل طريقة ستكون بالسهم.

وناولته كوباً كنت قد صيبتة فقال: في هذه الحال أتمانع إن شربت من كوبك بدلاً من أن أشرب من كوبي؟

فقلت: لا، أبداً.

في الحقيقة لم يكن ذلك مهماً، فكما قلت: أنا أيضاً أتناول الحبوب المنومة. لكنني ومنذ أن بدأت بتناولها كل ليلة لفترة طويلة اكتسبت نوعاً من المقاومة، والجرعة التي تنوم نورتون تؤثر في تأثيراً بسيطاً. كان الدواء في شراب الشكلاتة وقد تناول كلانا القدر نفسه منه، لكن جرعته أثرت فيه فوراً في حين لم أتأثر أنا إلا قليلاً، ولا سيما بعدما عادتها بجرعة من الإستركتين.

وهكذا انتهى هذا الفصل. وعندما نام نورتون أجلسته بسهولة

على كرسي المتحرك الذي يحوي العديد من التفتيات، ومن ثم أعدت الكرسي إلى مكانه المعتاد عند النافذة خلف الستائر. وعندما نام الجميع بعدما وضعتي كيرتس في الفراش قادت نورتون إلى غرفته، ولم يبق أمامي سوى أن أضع نفسي أمام أعين وأذان صديقي الطيب هيبستغز.

ربما لم تكن قد أدركت ذلك، ولكنني أضع شعراً مستعاراً... واعلم أيضاً أنني كنت أستعمل شارباً صناعياً! حتى جورج لا يعلم ذلك، وقد تظاهرت عندما قدم كيرتس بأني أحرقت، وعلى الفور قام مُزَيِّي بإعداد بديل مماثل.

حسناً، أخيراً ارتديت رداء نورتون وشعنت شعري الأبيض عند المقدمة ومشيت عبر الممر وطرقت بابك، وفتحت أنت الباب ونظرت بعينيك الناعستين عبر الممر، فماذا رأيت؟ رأيت نورتون يخرج من الحمام وهو يعرج عبر الممر إلى غرفته، ثم سمعته وهو يغلق الباب من الداخل بالمفتاح.

بعد ذلك نزع الرداء عني ووضعت على نورتون ومددته على السرير، ثم أطلقت النار على رأسه من مسدس صغير كنت قد اشتريته واحتفظت به (ولم أستعمله إلا في مناسبتين خرج فيهما نورتون من غرفته، فوضعت في درج طاولته لثراه الخادمة وتشهد بأنه ملك له). بعد ذلك غادرت الغرفة بعد أن وضعت المفتاح في جيب نورتون وأوصدت الباب من الخارج بمفتاح شبيه كنت قد حصلت عليه منذ زمن، وأرجعت الكرسي المتحرك إلى غرفتي. ومنذ ذلك الوقت وأنا أكتب هذا التوضيح.

أنا تعبت جداً والجهد الذي عانيتُه قد أثر في بشكل كبير، ولا أظن أن وقتاً طويلاً سيمضي قبل أن أموت، لكنني أريد أن ألفت انتباهك إلى نقطة أو نقطتين: إن جرائم نورتون كانت هي الجرائم الكاملة، أما جريمتي فلم تكن كذلك ولم أُنو أن تكون كذلك. كانت أنسب وأسهل طريقة للتخلص منه هي قتله أمام الجميع، كان أقتله بالخطأ بمسدسي الصغير مثلاً، وكنت سأظهر الشعور بالأسى والندم على هذا الحادث الذي سيبدو كحادث مأساوي. كانوا سيقولون إن المسكين لم يكن يعلم أن المسدس كان محشواً، يا له من فتى مسكين!

ولكنني لم أرغب في هذه الطريقة، وسأخبرك لماذا فعلت ذلك: كان هذا -يا هيستنغز- لأنني أردت المقامرة. نعم، أردت المقامرة، وها أنذا أرتكب كل الأمور التي كنت تلومني دائماً لأنني لم أكن أفعلها. وأنا عادل معك، أحاول تحديك والعب اللعبة وكل الفرص متاحة أمامك لاكتشاف الحقيقة. إن كنت لا تصدقني فدعني أسرد لك كافة الأدلة.

المفاتيح مثلاً: أنت تعلم (لأنني أنا من أخبرك بذلك) أن نورتون وصل بعدي، كما أنك تعلم (لأنني أخبرتك) أنني غيرت غرفتي بعد وصولي إلى «ستايلز» بقليل، وأنت تعرف (لأنني أخبرتك أيضاً) أن مفتاح غرفتي قد اختفى بعدما وصلت إلى «ستايلز» فصنعتُ مفتاحاً جديداً.

ولهذا فعندما تسأل نفسك: من قتل نورتون أو من أطلق عليه النار ثم استطاع مغادرة الغرفة التي كان بابها موصداً من الداخل

بصورة واضحة قاطعة، في الوقت الذي كان فيه المفتاح في جيب نورتون؟ عندما تسأل نفسك هذا السؤال فلن تجد سوى جواب واحد: إنه هيركيول بوارو. بوارو هو الوحيد الذي امتلك مفتاحاً بديلاً لإحدى الغرف منذ وصل إلى «ستايلز»، وهو الذي رأيته أنت في الممر!

بل إنني أنا نفسي سألتك إن كنت متأكداً من أن الرجل الذي رأيته في الممر هو نورتون. وقد أدهشك سؤالي وسألتني إن كنت أقصد أن الرجل الذي رأيته لم يكن نورتون، فأجبتك بأنني لم أقل إنه لم يكن نورتون، ولا سيما وأنني بذلت الكثير من الجهد لإثبات أنه كان نورتون بالتأكيد. ثم أثرت موضوع الطول وقلت لك إن جميع الرجال هنا أطول من نورتون، ولكن كان بينهم رجل أقصر من نورتون وهو هيركيول بوارو، وأنت تعلم أن المرء يستطيع أن يزيد من طوله بسهولة بواسطة الكعب العالي وروافع الأحذية.

لقد اعتقدت أنني عاجز مريض، ولكن لماذا؟ فقط لأنني أخبرتك بذلك. لقد أبعثت جورج، وكان دليلي الأخير إليك هو أن تذهب إلى جورج وتحدث إليه.

الأدلة التي تركتها لك (عطيل وكلوتي جون) توجه نظرك إلى أن «س» كان نورتون، فمن إذن كان يمكنه قتل نورتون؟ فقط هيركيول بوارو! وحينما تبدأ بالتفكير بهذه الطريقة سوف تفهم الأمور الباقية كلها، الأمور التي قلتها وفعلتها؛ صممتي الذي لا يمكن تفسيره، وشهادات الأطباء من مصر وطبيبي الخاص في لندن بأنني لم أكن عاجزاً عن المشي، وشهادة جورج بأنني كنت أضع

شعراً مستعاراً، والحقيقة التي لم أكن قادراً على إخفائها والتي كان ينبغي أن تلاحظها، وهي أنني أعرج أكثر مما يعرج نورتون.

ثم تأتي أخيراً إلى طلقة المسدس... نقطة ضعفها الخاصة. كان ينبغي أن أطلق النار على صدغه، هذا أمر أعرفه تماماً. لكنني لم أستطع السماح لنفسني بهذا العمل الذي سببك أثراً يفترق إلى التجانس والتوازن. فما الذي صنعت؟ أطلقت الرصاصة في منتصف الجبهة تماماً؛ نقطة ذات تناظر كامل. لقد غلبني عشقي الدائم للتجانس والكمال!

آه يا هيستنغز! كان يجب أن يخبرك هذا بالحقيقة. مع ذلك فربما كنت قد شككت بالحقيقة وعرفت الأمور كلها قبل أن تقرأ كلماتي هذه. أهذا ممكن؟ لا أظن، فأنت ذو طبيعة رقيقة وتبالغ في ثقك بالآخرين.

بِم يجب أن أخبرك أكثر من هذا؟ أظنك ستجد أن فرانكلين وجوديت قد عرفا الحقيقة، على الرغم من أنهما ما كانا ليخبرك بها. سيكون هذان الاثنان سعيدين معاً، وسيكونان فقيرين، ومستلذغهما الحشرات الاستوائية وتصييهما الحفى، لكن لكل منا آراءه عن الحياة المثالية، أليس كذلك؟ وأنت يا صديقي المسكين الوحيد هيستنغز! إن قلبي ينزف من أجلك، فهل تأخذ بنصيحة صديقك العجوز بوارو للمرة الأخيرة؟

بعد أن تقرأ هذه الكلمات اركب القطار (أو السيارة أو الحافلة) واذهب للبحث عن إليزابيث كول التي هي أيضاً إليزابيث ليستفيلد، ودعها تقرأ هذا الشرح أو خبئها به. أخبرها أنك أيضاً كنت على

وشك أن ترتكب نفس العمل الذي ارتكبته أختها مارغريت، ولكن مارغريت ليستفيلد لم يكن لديها بوارو ليحرسها. أزل عنها ذلك الكابوس وأخبرها بأن والدها لم يُقتل بيد ابنته، بل بيد صديق العائلة الطيب العطوف، إياغو الصادق، ستيفن نورتون!

من غير الصحيح - يا صديقي - أن تنأى امرأة مثلها عن الحياة وهي شابة جذابة فقط لأنها تظن أنها ملوثة، نعم، هذا لا يصح. أخبرها أنت بنفسك يا صديقي، أنت الذي ما زال النساء يجدنه جذاباً.

حسناً، ليس لدي المزيد لأقوله. لا أعلم - يا هيستنغز - إن كان يمكن تبرير ما فعلته أو لا يمكن؛ فأنا أؤمن بأن أتى إنسان لا يملك الحق في أن يطبق القانون بنفسه، ولكن ومن ناحية أخرى فأنا القانون. حينما كنت شاباً في الشرطة البلجيكية قتلت مجرماً يانساً جلس على أحد السطوح وراح يطلق النار على الناس في الأسفل، واليوم أنقذت حياة كثير من الأبرياء حينما قتل نورتون. ولكني لا أدري إن كان ما فعلته صحيحاً أم غير صحيح رغم هذا كله، وقد يكون خيراً لي أن لا أعرف. لقد كنت متأكداً من كل شيء. تأكدت تماماً على الدوام، لكنني أقول الآن بتواضع الطفل الصغير إنني لا أعلم!

وداعاً يا عزيزي. لقد أهدت زجاجة كبسولات الإمبرلترت عن جانب سريري؛ فأنا أفضل أن أترك نفسي تحت رحمة الخالق، وأرجو أن يأتي عقابه أو أن تأتي رحمته سريعاً.

لن نصلطد معاً مرة أخرى يا صديقي. لقد كانت رحلة صيدنا

الأولى هنا وهنا كانت الأخيرة. لقد كانت أياماً طيبة، نعم، كانت أياماً طيبة.

(انتهت مخطوطة هيركيول بوارو).

* * *

ملاحظة أخيرة بقلم الكابتن آرثر هيستنغز: لقد انتهت من القراءة، وأكاد لا أستطيع تصديق الأمر حتى الآن! لكنه على حق؛ كان عليّ أن أعرف، كان عليّ أن أعرف عندما رأيت ثقب الرصاصة في منتصف الجبين تماماً!

* * *

رياحين

www.liilas.com/vb3